فضيلة الإمام
محمد متولي الشعراوي

الشعراوى والإلحاد وانتصار لقضية الإيمان

إعداد
هاشم بكري ياسين

الناشر
دار الروضة
للنشر والتوزيع

توزيع
مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
دار الروضة للنشر والتوزيع
2 درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
سوق الكتاب الجديد - الأزبكية تليفون : 25913424

توزيع
مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
١٢٧ ميدان الأزهر أمام الجامع الأزهر القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

رقم الإيداع : ١٤٩٠٠ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : 4 - 099 - 458 - 977 - 978

المقدمة

علم بارز من أعلام الدعوة الإسلامية، وإمام فرض نفسه، وحفر لها في ذاكرة التاريخ مكاناً بارزاً كواحد من كبار المفسرين، وكصاحب أول تفسير شفوي كامل للقرآن الكريم، وأول من قدم علم الرازي والطبري والقرطبي وابن كثير وغيرهم سهلاً ميسوراً تتسابق إلى سماعه العوام قبل العلماء، والعلماء قبل العوام.

يُعد أعظم من فسر القرآن الكريم في العصر الحديث، واتفق الكثيرين على كونه إمام هذا العصر حيث لُقب بإمام الدعاة لقدرته على تفسير أي مسألة دينية بمنتهي السهولة والبساطة، علاوة على مجهود في مجال الدعوة الإسلامية، وقد كان تركيزه على النقاط الإيمانية في تفسيره ما جعله يقترب من قلوب الناس، وبخاصة وأن أسلوبه يناسب جميع المستويات والثقافات.. فكان أشهر من فسر القرآن في عصرنا.

ولد محمد متولي الشعراوي في ٥ أبريل عام ١٩١١م بقرية دقادوس مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية بمصر، وهو من أسرة يمتد نسبها إلى الإمام علي زين العابدين بن الحسين.[بحاجة لمصدر] وحفظ القرآن الكريم في الحادية عشرة من عمره. في عام ١٩٢٢ م التحق بمعهد الزقازيق الابتدائي الأزهري، وأظهر نبوغاً منذ الصغر في حفظه للشعر والمأثور من القول والحكم، ثم حصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية سنة ١٩٢٣م، ودخل المعهد الثانوي، وزاد اهتمامه بالشعر والأدب، وحظي بمكانة خاصة بين زملائه، فاختاروه رئيسًا لاتحاد الطلبة، ورئيسًا لجمعية الأدباء بالزقازيق، وكان معه في ذلك الوقت الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، والشاعر طاهر أبو فاشا، والأستاذ خالد محمد خالد والدكتور أحمد هيكل والدكتور حسن

جاد، وكانوا يعرضون عليه ما يكتبون. كانت نقطة تحول في حياة الشيخ الشعراوي، عندما أراد والده إلحاقه بالأزهر الشريف بالقاهرة، وكان الشيخ الشعراوي يود أن يبقى مع إخوته لزراعة الأرض، ولكن إصرار الوالد دفعه لاصطحابه إلى القاهرة، ودفع المصروفات وتجهيز المكان للسكن.

فما كان منه إلا أن اشترط على والده أن يشتري له كميات من أمهات الكتب في التراث واللغة وعلوم القرآن والتفاسير وكتب الحديث النبوي الشريف، كنوع من التعجيز حتى يرضى والده بعودته إلى القرية. لكن والده فطن إلى تلك الحيلة، واشترى له كل ما طلب قائلاً له: أنا أعلم يا بني أن جميع هذه الكتب ليست مقررة عليك، ولكني آثرت شراءها لتزويدك بها كي تنهل من العلم.

التحق الشعراوي بكلية اللغة العربية سنة ١٩٣٧م، وانشغل بالحركة الوطنية والحركة الأزهرية، فثورة سنة ١٩١٩م اندلعت من الأزهر الشريف، ومن الأزهر خرجت المنشورات التي تعبر عن سخط المصريين ضد الإنجليز المحتلين. ولم يكن معهد الزقازيق بعيدًا عن قلعة الأزهر في القاهرة، فكان يتوجه وزملائه إلى ساحات الأزهر وأروقته، ويلقى بالخطب مما عرضه للاعتقال أكثر من مرة، وكان وقتها رئيسًا لاتحاد الطلبة سنة ١٩٣٤م.

تخرج عام ١٩٤٠ م، وحصل على العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٤٣م. بعد تخرجه عين الشعراوي في المعهد الديني بطنطا، ثم انتقل بعد ذلك إلى المعهد الديني بالزقازيق ثم المعهد الديني بالإسكندرية وبعد فترة خبرة طويلة انتقل الشيخ الشعراوي إلى العمل في السعودية عام ١٩٥٠ ليعمل أستاذاً للشريعة في جامعة أم القرى.

وفي نوفمبر ١٩٧٦م اختار السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء آنذاك

أعضاء وزارته، وأسند إلى الشيخ الشعراوي وزارة الأوقاف وشئون الأزهر. فظل الشعراوي في الوزارة حتى أكتوبر عام ١٩٧٨م.

اعتبر أول من أصدر قراراً وزارياً بإنشاء أول بنك إسلامي في مصر وهو بنك فيصل حيث إن هذا من اختصاصات وزير الاقتصاد أو المالية (د. حامد السايح في هذه الفترة)، الذي فوضه، ووافقه مجلس الشعب على ذلك.

وفي سنة ١٩٨٧م اختير عضواً بمجمع اللغة العربية (مجمع الخالدين).

بدأ حياته العملية مدرساً بمعهد (طنطا) الأزهري، ثم انتقل إلى التدريس بمعهد (الإسكندرية) الأزهري، ثم معهد (الزقازيق) وبعدها سافر إلى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٥١م، وعمل بكلية الشريعة بمكة المكرمة مدرِّساً للتفسير والحديث، ثم عاد إلى مصر وعمل وكيلاً بمعهد «طنطا» الثانوي سنة ١٩٦٠م، ثم تولى منصب مدير الدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية سنة ١٩٦١م، ثم مفتشاً للعلوم العربية، سنة ١٩٦٢م، وقد اختاره شيخ الأزهر حسن مأمون مديراً لمكتبه سنة ١٩٦٤م.

ثم تولى رئاسة البعثة الأزهرية بالجزائر سنة ١٩٦٦م، عقب حصولها على الاستقلال، وهناك ساعد الحكومة الجزائرية في التخلص من آثار الاستعمار الفرنسي، بإشرافه على وضع مناهج دراسية جديدة باللغة العربية، وفي سنة ١٩٧٠م عين أستاذاً زائراً بكلية الشريعة بجامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة ثم رئيساً للدراسات العليا فيها.

برز الشيخ الشعراوي كداعية إسلامي سنة ١٩٧٣م، عندما قدَّمه الإذاعي أحمد فراج في برنامجه الإذاعي (نور على نور) الذي استمر عشر سنوات، كان الضيف الدائم فيه هو الشيخ الشعراوي مفسراً للقرآن الكريم.

وقد اختير وزيراً للأوقاف سنة ١٩٧٦م، ثم اعيد اختياره سنة ١٩٧٧م، وفي يوم ١٥/ ١٠/ ١٩٧٨م، قدم استقالته من الوزارة.

وقد حصل على وسام الجمهورية سنة ١٩٧٦م، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٧٧م لحضور مؤتمر الاقتصاد الدولي بالمركز الإسلامي الأوروبي، وفي سنة ١٩٨٠م عين عضواً في مجمع البحوث الإسلامية، وفي سنة ١٩٨٣م منح وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر الشريف، وقد سافر إلى نيويورك وحاضر بمقر الجمعية العامة للأمم المتحدة وألقى خطبة الجمعة بالمسجد الملحق بمبنى الأمم المتحدة، كما أجرى مقابلات إذاعية وتلفازية مع شبكات التلفاز الأمريكية، عن وجود الله تعالى والأدلة القائمة على ذلك، وبعدها سافر إلى كندا وألقى محاضرة ناقش فيها مزاعم المستشرقين وافتراءاتهم ضد الإسلام، وفندها وأبطل مقولاتهم ودعاواهم، كما زار المركز الإسلامي في «لوس أنجلوس» بالولايات المتحدة الأمريكية، وألقى محاضرة عن قضايا المسلمين والمجتمعات الإسلامية، وبعدها في سنة ١٩٨٤م قام بجولة في أوروبا، واستمرت نحو أربعة أسابيع، شملت فرنسا وسويسرا وألمانيا وبريطانيا والنمسا وغيرها، وألقى سلسلة من المحاضرات وأجاب على استفتاءات أبناء المسلمين، ووضع حجر الأساس للمركز الإسلامي في روما والمسجد الكبير في حي (باري لولي) بحضور رئيس جمهورية إيطاليا وعمدة روما ومندوب عن الفاتيكان، وفي سنة ١٩٨٥م شارك في أعمال مؤتمر السنة النبوية الثاني في (لوس أنجلوس) بالولايات المتحدة الأمريكية، وفي ديسمبر ١٩٨٦م، اختير رئيساً لمؤتمر السنَّة النبوية المنعقد بلوس أنجلوس وألقى محاضرات عدة في أماكن شتى بالمراكز الإسلامية، ثم سافر إلى النمسا بمناسبة إنشاء مصرف إسلامي في العاصمة النمساوية (فيينا) وتكلم عن الفكر الاقتصادي

الإسلامي، وفي سنة ١٩٨٧م اختير عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة،وبعد أن ترك بصمة طيبة على جبين الحياة الاقتصادية في مصر، فهو أول من أصدر قرارًا وزاريًا بإنشاء أول بنك إسلامي في مصر وهو (بنك فيصل) حيث إن هذا من اختصاصات وزير الاقتصاد أو المالية (د. حامد السايح في هذه الفترة)، الذي فوضه، ووافقه مجلس الشعب على ذلك.

وفي سنة ١٩٨٧م اختير فضيلته عضواً بمجمع اللغة العربية (مجمع الخالدين). وقرَّظه زملاؤه بما يليق به من كلمات، وجاء انضمامه بعد حصوله على أغلبية الأصوات (٤٠عضوًا). وقال يومها: ما أسعدني بهذا اللقاء، الذي فرحت به فرحًا على حلقات: فرحت به ترشيحًا لي، وفرحت به ترجيحًا لي، وفرحت به استقبالاً لي، لأنه تكريم نشأ عن إلحاق لا عن لحوق، والإلحاق استدعاء، أدعو الله بدعاء نبيه محمد ﷺ: اللهم إني أستعيذك من كل عمل أردت به وجهك مخالطاً فيه غيرك. فحين رشحت من هذا المجمع آمنت بعد ذلك أننا في خير دائم، وأننا لن نخلو من الخير ما دام فينا كتاب الله، سألني البعض: هل قبلت الانضمام إلى مجمع الخالدين، وهل كتب الخلود لأحد؟ وكان ردي: إن الخلود نسبي، وهذا المجمع مكلف بالعربية، واللغة العربية للقرآن، فالمجمع للقرآن، وسيخلد المجمع بخلود القرآن

***

في البدء كانت الرؤيا

في قرية دقادوس حيث مسقط رأس الشيخ. كانت البداية. وفي حوار تلفزيوني له يقول الشيخ " لقاء الإيمان":

نعم ، لم أكن أرغب في دخول الأزهر.. لأنني لم أكن أريد أن أبتعد عن بلدتي الصغيرة.. عن دقادوس الجميلة.. عن الأرض التي أحببتها ، المزارع والحقول ، عن حدائق الليمون والعنب ، عن النيل والرّياح والجزر التي تغمرها مياه الفيضان ثم تنحسر عنها فتكسوها الخضرة و كنت أحب أن أكون مزارعا ، وأن أبقى في دقادوس.

دقادوس الجميلة التي لم أكن أطيق البعاد عنها ، هي القرية التي فيها ولدت ، وعشت طفولتي وصباي وشطرا من شبابي ، ورغم تغريبتي الطويلة ، وتجوالي هنا وهناك ، فهي ما زالت في القلب وعلى اللسان.

في دقادوس كانت البدايات:

وتعد دقادوس هي إحدى قرى مصر العتيقة. وهي على مسافة أمتار من مدينة ميت غمر محافظة الدقهلية. وقد من الله عليها بالموقع وإن ضيق عليها في المساحة ، فكان تعدادها حوالي ١٥ ألف نسمة ، وزمامها يربو على الـ ٨٠٠ فدان ، وبينها وبين ميت غمر شريط السكة الحديد ، وقد أفاء الله على أهلها وأعطاهم خيرات كثيرة.

فهي شبه جزيرة ، من الناحية الغربية تجد نهر النيل ، فرع دمياط ومن الناحيتين الشرقية والشمالية تجد الرياح التوفيقي.

وقد كنا نسمع أن اسم " دقادوس " هو تحريف لاسم " دقلديانوس" وكان حاكما من حكام الرومان، وكان له قصر في بلدنا على النيل ، وكان

القصر عبارة عن استراحة من الاستراحات العديدة التي كان يبنيها على امتـداد النيل.

والمؤرخ الجبرتي تكلم عنها ، وقـال: إن منهـا الـشيخ أحمـد القدوسـي الذي كان ماهرا في صناعة تجليد الكتب وتذهيبها. وقبل أن تتوسع دقـادوس. كانت تحتوي على أربع حارات كبيرة.

!- حارة الباز ، والاسم لشيخ من شيوخ الصوفية.

٢- حارة الجامع الكبير ، نسبة إلى أكبر جوامع القرية.

٣- حارة أبو بكر السطوحي. نسبة إلى اسم الجامع الملحـق بـه ضـريح ومقام أبي بكر ألسطوحي. ٤- حارة الشيخ عبـدالله الأنـصاري وهـي الحـارة التي ولدت فيها في ١٥ أبريل ١٩١١.

والآن دقادوس لم تعد هي تلك القرية الصغيرة التي كانت قبيل ٨٤ سـنة يوم ولدت فيها فقد توسع وكبرت وانتشر العمران فيها ومن حولها وأصبحت جزءا من ميت غمر. صارت " قسم ثان " ميت غمر.

ورغم بعد الفاصل الزمني. إلا أنها لا تزال في كياني وذكرياتي هي نفـسها القرية التي رأيتها. وجريت في شوارعها وحواريها. وسبحت في ترعها ونيلهـا. وتعلمت في كتابها القراءة والكتابة وحفظت القرآن الكريم على شـيوخها و ولم أكن أريد البعاد عنها أو فراقها ،

وفي حوار للشيخ تكلم فيه عن تنشئته الدينية. قال:

ما زلت أذكر وقائع أيام طفولتي.. لقد تعلمنا في " الكتاتيـب".. تعلمنـا القراءة والكتابة والنطق السليم. وكانا نستخدم الألواح".. ألواح الأرداوز.

وكانت المرحلة الأولى في تعلـم القـراءة والكتابـة هـي مرحلـة الـنقط.

والتنقيط. كان " عريف الكتاب " يمسك " اللوح " ويقـوم بوضـع " الـنقط " التي تصور كل الكلمة.. أي أنه كان يكتب الكلمة " بالنقط " مثل " قل هـو الله أحد ".

ويقوم الطفل بتوصيل " النقط " بعضها ببعض ، وبهـذه الطريقـة يجـد الطفل نفسه قد صور الكلمة بالكتابة. ثم تأتي مرحلة الحفظ الجماعي.

العريف يقول: والأطفال يرددون وراءه: " قل هو الله أحد "... ومن ثـم نحفظها. وتشرع أيديهم عـلى كتابتهـا في اللـوح.. وبطريقـة التنقـيط يتعلمـون شكل وهندسة الكلمة..ويتعلمون قراءتها.

"والعريف " الذي كان يقوم بهذه المه٨مة فلي الكتاتيب أيام زمان ، كان مبصرا بطبيعة الحال.. أما الشيخ فليس ضروريا أن يكون كذلك.، وإذا كانـت مهمة العريف هي التنقيط والقراءة فمهمة " الـشيخ هـي التحفـيظ وتـصحيح النطق.

وفي أيامنا كان شيخ الكتاب يتقاضـى أجـرا قـدره " قـرش تعريفـة " في الأسبوع. وكان الأجر يقدم له كل يوم خميس.

أما أطفال الموظفين فكانوا يدفعون للشيخ " شهرية " "قرشين صاغ".

والذين ليس عندهم فلوس كانوا يقدمون للـشيخ " رغيفـين عـيش " أو عدد من " كيزان الذرة ".

وبالنسبة لي كان الشيخ الذي تعلمت القراءة والكتابـة وحفظـت القـرآن الكريم علي يديه هو " الشيخ عبد المجيد باشا "

علي يد شيخي هذا حفظت القرآن وأنا في العاشرة.. وعلى الرغم من كبـر هذا الشيخ شيخوخته فقد كنا جميعا نهابه ونخـشى عكـازه و " الفلكـة " التـي

كان يعلقنا فيها إذا نحن لم نحفظ حفظا جيدا ، أو لم ننطق نطقا سليما.

وكان والدي يقول له ": اضربه واكسر له ضلعا إذا هو أهمل في شيء.

وكثيرا ما أخذت نصيبي من هذه " الفلكة ".

وما زلت أذكر " العلقة " الساخنة التي أخذتها بسبب النطق الخطأ للآية التي تقول " " حم عسق " ولهذه الجملة في القرآن نطق خاص غير كتابتها. فهي تنطق كل حرف مفردا هكذا: " حا ميم.. عين.. سين.. قاف ".. ولكنني أخطأت ونطقتها كما كتبتها في اللوح هكذا: " حم عسق ".. فأدرك الشيخ عبد المجيد أنني لم أصغ إليه جيدا وهو ينطقها ، فوضعني في " الفلكة " وكانت العلقة ساخنة. ولم ينفع الصراخ ولا الاستغاثة !

وقد عرفت بعد ذلك لماذا نزل القرآن على سيدنا محمد ﷺ " مسموعا وليس مكتوبا " وهذا إعجاز من إعجاز القرآن.وإعجاز من إعجاز رسول الله ﷺ بعد أن سمعه ، وهو الأمي من جبريل عليه السلام.

كانت دقادوس مشحونة " بالهبات الدينية الروحية " ومشغولة بها على مدار السنة ، ثم يأتي رمضان كتتويج لهذه الهبات الدينية الروحية.

فإلى جانب المناسبات الدينية كالميلاد النبوي والإسراء والمعراج أو العيد الكبير أو العيد الصغير أو فترة الحج وما يصاحبها من احتفالات.. إلى جانب كل ذلك.. كان عندنا خمسة مشايخ طرق.

طريقة سيدي أبو خليل

طريقة أبو الحسن الشاذلي

طريقة سيدي أحمد الرفاعي

طريقة سيدي عبد القادر

طريقة سيدي أحمد البدوي

ولكل طريقة مريدون وبالطبع كل أتباع طريقة قد يدعون شيخ الطريقة إلى البلدة في بعض المناسبات و وكان عندما يأتي شيخ من هؤلاء المشايخ تكون البلدة كلها في حالة احتفال ، وتجد مميع المساجد عامرة والخير منتشر فقد كان كل بيت يجود بما لديه " يطلع صينية أكل ".

وإذا كان عندنا خمسة مشايخ طريق.. ولك شيخ يأتي ويقيم في القرية لمدة ١٥ يوم.. فمعنى هذا أن جميع شهور السنة كانت لا تخلو من مناسبة لتأجيج المشاعر الدينية لدى الناس.

ومع الاحتفالات الدينية كانوا يوزعون علينا كتيبات مثل " دلائل الخيرات " فكنا نقرأها ونحفظها عن ظهر قلب. ولكل ذلك كانت النشأة هي نشأة دينية منذ الصغر.

كانت هذه بعضاً من قبسات من ذكريات الشيخ.. في عالمه الأول "دقادوس".

***

وجدانيات الشيخ

في حوار للشيخ حول ذكرياته عن هذه الفترة يقول:

تشكيل وعمل التماثيل والمجسمات من " الطين " كان معروفا عني ذلك في القرية فقد كنت آخذ قطعة من الطين وأشكل منها " حمارا أو جاموسة أو جملا. كنت شغوفا بهذه الهواية. وكنت أطلي التماثيل بسائل لزج يشبه اللبن كنت أستخرجه من أشجار الجميز ومن ثماره.. فكانت المجسمات والتماثيل تبدو لامعة جميلة كأنها مدهونة بمادة الجملكة " مادة تستخدم في طلاء الموبيليا " فقد تملكتني هذه الهواية.

وكنت أحب الزراعة حبا كبيرا. وكانت لدي رغبة في أن أكون مزارعا مثل أبي. وكان عندنا خيل وعربات وبساتين ولكن ليس لنا " ملكية خاصة " فيها.. فقد مستأجرين.. وكنت مستريحا ، " فرحا " بهذه الحياة. ولم أكن أفكر في الخروج من بلدتي الصغيرة هذه فقد كانت هي كل عالمي الذي أعيشه...

" كان الشيخ رحمة الله عليه مرتبطا ارتباطا وثيقا بقريته دقادوس ولم يكن يرغب في الخروج منها أو كأمثاله ممن هم في مثل عمره يحلم بأن يخرج إلى العالم الخارجي ويرى " الدنيا " ولكن والد الشيخ كان يريد له أن يدخل الأزهر ويصبح من علماء الدين.. فالناس في ريف مصر متدينين بطبيعتهم ولديهم توقير كبير ولا يوصف لعلماء الدين والمشايخ مهما كانت أعمارهم. وعن هذا الأمر يقول الشيخ " كان أبي محبا للعلم.. ومصاحبا للعلماء وكان يخدم كل واحد متصل بالعلم.ز وكان إصراره على دخولي الأزهر بسبب " رؤيا " رآها خاله ليلة مولدي.

الرؤيا والبشارة:

الليلة التي ولد فيها الطفل " محمد متولي الشعراوي " كانت التوقيت التي جاءت فيها البشارة بما سيؤول إليه مصير هذا الطفل وكانت البشارة في شكل رؤيا رآها في منامه رجل من " الطيبين " وكان هذا الرجل هو " خال والد الشيخ الشعراوي.. وفي الأمر قصة طريفة لندع شيخنا رحمة الله عليه يرويها من واقع ذكرياته"

"كان من عادة والدي أن يذهب لصلاة الفجر ويحرص على ذلك حرصا شديدا.

وكان له " خال " من الناس الطيبين.يحرص هو الآخر على صلاة الفجر في جامع سيدي عبد الله الأنصاري.

وفي الليلة التي ولدت أنا فيها.. تأخر والدي عن الذهاب لصلاة الفجر.. فجلسوا ينتظرونه في المسجد.

ولما حضر. سأله خاله:

- كنت فين يا متولي؟

فقال: الست بتاعتي ولدت الليلة.. وكنت مشغولا بهذا الموضوع رحت أجيب لها " الداية ".. " والداية هي امرأة كانت تولد النساء قديما ".. والحمد لله وضعت حملها وجابت " ولد ".

فقال الحضور: ما شاء الله مبروك يا متولي.

وقال له خاله: أنا بشرت به الليلة ! رأيته في " رؤيا ".

وأشار الخال إلى منبر الجامع وقال:

- رأيته فوق هذا المنبر.وكان في صورة " كتكوت " وقف يخطب في الناس !

واندهش الناس الحضور.. وقالوا: " كتكوت" فوق المنبر !.. وبيخطب ! وعلق أحد الحاضرين. وكان معروف عنه خفة الظل.. وقال: أصل الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح ! وضحكوا..

وقال الخال:

- ده مش: كتكوت " خارج من البيضة يصيح. ده ابن متولي الشعراوي.

ولما سمع والدي هذا قال:

- لازم يبقى عالم !

ومن يومها أخذ يعدني للأزهر.. لكنني لم أكن راغبا في الالتحاق بالأزهر.

***

سنوات التجربة الأولى

من عجائب الأقدار أن هذا الشيخ الرائع والعالم الجليل والمفسر الملهم ، كان لا يريد لنفسه هذا الطريق من البداية.. فقد كان " الشعراوي الطفل " لا يريد أن يذهب إلى الأزهر.. ولا يريد أن يدرس فيه بل كان مرتبطاً ارتباطاً " سريا" كل الحبل السري الذي يربط الجنين بأمه غير أن الأم في هذه الحالة والتي ارتبط بها الشيخ الشعراوي كانت الأرض.. ولكن ليست أي أرض بل كانت أرض القرية.. قرية دقادوس.

حاول الشيخ أن يهرب من الالتحاق بالأزهر وذلك بمحاولة أن "يسقط نفسه " في الكشف الطبي عندما قدم له والده في معهد الزقازيق " وهي عاصمة محافظة الشرقية " الابتدائي والذي يتبع الأزهر. وهنا ندع الشيخ رحمه الله لتذكر هذه الأيام وعنها يقول.

- قبل الكشف بعدة أيام أخذت أضع الشطة في عيني.. لكي تحمر.. وتورم.. وتلتهب.. ويقولوا " عينيه تعبانة " ولا يصلح.

ولكن عيني كانت " تفنجل " أكثر !

واكتشفت أن هناك قسما للمكفوفين. فقلت لنفسي. وليه أخسر عيني إذا كان الكشف الطبي لا يغير من شيء !

وحاولت مرة أخرى أن " أسقط نفسي " في الامتحان الشفوي. وكنت أتعمد اللخبطة " ولاحظ ذلك الشيخ الذي كان يمتحنني فسألني؟

فيه حد جاي معاك هنا يا ولد؟

قلت: أيوه.. أبويا

قال الشيخ وهو يشير إلى أحد الحاضرين:

- هاتوه. نادوا عليه.

وجاء والدي..

وسأله الشيخ: ابنك ده.. حافظ القرآن؟

فقال والدي: نعم. أنه حافظ للقرآن الكريم حفظا جيدا.

قال الشيخ: الولد بيعمل أنه موش حافظ. وبيلخبط عن قصد وأنا ملاحظ كده !

ووجه الشيخ الممتحن كلامه لي قائلاً:

- قوم يا ابن الكلب.. ناجح

ويعلق الشيخ على هذا الموقف في سياق ذكرياته عن هذه الفترة من حياته ضاحكا:

وهكذا شاءت إرادة الله أن أدخل الأزهر الشريف. وأن تتحقق رغبة والدي.

ويذكر الشيخ الشعراوي أنه رغم التحاقه بالتعليم الأزهري. إلا أنه لم يكن راغبا في الاستمرار فيه في مراحله الأولى، وكان يعاوده الحنين للعودة إلى قريته والاستقرار فيها والعمل بالزراعة. وأنه أخذ يثقل على أبيه في طلب النفقات وشراء المراجع والكتب حتى يضيق به ويوافق على عودته والانقطاع عن الدراسة.

يقول الشيخ: أذكر أنني كتبت له " يقصد والده " قائمة طويلة بأسماء الكتب التي أريدها باعتبارها من الكتب المقررة علينا في الدراسة. ولم تكن هذه الكتب ضمن الكتب المقررة ولكني أردت التضييق عليه وتعجيزه.

كانت الكتب التي طلبتها من بين أمهات الكتب في التراث وغيره ومنها على سبيل المثال:

العقد الفريد وهو لابن عبد ربه الأندلسي. وفي ثلاثة أجزاء.. وشرح نهج البلاغة لعبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد، وهو من تحقيق محمد إبراهيم أبو الفضل إبراهيم ، وفي ٢١ جزءا.. ومجمع الأمثال لأحمد بن محمد الميداني ، وهو عبارة عن أربعة أجزاء. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي.. وجميع مؤلفات مصطفي لطفي المنفلوطي.

هذه الكتب وغيرها كثير طلبت شراءها.. وقلت له: أنني محتاج لها.. وفي أسرع وقت.

وفوجئت بوالدي يشتريها ويحضرها لي.. كل الكتب التي طلبتها. وقال وهو يقدمها لي: أنني أعلم يا بني أن جميع هذه الكتب التي طلتها ليست مقررة عليك. ومع ذلك فقد اشتريتها لك.. لكي تنهل من علومها.. وتنمي ثقافتك!.

وبعد هذه الواقعة بدأت ألتفت جديا للدراسة وأدركت أنه لا عذر لي بعد ذلك ولا حيلة.

ويضحك الشيخ وهو يقول: الكتب التي طلتها واشتراها لي والدي كان ثمنها يزيد على ثمانية جنيهات.. وهذا المبلغ في ذلك الوقت كان يكفي لشراء جاموسة.ويتحدث الشيخ الشعراوي طويلا عن والده ، وعن حبه للعلم والعلماء فيقول:

- يشهد الله أنني أخذت من معلمي ١٠٪ من ثقافتي... وأخذت من أبي الرجل الأمي ٩٠٪ من ثقافتي.. لقد تحمل والدي الكثير من أجل أن أواصل دراستي في الأزهر.

أذكر أنني طلبت منه يوما وأنا طالب أن يعطيني عشرة جنيهات وسألني: لماذا عشرة جنيهات؟ فقلت له: أنا في حاجة إلى عشرة جنيهات.

وفي اليوم التالي أعطاني الجنيهات العشرة بصورة أغضبتني. فلم يضع العشرة جنيهات في يدي مرة واحدة.. وإنما أخذ يعدها جنيها، جنيها. وتأثرت من ذلك كثيرا ، فهو لم يسبق له أن فعل ذلك معي. كان دائما يعطيني كل ما أطلبه وهوة في غاية الرضا والسرور. وسألته بغضب: بتعد العشرة جنيه يابا؟! فقال وهو يخفي ضيقه: إيوه.. علشان لما تاخد شهادة العالمية وتتخرج وتتوظف تبقى ترد لي هذا المبلغ !

قلت وأنا في مندهش: واشمعنى المرة دي يعني تقول الكلام ده؟

وسكت أبي ولم يرد. وأحسست أن هناك شيئا لم يفصح عنه فقلت له:

روح يا شيخ.. الله لا يحوجك لي !

وابتسم والدي وضمني إلى صدره ، وقبلني. ومرت الأيام وأنا لا أنسى تلك الواقعة التي حزّت في نفسي.. وهي أن والدي لم يعطني العشرة جنيه مرة واحدة بل راح يعدها جنيها جنيها ولم يحدث من قبل أن فعلها. فما هو السبب يا ترى؟!

ثم حدث بعد أن تخرجت وعلمت أستاذا بكلية الشريفة في مكة المكرمة وجئت في الإجازة ومعي مبلغ من المال.. فأشار والدي بأن يبني لي بيتا ، واشترى لي قطعة أرض بالفلوس التي بقيت معي وشرع في بناء البيت. ولم تكف الفلوس فباع بقرتين وجاموسة وأعطاني المبلغ في يدي. فتذكرت يومها حكاية الجنيهات العشرة التي أعطاها لي جنيها جنيها.. وقلت له: أنت فاكر يوم أن أعطيتني العشرة جنيه وأنت تعدها جنيها جنيها !

قال: أيوه فاكر.

قلت: سألتك يومها لماذا تعدها؟ فقلت: لكي أردها لك عندما أتخرج في الأزهر وأتوظف؟

قال: أيوه..

قلت: ولم أرد لك العشرة جنيه حتى ألآن؟

قال وهو يضحك: أيوه.. ولكنك دعوت لي بها.

قلت: ألا، تضع في يدي مبلغا كبيرا.. مرة واحدة. ولم تسألني عن رده ! أريد أن أعرف منك يا والدي.. لماذا عددت العشرة جنيه يومها؟ وطالبتني بأن أردها لك عندما أتخرج وأتوظف؟

قال والدي وهو يتذكر: لم أقل لك وقتها من أين أتيت لك بالعشرة جنيه. ولم يكن معي هذا المبلغ. وكانت الظروف صعبة جدا. وفكرت طويلا من أين أحصل عليه. وأخيرا قصدت أنسانا وطلبت منه أن يقرضني العشرة جنيه وأن يمهلني في ردها ، وعرضت عليه أن أكتب له " إيصال أمانة " وأن أجعل للمبلغ " فائدة " إذا أراد وأدرك الرجل أنني في حاجة ضرورية لهذا المبلغ فأعطاه لي دون أن يقبل بكتابة " إيصال أمانة " وقال: على مهلك ،وفي أي وقت ترده لي !

وجئت من عند هذا الرجل بالعشرة جنيه لأعطيها لك دون أن أفصح لك عن هذه الحكاية.

قلت: أنا لم أرد لك المبلغ طبعا.. ولكني دعوت لك به يومها.. فهل تذكر دعوتي لك؟

قال: فاكر كويس.. قلت لي يومها: " الله لا يحوجك لي ".

قلت: أما دعوتي لك اليوم.. فهي " الله لا يحوج بعضك لبعضك يا والدي " فضمني إلى صدره. وقبلني..

" كان والدي يعلم معنى دعوتي له.. فقد كان له صديق مصاب بعاهة في إحدى يديه.. وكان يستعين بيده غير المصابة في تحريك يده المصابة.. أي أن بعضه يحتاج إلى بعضه !.

***

سنوات الأزهر الأولى

ما أروعه من والد ذلك هو والد الشعراوي ذلك الرجل الذي كان بمثابة الجندي المجهول والمعلوم في حياة الشيخ فقد كان رجلاً " متنوراً" برغم أنه كان أمياً فهو الذي حرص على أن يصل ابنه إلى شواطئ بحر العلم الشرعي ويصبح من العلماء وفي سبيل ذلك كان لا يضن عليه بأي شيء حتى أنه اقترض ذات مرة ليلبي له حاجته.. وبرغم محاولات الشاب الشعراوي أن يعجّز والده عن أداء مهمته ولكنه فشل إزاء إرادة الأب الحديدية والمصممة رغم أنه لم يكن سوى رجل من " الفلاحين البسطاء الطيبين " وفي السطور التالية من ذكريات الشيخ نرى قبسا من مجهودات هذا الرجل العظيم.

عن اليوم الأول لارتدائه العمامة وهو في طريقه للأزهر يتذكر الشيخ:

" أراد والدي أن يحببني في الأزهر فاهتم اكثيرا بكل ما كنت أطلبه منه وكانت طلباتي كثيرة ومرهقة لكنه كان يفعل كل ما في استطاعته لكي يلبي لي طلباتي وإلى حد " التدليل " مع أنه كان " غلبان ".

أجمل عمامة ، وأجمل هندام ، كان يشتريه لي.. كنت ألبس "السكوبيس".. والحرير الياباني.. والصوف الممتاز " من يصدق أن أبويا " الغلبان " ده. كان يجيب اتنين يمسحوا لي " الجزمة " كل واحد فردة علشان يشوف مين اللي " فردته " بتلمع أكثر ، كان والدي يدللني كثيرا. ويهتم بكل طلباتي لكي يحببني في الأزهر ، وبذلك استطاع أن يكسر منخيري " وبدأت أهتم بدراستي وانتظم ولم يعد لي شاغل سوى الدراسة والتحصيل.

وقبل دخولي المعهد الابتدائي الأزهري بأسبوعين أخذن والدي ورحنا الزقازيق. أخذني ليشتري لي " العمامة " والجبة القفطان.

ذهبنا إلى محل " الطرابيش" ، وأخذ الرجل " مقاسي " ، وقال له والدي:

- عايز أحسن طربوش " طربوش عمامة " عندك.. أحسن خامة وأحسن صنعة. ويكون " مضبوط تمام !

ورد الرجل: حاضر يا سيدي.. كل طلباتك حتتنفذ. بس تدفع ٢٥ قرش.

وقال والدي: أنا موافق على المبلغ.. ومن غير فصال. بس حاجة تكون محترمة ، واللي يشوفها يقول دي أحسن " عمامة " في البلد !

وأضاف والدي:

- وخليهم تلاتة !

ورد الرجل: يبقى حسابنا ٧٥ قرشاً!

وهكذا اشترينا طرابيش ثلاث عمائم مرة واحدة !

واشترينا في نفس اليوم " كمية من " شيلان " العمائم ! ويضيف الشيخ وهو يضحك: أبويا كان يحب دائما " يقلوظني " أما " الكاكولة " فقد اشترينا قماشها بـ ٦٠ قرشا وفصلناها بـ ٤٠ قرشا. أي أنها كلفتنا جنيها وهذا مبلغ لم يكن بسيطا في تلك الأيام. فالجاموسة كان ثمنها كما قلت ثمانية جنيهات.

ويم لبست العمامة والكاكولة لأول مرة. وأنا في طريقي من بلدنا دقادوس إلى الزقازيق للالتحاق بالمعهد الأزهري.. يومها كان كل من يقابلني يقدم لي التحية ويدعو لي بالتوفيق يناديني " يا شيخ شعراوي "

***

الحياة مواقف

عندما يولد أي عالم أو فقيه تنعقد عليه الخناصر ويكون موضع إجماع ويجمع الله حوله قلوب كثيرا من الخلق.. لا يعرف أحد ولا هو نفسه ما يكون مصيره في البداية حتى يبدأ طريق العبقرية والنبوغ وحين يموت يعلم العالم كله بموته ويكرموه وتنعقد عليه الرايات. ففي كثير جدا من تراجم العلماء والفقهاء الكبار قد يكون تاريخ الميلاد مشوشاً أو حتى غير معلوم ولكن تاريخ الوفاة يكون معلوما بالسنة والشهر واليوم وحتى بالساعة.. فلأن الشيخ الشعراوي كان علما من أعلام التفسير والعلم الشرعي فالكل يهتم بتاريخ حياته وكيفية عيشه وحتى طريقة تربيته لأبنائه ، ولماذا كل هذا؟.. لأنه ببساطة صار " قدوة " ومثل يحتذى ويقتدى به... ولذلك فنحن نرصد في هذا الجزء اللطيف بعضاً من مواقف الشيخ الطريفة والتي جرت له على مدار حياته المثمرة.

**

ريال عن كل قصيدة

يقول الشيخ رحمه الله:

كنت في سن الشباب.. وجئنا إلى القاهرة بصحبة صديق له لديه علم دائماً بمكان تواجد أمير الشعراء أحمد شوقي.. الذي كنت معجباً به وبشعره أيما إعجاب.. فاصطحبني ومعي أصدقاء إليه في عش البلبل عند الهرم.. وقال لأمير الشعراء:

هؤلاء شبان من أشد المعجبين بك ويحفظون شعرك كله.. ويأملون فقط في رؤيتك.

فسألني شوقي:ما الذي تحفظه عنى؟

فذكرت له ما أحفظ له من شعر.

فسألني: وما الذي أجبرك على حفظ كل هذه القصائد؟

فقلت له: لأن والدي كان يمنحني ريالاً عن كل قصيدة أحفظها لك.

يقولون ما لا يفعلون

وهذا موقف آخر لفضيلة الشيخ الشعراوي مع أمير الشعراء.. ففي مقتبل شباب الشيخ عندما كان طالباً صغيراً.. قرأ قصيدة نشرت لأمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله.. والتي فيها يصف الخمر قائلاً:

رمضان ولى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فدفعته الغيرة أن يذهب إليه وأن يقول له:

إن لنا عليك عتابا.

فسأله شوقي: فيم العتاب؟

قال: ما هي حكاية رمضان ولى هاتها يا ساقي؟

فضحك شوقي كثيراً وقال: ألستم حافظين للقرآن الكريم؟

فقال: بالطبع نحفظه.

فقال: ألا تعرفون الآية التي تقول: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ* وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٤/ ٢٢٦).

فقال الشيخ الشعرواي: وكان ردا أفحمنا.. وبعدها بستة أشهر مات رحمه الله.

إحنا جايين نحجوا مش جايين نصلوا

يقول الصحفي سعيد أبو العينين في حواراته مع الشيخ الشعراوي على لسان الشيخ رحمه الله:

أنا عملت بالجزائر ست سنوات رئيساً لبعثة التعريب.. وفي الجزائر تعرفت على الشيخ أحمد خطاب الذي كان وكيلاً لوزارة الأوقاف في الجزائر.. والذي كان خطيباً لمسجد باريس بعد ذلك.. وأصبحنا أصدقاء.

والتقينا بعد ذلك في السعودية عندما عدت للعمل أستاذاً بكلية الشريعة في مكة المكرمة.

التقينا وكان الشيخ خطاب قد جاء للحج ومعه صديق لنا نحن الاثنين وهو رجل أعمال مغربي اسمه الشيخ عابد.

ومن طبيعة الجزائريين والمغاربة أنهم سريعو الغضب.. وكنا نحن الثلاثة نلتقي كثيراً أيام كنت أعمل بالجزائر وكانت لنا جلسات طويلة.

ولذلك فقد سعدت بلقائهما عندما التقينا في الحج فكنا نقضى معظم الوقت معاً.

والملاحظ في السعودية أن الوقت يمر بسرعة شديدة.. فما أن تنتهي من فطارك حتى تسمع آذان الظهر.. وترجع من صلاة الظهر فتجد العصر قد جاء.. والمؤذن يرفع الآذان.. وترجع من صلاة العصر فتجد المغرب قد حان!

هذا شيء يبدو ملحوظاً للذين يجيئون إلى السعودية لأول مرة.. وكنا نذهب نحن الثلاثة للصلاة معاً.

وبحكم عملي في السعودية لسنوات كنت منتبهاً للوقت.. فعندما نعود من صلاة الظهر وننشغل قليلاً أقول لهما:

ياللا بينا نروحوا نصلوا العصر.. ونرجعوا من صلاة العصر فأقول لهم: ياللا بينا نلحقوا المغرب.

وفوجئت بالشيخ عابد غضبان وزعلان!

وسمعته يقول للشيخ خطاب في ضيق:

شيخ خطاب؟

فرد الشيخ خطاب: أيوه يا شيخ عابد.

فقال الشيخ عابد: إحنا جايين نحجوا.. مش جايين نصلوا !

ويضحك الشيخ الشعرواي طويلاً ".إن شاء الله

***

موقف مع الرئيس السادات

ومن المواقف الطريفة للشيخ الشعراوي أيضاً مع السادات (رحمهما الله).. أنه أثناء حلفه اليمين الدستورية وقف يقرأ القسم بالمحافظة علي النظام والدستور والقانون.. وأن يرعي مصالح الشعب وسلامة أراضيه.. إلخ.

وفي آخر القسم قال بصوت مرتفع مستمر مع القسم:

(إن شاء الله).

وأغرق السادات في الضحك.. ولكنهم حذفوا هذه العبارة الأخيرة في الإذاعة والتليفزيون عند قراءة نشرات الأخبار.

موقف له في الوزارة:

بعد تعيين الشعراوي وزيراً – كما يحكى د/ محمود جامع – قابل السادات في إحدى المرات وسأله السادات:

هل صحيح يا شيخ شعراوي أنك لا تجلس علي مكتبك في الوزارة وتركت الكرسي الوثير وجلست علي كرسي "خرزان" بجوار الباب؟.

فقال له: نعم هذا صحيح.

فقال له: وليه؟

فقال الشعراوي: حتى أكون قريبا من الباب.. وعندما "ترفدني" أجري سريعا وأقول "يا.. فكيك".. وأحمد الله وأنفد بجلدي.

وضحك السادات طويلا.

أتعدل أنت يا ريس:

ومرة أقام السادات حفلاً ساهراً علي شرف صديقه شاوشيسكو رئيس رومانيا الديكتاتور الراحل.. وكانت حفلة فيها غناء ورقص.. وفي فقرة غناء قرر الشيخ أن يعطي ظهره للمغنية.. وكان منظراً نشازاً في الحفلة الرسمية.. ورآه السادات فقال لممدوح سالم:

(خلي الشيخ الشعراوي يتعدل).

فرد الشعراوي قائلاً: أنا اللي أتعدل.. أتعدل أنت يا ريس.

الشعراوي وحزب الوفد:

الشيخ الشعراوي كان وفدياً.. وكان قبل تخرجه في الأزهر يقبل يد النحاس باشا.. فلما تخرج في الأزهر وجد من العيب أن يقبل عالم أزهري يد سياسي ليبرالي.. فسلم علي النحاس بيده فقط.. فشخط فيه النحاس قائلاً:

"بوس أيدي يا ولد ".

فاستحي الشعراوي وقبل يده.

حكاية الصرة:

يقول د/ ناجح إبراهيم: ومن أطرف ما حكاه لي د.محمود جامع عن الشيخ الشعراوي أنه كان يصطحبه في الحرم المكي في إحدى المرات.. وكان الشعراوي يحمل صرراً صغيرة من الأموال يعطيها للفقراء في كل مرة يطوف فيها بالكعبة.. وكأنه يجبر القصور في كل طوافة يطوفها بهذه الصدقة.. وكان يعطي كل من يسأله.. وقد يعطي الرجل الواحد عدة مرات.

وفي مرة من مرات الطواف جاءه رجل ممن أخذوا منه هذه الصرر..

قائلاً له:

"يا مولانا أنا سفير ليبيا في السعودية.. وقد أخذت منك الصرة والصدقة تبركاً بها فقط.. وها أنذا أردها إليك".

فضحكا سوياً.

أنا تحية كاريوكا ألا تعرفني:

ويضيف فضيلة الدكتور ناجح موقفا آخر فيقول:

حكي لي د.محمود جامع أنه كان مع الشعراوي في الحرم ورأته تحية كاريوكا.. وكانت قد اعتزلت الرقص ولبست الحجاب.. وكانت هيئتها في منتهي التدين.

فأخذت تنادي علي الشيخ الشعراوي وهو لا يسمعها من الزحام حتى جاءته قائلة له: يا شيخ شعراوي بح صوتي وأنا أنادي عليك.

فقال لها: معذرة.. والله لم أسمع.

وكان يكلمها وهو ينظر إلي الأرض.. فقالت له في جرأة: انظر إليَّ حتى تعرفني.

فلما نظر إليها قال لها: معذرة.. أنا لم أعرفك.

فقالت عاتبة عليه: "أنا تحية كاريوكا.. ألا تعرفني؟"

فقال لها: معذرة.. لو عرفتك لأتيتك ولو رقصا.

فأنهي بهذه الطرفة هذا الموقف وتخلص به من عتابها وحدة لسانها.

***

تجليات التفسير

تصدى الشيخ الشعراوي لتفسير القرآن الكريم تحت عنوان " خواطر" وكأنه كان يريد لتفسيره وكلماته حول آيات القرآن الكريم ألا تكون جامدة وأكاديمية بل أراد لتفسيره أن يكونَ قريبا من الجميع المتعلم والأمي المثقف ورجل الشارع وقد حقق هدفه تماماً

فقد اجتمعت حوله القلوب والآذان فكلها كانت صاغية ، وفي هذا المجال تحضرني قصة طريفة لرجل من الصالحين وكان يلقب بـ"الخواص" لأنه كان يعمل بجدل الخوص وعمل الأقفاص والكثير من الأغراض وكان له دكانا وبالإضافة لعمله فقد كان من العلماء الكبار ومن أهل القرآن.. واجتمع ذات يوم عنده جمع من المريدين ما بين عالم ومتعلم وعامي.. فقام بتفسير قول الله تعالى " اقتربت الساعة وانشق القمر " ففسره أولا بتفسير لم يفهمه إلا العلماء المتبحرين ثم فسره تفسيرا فهمه العالم وطالب العلم ثم فسره تفسير آخر فهمه الجميع حتى العوام. فهذه هي موهبة التفسير والتي امتلكها الشيخ الشعراوي رغم أن دراسته بالأساس لم تكن في مجال التفسير.. ولأنه كان متواضعا تواضع العلماء فلم يسميه تفسيراً بل سماه بـ"خواطر حول القرآن"

السمة الأولى والتي تميز بها الشيخ الشعراوي نلمحها في منهجه التفسيري، أن تفسير القرآن على لسانه يبدو جديداً فريداً. أما المزية الثانية، فهي أن الشيخ – رحمه الله – رُزق موهبة نقل الأفكار بأبسط الكلمات، وأرشق الأساليب، وقلما اجتمع هذا لأحد ممن توجهوا لتفسير القرآن مباشرة.

وقد أحس كل من تابع تفسير الشيخ للقرآن عبر وسائل الأعلام، أو في المجالس المخصصة لذلك، بأن الله يفتح عليه وهو يتحدث، ويلهمه معاني

وأفكاراً جديدة. فكان تفسير الشيخ الشعراوي للقرآن جديداً ومعاصراً، يفهمه العوام، ويلبي حاجات الخواص، وكانت موهبته في الشرح لآيات القرآن، وبيان معانيه قادرة على نقل أعمق الأفكار، بأسلوب سلس مشوق جذاب، يكاد يأخذ بلباب العقول، ويدخل القلوب بغير استئذان.

واللافت للانتباه، أن الشيخ الشعراوي لم يعتبر جهده الذي بذله في توضيح وبيان آيات القرآن الكريم تفسيراً له، بل - بحسب رأي الشعراوي نفسه - جملة خواطر ليس إلا، يقول في بيان هذا المعنى: "خواطري حول القرآن لا تعني تفسيراً للقرآن، وإنما هي هبات صفائية، تخطر على قلب مؤمن في آية أو بضع آيات، ولو كان القرآن من الممكن أن يفسر لكان الرسول ﷺ أولى الناس بتفسيره".

وشيء آخر يستوقف المتابع لتفسير الشيخ الشعراوي وهو تعريفه للقرآن الكريم، حيث إن للشيخ تعريفاً للقرآن، يغاير بعض الشيء التعريف المشهور للعلماء، فهو يعرف القرآن بأنه: "ابتداء من قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾، إلى أن نصل إلى قوله: ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ ﴾، على أن نستعين بالله من الشيطان الرجيم، قبل أن نقرأ أي آية من القرآن".

قالوا عن الشيخ:

لقد قيل عن الشيخ الشعراوي في أثناء حياته وبعد مماته الكثير الكثير، نقتبس غيضاً من فيض:

فالأستاذ أحمد بهجت، يصف الشيخ الشعراوي، بأنه "كان واحداً من أعظم الدعاة إلى الإسلام في العصر الذي نعيش فيه...والمَلَكة غير العادية التي جعلته يُطلع جمهوره على أسرار جديدة وكثيرة في القرآن. وكان ثمرة لثقافته البلاغية التي جعلته يدرك من أسرار الإعجاز البياني للقرآن الكريم ما لم

يدركه الكثيرون. وكان له حضور في أسلوب الدعوة، يُشرك فيه جمهوره، ويوقظ فيه ملكات التلقي".

أما الدكتور محمد عمارة فيقول: " الشعراوي قدَّم لدينه ولأمته الإسلامية والإنسانية كلها أعمالاً طيبة، تجعله قدوة لغيره في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة".

وقال الشيخ سيد طنطاوي: "كان له أثر كبير في نشر الوعي الإسلامي الصحيح، وبصمات واضحة في تفسير القرآن بأسلوب فريد، جذب إليه الناس من مختلف المستويات الثقافية".

وقال الشيخ القرضاوي: "لا شك أن وفاة الإمام الراحل - طيب الذكر - الشعراوي تمثل خسارة فادحة للفكر الإسلامي، والدعوة الإسلامية، والعالم الإسلامي بأسره. فقد كان رحمه الله رمزاً عظيماً من رموز ذلك كله، وخاصة في معرفته الشاملة للإسلام، وعلمه المتعمق، وصفاء روحه، وشفافية نفسه، واعتباره قدوة تحتذى في مجال العلم والفكر والدعوة الإسلامية".

***

ثورية الشعراوي

اندلعت ثورة سنة ١٩ وانطلقت من الأزهر الشريف.. ومن الأزهر خرجت المنشورات التي تعبر عن سخط المصريين ضد الإنجليز المحتلين.

كان الأزهر هو منطلق الثورة. وهو مركز التجمع الثوري.. كانوا يأتون إليه من مختلف أنحاء البلاد. وكان شيوخ الأزهر وطلابه في مقدمة صفوف المتظاهرين وأكثرهم جرأة وحماس وتضحية ، وقد عمل علماء الأزهر وطلبته ورجاله على بث الروح الثورية في الأحزاب وفي مختلف طبقات المجتمع. وكانت ساحاته وأروقته مراكز لتنظيم المظاهرات الثورية الكبرى وكان يموج كل مساء بالآلاف من البشر لسماع الخطب الحماسية النارية والتي تشعل فيهم قوة الغضب الثوري. ولم الشعر عن المشهد فقد كانوا يستمعون أيضا إلى القصائد الحماسية التي تلقي ضد المستعمرين.

وكان يتصدى للإلقاء هذه الخطب والقصائد طائفة كبيرة من قادة الثورة وخطبائها من العلماء. حتى المسيحيون كانوا ينضمون لأمواج المسلمين في الأزهر الشريف ويخطبون أيضاً في الأزهر.

وكان سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ من رجال الأزهر. فبعد أن تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في مكتب القرية. انتقل إلى الجامع الدسوقي حيث أتم تجويد القرآن الكريم وتلقى دروسا في النحو والفقه ثم دخل الأزهر عام ١٨٧١ ليتم دراسته ويتعلم على يد شيوخ هذا الصرح الرائع.

لم يكن دور الأزهر ورجاله في ثورة ١٩ إلا استمراراً لدوره الجبار في الحركة الوطنية على طول تاريخه إلى جانب أدواره الروحية الخالدة التي قاوم فيها شتى تيارات الإلحاد والانحرافات والمذاهب الهدامة والحملات

التبشيرية ودعاة التغريب والانسحاق الحضاري.

وبعد الثورة فكروا في أن يفرقوا جموع الأزهر ! وقالوا فيما قالوا:

" أفضل طريقة أن ننشئ معهد أزهرية إقليمية " حتى لا يتجمع ويتكتل الأزهريون في موقع واحد.. في قلعة الأزهر الشريف في القاهرة.

فأقاموا معهدا في أسيوط وبعده قنا ثم معهد طنطا ثم معهد الزقازيق في سنة ١٩٢٤.

وكان معهد الزقازيق هو الذي التحقت به سنة ١٩٢٦.. وهو الذي تربينا فيه. لم يكن معهد الزقازيق على نظام الأزهر القديم. بل كان على نظام المدارس.. كان " حاجة فخمة " " حسب تعبير الشيخ ". مبنى كبير وفخم وكان لنا سكن " تحت المبنى ".

وكل طالب له سرير. وكان نظام الدراسة ٩ سنوات. القسم الابتدائي ٤ سنوات ونحصل بعدها على شهادة الابتدائية الأزهرية التي كانت تمنحنا لقب "شيخ "فيقال" "يستحق هذه الشهادة الشيخ محمد متولي الشعراوي".

ويكمل الشيخ ذكرياته.. " هذا النظام الجديد الذي علموه في الأزهر بعد ثورة ١٩ والذي تضمن إقامة معاهد أزهرية في الأقاليم. وكان من بينها معهدنا في الزقازيق.. هذا النظام صدر به قانون سنة ١٩٢٤ وهو القانون الذي أصدره الملك فؤاد. وقال فيه " أحمد شوقي – أمير الشعراء. أجمل ما قيل في الأزهر الشريف. وهي قصيدته الرائعة وكان مطلعها:

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا ... وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واجعل مكان الدر إن فضلته ... في مدحه خرز السماء النيرا

واذكره بعد المسجدين معظما

في هذه المرحلة: مرحلة الانهماك في الحركة الوطنية والحركة الأزهرية الثورية. والاعتقال ومحاولات الكر والفر والتخفي بعيدا عن المباحث "والذي كان يسمى القلم السياسي ".

يقول الشيخ: العودة إلى تلك الأيام البعيدة هي عودة إلى أيامنا الجميلة أيام الشباب والنضال والجهاد أيام الثورات والانتفاضات. من أجل الأزهر الشريف. ومن أجل الوطن ، ومن أجل رسالة الإسلام والنهوض بعد طول ركود ورقود.. ولا ننسى أن البلاد وقتها كانت تحت الاحتلال البريطاني. وقال الشيخ: " لقد قبضوا علينا أكثر من مرة. وفصلونا من الأزهر أكثر من مرة فصلوني أنا والشيخ الباقوري وفهمي عبد اللطيف رحمة الله عليهما وهذه حكايات كثيرة..

***

ومن الحكايات التي رواها الشيخ أثناء سرده لذكرياته عن هذه الفترة يقول:

" كنا في عام ١٩٣٤ .. وكنت في هذا الوقت طالبا في الأزهر. في المعهد الثانوي الأزهري ، بالزقازيق.

وكنت رئيسا لاتحاد الطلبة. وكنا في ذلك الوقت نأخذ بمبادئ الوفد في الحركة الوطنية. ونأخذ بمبادئ أساتذتنا في الأزهر إذا كان الأمر يتعلق بالحركة الأزهرية وشئون الأزهر. وكان النحاس باشا في الحكم ثم أقيل. أقاله الملك. وغضبنا لذلك. وجاءت ذكرى سعد باشا زغلول.. وكنا قد تعودنا أن نحييها في بلدنا " دقادوس ". وكانت قرية كبيرة في ذلك الوقت.

وفي الاحتفال بهذه الذكرى وقفت وقلت غاضبا مما جرى للنحاس

باشا ومن الملك الذي أقاله "

وفي هذا السياق يسرد الشيخ قصيدته التي قالها في هذه المناسبة:

ما منطقي لك والحقيقة تخجل

قد جدت الدنيا وشعبك يهزل

في كل عام تشتكي أوصابنا

ونؤمل الآتي فيقسو المقبل

مصر الأسيفة بح منها صوتها

فضراعة محمومة وتوسل

وارحمتاه للمستجير بجائر

***

قال الشيخ " لقد اعتبروا هذه القصيدة عيبا في الذات الملكية "

وأخذوا يترصدونني للقبض على.. لكنني كنت أهرب منهم في الزقازيق وفي دقادوس.

كانوا يعتبرون الزقازيق هي مهد الثورة والغضب لإقالة النحاس باشا ومنعوا الدراسة بها.

لكننا كنا مستمرين في التحريض على التظاهر والإضراب والاحتجاج بالطلبة وتبليغهم بما اتفقنا عليه.

كنت أتخفي في صورة " بائع العيش " وأحمل على كتفي طاولة مملوءة بالخبز. وأركب " عجلة " وأدخل إلى القسم الداخلي والتقى بزملائي. ونعقد

اجتماعا نتدارس فيه الخطوات التي سنقوم بها ، وكان زميلي فهمي عبد اللطيف يتخفي في صورة " سمكري " ويحمل " البوري " في يديه ويدخل ونلتقى معا في القسم الداخلي.

وقد احتار بوليس الزقازيق في القبض علينا. أنا وزميلي فهمي عبد اللطيف.

لكنهم تمكنوا من فهمي عبد اللطيف فوقع في الخدعة التي استطاعوا بها القبض على الكثيرين من زعماء الطلبة "

وعن هذه الخدعة وكيفيتها وكيف أنه من خلالها استطاع " البوليس السياسي وقتذاك من الإمساك بالكثير من زعامات الطلبة يقول الشيخ:

" كانت خدعة المخبرين هي أنهم يندسون في المظاهرات.. ثم ينادون على الطالب الذي يريدون القبض عليه بصوت مرتفع وكأنهم زملائه ، فيلتفت إليهم أو يرد عليهم بما يفيد أنه موجود هنا. فيقبضون عليه !

وقد أدركت أنا هذه الخدعة. فلم أكن ألتفت أو أرد على أي شخص يناديني ! بل إن هذا النداء كان ينبهني إلى الخطر فكنت أحتاط أكثر وأبتعد وأزوغ منهم !

ولما تعبوا ويئسوا من مطاردتي هنا وهناك. لجأوا إلى الطريقة التي تمكنهم من القبض عليّ بسهولة.

ذهبوا إلى بلدتنا " دقادوس ".. وألقوا القبض على والدي.. وعلى شقيقي الأصغر.. واعتقلوهما. وعرفت البلدة كلها أن والدي وشقيقي قد اعتقلا بسببي.. وأودعا السجن في الزقازيق.

وعرفت بذلك فطار صوابي. وركبت القطار إلى الزقازيق لكي أسلم

نفسي للمباحث وأقول لهم: أفرجوا عن والدي وعن أخي الصغير واقبضوا علي أنا وافعلوا ما تشاءون.

ويكمل الشيخ.. عندما وقفت أمام المحقق دخل علينا المأمور وكان اسمه رشدي ماهر.. وقال لي وهو يتشفي:

والله ووقعت يا شعراوي!

فقلت له:

بيدي.. لا بيد عمرو!

فقال لوكيل النيابة:

آفة البوليس أنه يعمل في أمة جاهلة:

فقلت له: لا.. آفة الأمة أن البوليس الذي يعمل بها جاهل. لأنك جهلت مهمتك.. مهمتك أن تأتي بي إلى هنا. وتقدمني لوكيل النيابة. ثم تخرج. ولذلك فأنا سأمتنع عن أي كلام إلى أن تخرج من هنا وبالفعل خرج.

ومضى الشيخ يقول: كان القاضي الذي تولى قضيتنا فيه وطنية تحكمه. فكان يمد حبسنا ويجدده كل أربعة أيام بدلا من أن يفرج عنا وكان ذلك يضايقنا كثيرا..وقد ذهب إليه بعض الناس يقولون له: إن هؤلاء طلبة. فكان لا يسمع له..ويقول: ابتعدوا أنتم. واتركوهم لشأنهم

فلما جاءت الجلسة. حكم علينا بشهر حبس !

وكنا قد قضينا الشهر في الاعتقال تحت التحقيق قبل أن يصدر الحكم علينا في القضية. ولذلك أفرجوا عنا فور صدور الحكم. وفهمنا ساعتها لماذا كان القاضي يجدد حبسنا طوال شهر كامل. فهو لم يكن يريد لنا أن نقضي يوما

من الحكم في السجن بكل ما فيه من أهوال ومعاناة. وحرص على أن نبقى في تجديد الحبس حيث نلتقى بأهلنا ويأتينا طعامنا وننام حيث لا نخالط المجرمين في قضايا السرقة والقتل.

وبعد هذا الحكم علينا.. صدر القرار بفصلنا من الأزهر. ثم جاء النحاس باشا إلى الحكم فأتى بكل الملفات والدوسيهات الخاصة بالقضايا السياسية وقام بحرقها في مجلس الوزراء.. وأعادنا إلى الأزهر.

ماذا كان موقف الوالد من هذه المحنة.. وعن هذا الموقف يتذكر الشيخ قائلا في حوار له:

" كان والدي رجلا طيبا وحكيما ، ولم يقل لي يومها سوى تلك العبارة التي لا أزال أذكرها.. قال: " ما دمت عامل من نفسك راجل سياسي.. يبقى ما تهربش أبدا. ولازم تتحمل نتيجة عملك " !

كانت هذه إطلالة على جزء من ذاكرة هذا الرجل العظيم وإزاحة لبعض الغموض عن تلك الفترة التي تزخر فيها مصر بالنشاط الثوري والسياسي وهكذا كان الشيخ شعراوي نموذجا رائعاً لـــ " العالم العامل " ذلك النوع من العلماء الربّانيين والذين يطبقون ما علموا وتعلموا في حياتهم العملية فيصبح بذلك لهم دورا فعالاً في مجتمعاتهم ولهم تأثير عظيم في كل المخالطين لهم المريدين لعلمهم.. وهكذا نرى أن الشيخ كان فعالا ومتفاعلاً مع قضايا وطنه ودينه ومشاركاً في هموم جيله.. نسأل له الله العفو والمغفرة والرحمة.

من ذكريات جامع..

من هو الدكتور محمود جامع:

من مواليد ١٩٣٢ كفر السادات بالمنوفية

كان من أصدقاء الرئيس أنور السادات منذ الصغر بحكم قرابة البلدة

كان عضوا بالجهاز السري لجماعة الإخوان المسلمين

ترك الجماعة منذ عام ١٩٥٤

تخرج من كلية الطب و يعمل طبيب أمراض جلدية بطنطا.

صاحب الرئيس السادات في كثير من المواقف الحرجة وكان همزة الوصل بين السادات وقيادات الإخوان

عين عضوا بمجلس الشورى

الدكتور محمود جامع كان شخصا ذو علاقات متفرعة وثقافة عميقة وقد اختلط مع الشيخ الشعراوي في مرحلة هامة جدا من مراحل التاريخ المصري وهي الفترة الساداتية وهي فترة حكم السادات لمصر وهي ذاتها الفترة التي ارتقى فيها الشيخ الشعراوي منصب "وزير الأوقاف " لفترة من الزمن وعن الشيخ الشعراوي وعن ذكريات هذا الزمن كتب الدكتور جامع قبسات من ذكرياته عن الشيخ الشعراوي والذي ظل صديقا له وعلى اتصال به حتى وفاة الشيخ رحمة الله عليه. وقد دون هذه القبسات في كتابه " عرفت الأخوان ".

كتب الدكتور جامع في كتابه قائلاً:

"كان الإمام محمد متولي الشعراوى عالماً جليلاً متمكناً غاية التمكن من قواعد اللغة لعربية الأصيلة التي كان يطوعها في دروس تفسير القرآن

الكريم والسنة في بلاغة وتمكن واقتدار، وكان يتمتع بحلاوة البيان وسلاسة التفسير وبساطته، واختراقه للعقول والقلوب والأفئدة، كانت تنتج شحنة إيمانية عالية قوية التأثير على كل الجموع الحاشدة التي كانت تستمع إليه في تلهف ملموس وحضور دافق، وقد أخذت هذه الجموع تتكاثر وتتزايد في كل الأقطار والآفاق حتى ملأ ت تفسيراته الإعلام المقروء والمسموع والمرئي في كل أرجاء الدنيا، في حياته.. ولا زالت حتى وفاته تقرأ وتسمع تشاهد بنجاح وانتشار غير مسبوق.

ولم يكن ذلك كله آتياً من فراغ، فقد ظهرت موهبته رضوان الله عليه منذ نعومة أظافره وكان أديباً وشاعراً وسياسياً وفدياً اشترك في كل الأنشطة خاصة السياسية والأدبية، وفصل من دراسته واعتقل سياسياً وكان ذلك بسبب اهتماماته الوطنية.

وقد كان ـ رحمه الله ـ اجتماعياً مختلطاً بكل فئات الناس، كبيرهم وصغيرهم، منذ شبابه، وكان صديقاً دائماً للزعيم الجليل الراحل مصطفي النحاس، وكان يزوره دائماً ويقبل يده حتى آخر لحظة من حياته.

وكان حلو المعشر.. حلو الحديث.. حاضرِ النكتة.. كيساً لبقاً.. لماحاً.. محباً لأصدقائه.. في غاية الوفاء لهم.. يأ سر القلوب من أول لقاء.

وكان نسيج وحده في ملبسه ومأكله ومشربه ومسكنه ؛ فقد كان يصمم ملبسه بنفسه ويعطى هذا التصميم لترزيه الخاص، وهو أول من طور اللبس الأزهري المعقد إلى بساطة الجلباب الأنيق والعباءة والطاقية الجميلة، وكان أكره شيء عند ه هو لبس القفطان المشقوق من الأمام إلى نصفين.

وكانت دواليبه ممتلئة بالعباءات المختلفة الألوان والمقاييس، وكان يهديها لأحبائه، وكان ينظر للشخص نظرة فاحصة ويعرف مقاس عباءته،

ونادراً ما كان يخطئ في المقاس وكان له ترزي خاص يحضر لمنزله ويقيم فيه لتفصيل هذه العباءات.

وفي إحدى المرات زار البابا شنودة في قصره البابوى بالعباسية وأهداه عباءة، وكانت زيارة مجاملة وشكر للبابا لأنه أرسل مجموعة من القساوسة في لندن لزيارة الشيخ الشعراوى في المستشفي أثناء إجراء عملية استئصال المرارة. كما قام بكل الإجراءات الإدارية طبيب مسيحى وهو الدكتور فايز بطرس.

ومما يذكر أن الطبيب المتخصص في استئصال المرارة بالمنظار كان طبيباً يهودياً وفشلت عملية المنظار والشيخ على ترابيزة العمليات، وانتهي الأمر باستئصالها جراحياً على يد الدكتور محمد سويدان وهو مصري مسلم ومن بلدة دقادوس مركز ميت غمر وهي نفس بلدة الشيخ الشعراوى وكان يساعد الطبيب اليهودي في العملية.

وكان الشيخ الشعراوى طاهياً ممتازاً، وكان له مزاج خاص في تجهيز طبق فتة الكوارع الذي كان يطهيها بنفسه، وقد دخلت عليه في منزله بالحسين فوجدته يجهز هذه الوجبة وقد ساعدته في طهيها.. وكان وحيداً.. وكانت وجبة شهية لا أنساها طوال حياتي، وفي مرة أخرى في شقته بكورنيش الإسكندرية وجدته يطهي صينية سمك وسبيط ويجهزها أيضاً بنفسه وتناولت الطعام معه أنا وأولادي.

وكان كثيراً ما يتناول وجبة غذائه من الجبن القريش والخبز الناشف الفلاح وقطع الخيار وحمد الله عز وجل.

وكما كان قلبه مفتوحاً لكل مريديه فقد كان بيته مفتوحاً أيضا للجميع في أي وقت، كما كان جيبه مفتوحاً أيضاً لكل المحتاجين دون حدود ، في

السر والعلن، وكم أعطاني من المبالغ المالية الكبيرة لتوصيلها لبعض الأسر أو الأشخاص الذين يحس الشيخ بحاجتهم وظروفهم دون أن يطلبوا منه ذلك، وإن كان يقصده بعض النصابين ولكنه كان بفراسته يكشفهم ويصرفهم بلباقة وأدب.

فقد كان رضوان الله عليه كريماً معطاءً بغير حدود، وقد بنى في قريته منشآت بالملايين من أهمها: مسجد كبير ومعهد ديني ومدرسة ثانوية ومجمع طبي وثقافي وقرآنى ضخم..وكثير من المنشآت الخيرية.

وكان يتبرع بكل الجوائز المهداة له ومعظم إيراداته من تسجيلاته لأعمال الخير، وأنشأ مبنى سكنياً ضخماً في جامعة الأزهر ليكون مدينة جامعية لطلاب وطالبات جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة، كما أنشأ مؤسسة ضخمة في رحاب السيدة نفيسة يطعم فيها أعداداً كبيرة من الفقراء على نفقته، وكان يقوم رحمه الله بخدمتهم بنفسه أيام الجمع، وكان يجد سعادة غامرة في ذلك ، وكان يرسل الطعام على نفقته دورياً لمرضى مستشفي الأمراض العقلية.

وهكذا كانت أعمال الشعراوى الخيرية لا تنسى و لا تحصى ولا تعد، سراً وعلانية.

وكان رحمه الله لا يخشى في الحق لومة لائم حتى لو كان رئيس الدولة هو الذي حاد عن الحق.

فقد وقف في وجه السادات وخطأه على تفويته صلاة المغرب في اجتماع سياسي جمع أعضاء مجلس الشعب والوزراء وغيرهم من كبار المسئولين، وابتدأ الاجتماع قبل المغرب واستمر حتى بعد العشاء، وعندما حانت صلاة المغرب وقف المرحوم د. السعيد أبو على عضو مجلس الشعب عن المحلة

الكبرى وأذن للصلاة بصوت مرتفع مقاطعاً بـذلك الـرئيس الـسادات، وهـو يخطب خطبتـه المذاعـة عـلى الهـواء بالإذاعـة والتليفزيـون، وكـان الـدكتور السعيد من الجمعية الشرعية ، فقال له الـسادات: اجلـس فـنحن في عبـادة، و طلب منه الدكتور الـسعيد رفـع الجلـسة ليـصلى الأعـضاء المغـرب ورفـض السادات، فترك الدكتور الـسعيد مكانـه ومعـه بعـض الأعـضاء يعـدون عـلى الأصابع ومنهم الشيخ الشعراوى الـذي كـان وزيـرًا للأوقـاف وأدوا الـصلاة بالخارج وعادوا إلى مكانهم لمعاودة الاستماع لكلمة الرئيس السادات، وبعـد انتهاء الجلسة دار حوار علني بين الرئيس السادات والشيخ الـشعراوى حيـث قال السادات للشيخ الشعراوى: نحـن كنـا في عبـادة أيـضًا ، فقـال لـه الـشيخ الشعراوى: يا ريس العبادة نوعان عبادة موقوتة وعبادة غير موقوتة، والـصلاة عبادة موقوتـة، وكـان يتحـتم عليـك رفـع الجلـسة لأداء الـصلاة ، فقـال لـه السادات: أنت شايف كده يا شيخ شعراوى.

فرد عليه الشعراوى بحز م قائلاً: لست أنـا الـلى شـايف كـده ولكـن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمرنا بـذلك وهـو الـلى شـايف كـده. وأسـقط في يـد السادات.

كما وقف في وجه جيهان السادات علناً عندما دعته لإلقاء محاضرة عـلى سيدات مصر الجديدة وكان وزيراً للأوقاف، واشترط عـلى جيهـان الـسادات قبل المحاضرة أن تكون السيدات محجبات، ووعدتـه جيهـان بـذلك، وعنـد جلوسه على المنصة وبجواره جيهان وجد السيدات سافرات فنظر إلى جيهـان حرم رئيس الجمهورية

وقال لها: لم نتفـق عـلى ذلـك الـسفور.. وقـال لهـا بـالحر ف الواحـد: أعطيهم أنت بقى المحاضرة.. وتركها وانصر ف ولم يعبأ بها.

كما وقف ضدها وهو وزير أوقاف ورفض قانون الأحوال الشخصية التي أعدته وشاركت في صياغته لأنه مخالف للشريعة الإسلامية.

وقد كان الشيخ الشعراوى في بداية توظفه معاراً إلى السعودية وكان يعمل بمكة، وطلب من مشيخة الأزهر الانتقال إلى المدينة المنورة قائلاً: إنه لا يترك الركعة بمائة ألف إلى الركعة بألف في المدينة المنورة، ولكنه يريد أن يسلم على رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ومما يذكر أنني اصطحبت الشيخ الشعراوى عندما كان مفتشاً للوعظ بطنطا إلى الدكتور عبدالعزيز كامل وزير الأوقاف وكان صديقاً عزيزاً لى منذ أن كان عضواً بمكتب الإرشاد للإخوان المسلمين، و طلبت منه ترقية الشيخ الشعراوى إلى الدرجة الثانية، ورفض الدكتور عبدالعزيز كامل وقال لى: إن القواعد الخاصة بالأقدمية لا تنطبق عليه، ورفض ترقيته بالاختيار وسأله: هل لك مؤلفات يا سيدنا الشيخ؟

فقال له الشعراوى: ليس عندي مؤ لفات.

وانتهي الأمر بقرار من عبدالعز يز كامل بإعارته للجزائر بناء على طلبه بعد أن لاحظ عبدالعزيز كامل غضبى الشديد منه وعتابى عليه، ومرت الأيام وعين الشعراوى وزيراً للأوقاف واصطحبني عبدالعزيز كامل لقضاء حاجة مهمة له عند الشيخ، وأثلج صدر الدكتور عبدالعزيز كامل.

وانطلق الشيخ الشعراوى انطلاقة صاروخية في الجزائر بجلسات مطولة حتى الفجر مع الجزائريين يدعو إلى الله وإلى شريعته حتى ذاع صيته، وهدى الله عز وجل كثيراً من الجزائريين على يد الشيخ الشعراوى، وتعر ف هناك على أستاذه الروحى العالم الجليل الشيخ بن قايد، ونهل الشيخ الشعراوى من علمه الغزير الوفير.

وتعرف هناك بحسن الزبير، الوزير المفوض السعودي، وكان شقيقه الدكتور محمد الزبير أمين عام جامعة الملك عبدالعزيز وصهره محمد عبده اليماني رئيس الجامعة ووزير الإعلام السعودي فيما بعد، وطالباً من الحكومة المصرية الموافقة على إعارة الشيخ الشعراوى إلى جامعة الملك عبدالعزيز بجدة أو مكة، وكانت انطلاقة صاروخية أخرى للشيخ الشعراوى في سبيل الدعوة الإسلامية، وذاع صيته وزاد محبوه وظهر إعلامياً حتى استُدعى من هناك بعد تعيينه وزيراً للأوقاف.

وقد انضم الشيخ الشعراوى في فجر شبابه إلى الإخوان المسلمين بقيادة الشيخ حسن البنا وصاغ معه أول بيان للأمة بإنشاء جماعة الإخوان المسلمين، ولكنه ترك الجماعة بعد ذلك.

وكان الشيخ الشعراوى على علاقة وثيقة بالمرحوم عمر التلمسانى المرشد العام للإخوان المسلمين وكان كثيراً ما يزوره ويناقشه ويستشيره في بعض الأمور السياسية.

كما اجتمع الشيخ الشعراوى بمنزلى بطنطا برجال القضاء المفصولين بمذبحة القضاء أيام عبدالناصر وهم المستشار يحيى الرفاعى، وكمال عبدالعزيز، ومحمد عبده الجندى، وعلى عبدالرحيم، وعبدالرءوف جعيصة، وسليم عبدالله ، وتداول معهم الحديث وتكلم بعد ذلك مع السادات في لقاء بمنزلي عن هذه المذبحة.

وأذكر أنني كنت عضو مجلس إدارة المصرف الإسلامي الدولي للاستثمار والتنمية وحدثت خلافات شديدة بين أعضاء مجلس الإدارة حول بعض الأمور الإدارية في المصرف، وكان رئيسه أحمد أمين فؤاد، ومن أعضائه عبدالعظيم لقمة، و د.حسين حامد حسان، ود.عبدالحميد الغزالى،

ودكتور مهندس فائق هويدى، وسعد شمس الدين، وسعيد عمـارة، وحسين مرسى ، والمستشار سمير جعفر، وإبراهيم والى، ومصطفي مؤمن، وعمر مرعى ؛ وصدر قرار سيادي بحل مجلس الإدارة وعين الشيخ الشعراوى رئيساً لمجلس إدارة المصر ف يعاونه الأستاذ الفاضل إسماعيل حسن محافظ البنك المركز ى سابقاً، وقاد الشعراوى سفينة إنقاذ المصر ف من كبوته، ثم ترك الموقع باختياره بعد أن أدى مهمته خير أداء، وقد كنت من مؤسسي المصر ف وعضواً بمجلس إ دارته حوالي ثماني سنوات.

وكان للشيخ لمحات تنم عن معدنه الأصيل، وإسلامه العميق ؛ فقد قرأت في الصحف في وقت من الأوقات أن الفنان (عماد حمدي) أصيب باكتئاب شديد في آخر أيام حياته وأنه اعتكف في منزله الذي أغلقه عليه ورفض مقابلة أي شخص..

فما كان من الشيخ الشعراوى إلا أن ذهب إليه بنفسه وجلس معه جلسة طويلة طيب فيها خاطره وأخرجه من عزلته واكتئابه وتكررت زيارات الشيخ له مما كان لها أجمل الأثر.

كما أنه عندما علم بمرض الأديب توفيق الحكيم في آخر أيامه زاره في مستشفي المقاولون العرب رغم الخلاف الشديد الذي بينهما ؛ عندما كتب توفيق الحكيم مقالاً بالأهرام عنوانه (حديث مع الله)، فثار الشيخ الشعراوى وخطأه و طلب منه تصحيح العنوان إلى (حديث إلى الله..)

وخلافات أخرى، واعتذر توفيق الحكيم للشعراوى، وذهب إ ليه بنفسه في محل أبوشقرة الكبابجى بشارع قصر العيني ؛ ولكن الشيخ الشعراوى ارتفع فوق ذلك كله بشعوره الطيب وزاره في المستشفي وطيب خا طره مما أسعد توفيق الحكيم سعادة غامرة وفرح بزيارته فرحاً كبيراً حتى أن الشيخ

أحضر له حجراً وعلمه كيف تكون صلاة المريض على فراشه وكيف يكون التيمم.. ونشر ذلك في الصحف في حينه.

وكلنا يعلم جيداً زيارة الفنانات التائبات له وهن محجبات ليستزيدن من علمه ويستمعن لنصائحه وإرشاداته وكان لهن نعم العون ونعم الناصح الأمين.. مثل شادية وسهير البابلى وسحر حمدى.. وغيرهن.

ونذكر جيداً أنه قرأ عن جريمة قتل سيدة وأبنائها وبناتها في مدينة نصر فسأل عن عنوانهم وذهب إلى أسرتهم معزياً ومواسياً في زيارة طويلة كان لها أجمل الأثر.

رحم الله الشعراوى الذي كان فلتة من الزمان لا تتكرر.. وأثابه على كل ما فعل..."

قصة زواج الشيخ:

" من هي أم فتحية " وما هو دورها في زواج الشيخ وهو ما زال في الابتدائية" عن هذا القصة الطريفة والتي يرويها الشيخ في سياق ذكرياته فيقول:

" كنت طالبا بالمعهد الابتدائي الأزهري بالزقازيق. كنت في السنة الرابعة. وكنت أسكن مع زميل لي من بلدنا اسمه حسني إمام في غرفة واحدة. وكنا نستأجر هذه الغرفة في بيت واحدة اسمها " أم فتحية ". وكان عندها بنت تلميذة اسمها " صفاء". وجاءت أم فتحية وقالت لنا: إن ابنتها صفاء عندها " واجب في الحساب " لكنها " موش عارفة تحله ". وطلبت منا – أنا وزميلي – أن نساعدها في حل الواجب لأنها ضعيفة في الحساب. وقلنا لها " طيب ".

وجاءت صفاء وجلست معنا في غرفتنا. وأخذنا في مساعدتها وعمل

الواجب. وفوجئت بوالدي يدخل علينا الغرفة ونحن نقوم بعمل الواجب لصفاء. وتطلع إلينا نحن الثلاثة. ثم سألني:

مين البنت اللي قاعدة دي؟

قلت: دي صفاء.

قال: وصفاء دي تبقى مين؟

قلت: بنت أم فتحية.

قال: وأم فتحية تطلع مين؟

قلت: صاحبة البيت

قال: طيب !

وتركنا وانصرف.

وعاد إلى قريتنا دقادوس.

وكان قد جاء إلى الزقازيق لشراء " جمل ".. واشترى الجمل.. وفكر في أن يمر علينا أنا وزميلي، في السكن ليسألنا إن كنا في حاجة إلى شيء. لكنه فوجئ بوجود البنت صفاء بنت أم فتحية.. ولم يعجبه هذا الأمر. ولم يسألنا كعادته إن كنا في حاجة إلى شيء.

وفي نهاية لأسبوع.. في يوم الخميس سافرت ومعي زميلي إلى بلدنا دقادوس لنتزود كعادتنا كل أسبوع بما تيسر من الخبز والجبن والبيض والقروش القليلة. ونعود في نهاية اليوم التالي.

وبمجرد أن دخلت البيت.. نادي والدي على أمي وطلب خالتي وخالي عبده. وقال لهم في حضوري:

أنا بأقول لكم.. الولد ده لازم يتجوز.. عايزه يتجوز. وبسرعة.

فقلت في دهشة: أتجوز؟ وليه يابا؟! بلاش الحكاية دي دلوقتي.

وردت أمي: ما دام الولد موش عايز.. ليه بقى تفتح عينيه على الموضوع ده؟ إنت ناسي أنه عايش في غربة. ولسه صغير؟

فرد عليها: ما هو علشان كده أنا عايزه يتجوز. علشان عايش في غربة.. ولسه صغير. فهمتي.. فهمتي بقى ليه؟

وردت خالتي ومعها خالي:

يعني لازم الموضوع ده؟!

فقال والدي في إصرار:

أيوه لازم الموضوع ده.. وأنا قلت يتجوز.. يبقى لازم يتجوز.

ووجه كلامه لي وقال:

قدامك أسبوع.. تشوف بنات البلد.. وتختار واحدة. وتقولي بنت مين؟

فقلت له: ما دام أنا حاتجوز غصب عني.. يبقى جوزوني أنتم.. اللي على كيفكم!

واختار لي والدي بنت خاله.

وكان اختياره طيبا. ولم تتعبني في حياتي.. وهكذا تزوجت. وأنجبت لي ثلاثة أولاد وبنتين.. الأولاد.. سامي وعبد الرحيم وأحمد والبنتان فاطمة وصالحة.

***

لما سأل المحاور الشيخ هذا السؤال " تزوج فضيلة الشيخ الشعراوي على غير اختيار منه ، لكنه كان اختيارا طيبا بحمد الله عليه.. "فكيف يرى الشيخ الآن ".

عن هذا الاختيار " الجبري " والذي كان له عواقب طيبة على الشيخ وحياته وكان اختياراً مباركاً:

قال الشيخ:

" سئلت هذا السؤال كثيرا وقلت: إن أول عوامل نجاح الزواج هو الاختيار والقبول من الطرفين. وقد حثنا الإسلام على التكافؤ بين الزوجين وليس معنى التكافؤ أن يكون التكافؤ في المال ، وإنما التكافؤ بين جواهر الأشياء لا في أعراضها.. التكافؤ الصحي ، والتكافؤ الخلقي ، والتكافؤ القيم. والإسلام وضع هذه المسألة نصب عينيه قبل أن يبدأ ظهور الأبناء. لأنه يرى أن يضمن للوليد وعاء صالحا. وهذا الوعاء الصالح سيحمل- بقانون الوراثة – صفات أبويه ، وهذه الصفات هي التي ستكون محور التربية فيما بعد. ولذلك يقول رسول الله ﷺ: " تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس".

وكذلك أرشدتنا السنة النبوية إلى أن نتجنب القريبات حيث نريد الزواج كي لا يؤول أمر النسل إلى ضعف.. فإذا اغترب فإنه يؤول إلى قوة.. ولذلك يقول رسول الله ﷺ: " اغتربوا لا تضووا " أي لا تضعفوا وتهزولوا.

والإسلام وضع للزوج مقاييس لاختيار زوجته ، واحترم هذه المقاييس. والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: " تنكح المرأة لمالها ولجمالها ولحسبها ولنسبها ولدينها.. فاظفر بذات الدين تربت يداك " أي أنه قد أشار إلى كل المقاييس ثم ذكر لك بعد ذلك المقياس الصحيح وهو المرأة ذات " الدين " أي المرأة المتدينة. لأن الجمال أ/ ر طارئ.. فالجمال يذبل

والجاه يتغير. والمال زائل. أما القاعدة الدينية التـي يبـدأ منهـا الإسـلام فهـي الباقية على مر الزمان لأنها تنمو وتزدهر وتزداد كل كل يوم عمقا.

ويأتي الإسلام بعد ذلك للمرأة ولولي أمرهـا ويقـول: " إذا جـاءكم مـن ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ".

وعندما سأل رجل رسول الله ﷺ عمن يزوجه ابنته؟ قال: " اعطهـا لـذي دين أن أحبها أكرمها.. وإن كرها لم يظلمها ".

سؤال: وكيف يعامل الشيخ أحفاده؟

قال الشيخ: الطفل يجب أن يربـي جيـدا.. وهنـاك فـرق بـين أن يـتعلم الطفل وأن تربي فيه مقومات الحياة. فالطفل إذا ما تحركـت ملكاتـه وتهيـأت للاستقبال والوعي بما حوله. أي إذا مـا تهيـأت أذنـه للـسمع وعينـاه للرؤيـة، وأنفه للشم، وأنامله للمس، فيجب أن نراعي كـل ملكاتـه بـسلوكنا المـؤدب معه وأمامه ، فنصون أذنه عن كل لفظ قبـيح. ونـصون عينـه عـن كـل مـشهد قبيح.

وقال الشيخ: أنا مثلا أحب النظام وأكره أن ينقل أي طفل مـن أحفـادي شيئا من مكانه وانفعل عليه. وقد يزعل آبـاؤهم وأمهـاتهم.. ولكـن لأن عـدم النظام يقلقني ويتبعني.

وقال الشيخ: أنا مثلا أحب النظام وأكره أن ينقل أي طفل مـن أحفـادي شيئا من مكانه وانفعل عليه.. وقد يزعل آبـاؤهم وأمهـاتهم. ولكـن لأن عـدم النظام يقلقني ويتعبني فإنني أشرح للطفل الغرض من هذا الشيء. ولماذا هـو في هذا المكان. وكذلك في كل الأمور.. يجب أن يتضح في ذهنه ما الذي نريده منه. وما هو الغرض من هذا الشيء.

وقال الشيخ أهم شيء في التربية هو القدوة. فإن وجدت القدوة الصالحة سيأخذها الطفل تقليداً. وأي حركة من سلوك سيئ يمكن أن تهدم الكثير مما بنيناه.

فإذا نحن حدثنا الطفل عن الصدق والشجاعة والأدب ثم دق جرس الباب وقلنا للطفل: اذهب وافتح الباب. فإذا كان " فلان " هو الطارق ، فقل له: إن والدي غير موجود. إذا نحن فعلنا ذلك. فسوف نهدم كل ما بنيناه. كل ما قلناه له عن الصدق ولا شجاعة والأدب. وتتكون في ذهنه قضية هي أن هناك كلاما يقال. وكلاما لا يعمل به. وأخطر شيء أن يتعلم الطفل الكذب

***

وفي سياق ذكرياته عن زوجته رحمها الله قال الشيخ:

" أم الأولاد الله يرحمها كانت تحكي لي عن كل شيء يجري يومياً.. كانت تحكي لي عند عودتي وهي تخلع لي هدومي.. وكنت إذا غضبت من تصرف أحد الأولاد.. كنت أقول لها: " هاتي الغدا بره.. أو ضعيه في الغرفة الأخرى " لأنني لا أريد أن آكل مع الأولاد.. فيأتي الأولاد ويسألون: لماذا لا تأكل معنا؟ فكنت أقول: لا آكل معكم وفيكم ولد بيعمل كذا وكذا ، إنني أريد أن آكل وحدي علشان ربنا ميعاقبنيش بسببكم. فيأتون ويأخذون في تقبيل يدي ورجلي.. وأخيرا أقبل اعتذارهم ، وأجلس آكل معهم.

" وكان يأتيني ناس من " المجاذيب" وكان عندي ولد من أولادي "نفسه وحشة شوية " كان يقرف منهم.. وفي مرة وقف على الباب ومنع واحداً منهم من الدخول، وعرفت بذلك فغضبت.. عرفت ذلك من أمه.

وبعد يومين ربنا رزقنا بواحد منهم..واحد من " المجاذيب". فقلت له:

أهلا وسهلاً.. ورحبت به.. وناديت على " أم سامي " التي هي زوجتي وقلت لها " جهزي غيارين من بتوعي. في الحمام ".. وأدخلته الحمام. وعندما شاهدني الولد " اللي كانت نفسه وحشة وبيقرف منهم " وأنا أفعل ذلك مع الرجل المجذوب.. انتظره حتى خرج من الحمام وأخذ يقبل يده.. ومن يومها وهو لا يرى مجذوباً إلا قبل يده !

****

هكذا وبشكل عملي وواضح لا لبث فيه يرينا فضيلة الشيخ كيفية التربية بالقدوة وكيف أن القدوة تؤثر وبشكل قوي وفعّال في تربية الأولاد وكذلك في تعديل وتوجيه سلوكياتهم وكذلك كيف تكون المعايير الصحيحة لاختيار شريكة أو شريك الحياة وكيف أن مؤسسة الزواج الرائعة تحتاج ومن البداية لمراعاة معايير معينة وأهم هذه المعايير الدين والأمانة وكذلك " التكافؤ في الجوهر "

رحم الله الشيخ رحمة واسعة وغفر له.

أشياء أخرى:

في إطار كلام الشيخ وذكرياته عن قصة زواجه وعن كيفية التعامل مع موضوع الزواج وتربية الأبناء نقرأ هنا حوارا مع الشيخ عن " الفطام المتأخر " وكيف أن الكثير من الشباب يعتمد على أهله حتى سن متأخرة وبالتالي يكون إنساناً سلبياً وقد ينسحب ذلك على حياته كلها ألا وهو سلوك " الاعتمادية " و" الاتكالية " على الأهل في كل شيء في إطعامه وتوظيفه أو تشغيله وحتى في زواجه.

فلنتابع هذا الحوار الممتع:

" انتقد الشيخ محمد متولي الشعراوي بمرارة، ظاهرة اجتماعية باتت اليوم عرفاً راسخاً في مجتمعاتنا. الظاهرة تحدث عنها الشعراوي في مقابلة صحيفة بجريدة "الوطن" الكويتية، وتتمثل في الاعتماد شبه الكامل على الوالدين لسنوات طويلة حيث باتت "الطفولة" تصل إلى سن الثلاثين!

وقد وصل الشباب إلى هذه المرحلة، يقول الشعراوي، لأننا أطلنا عمر الطفولة، وصار الشاب يحلم بالقمة دون بذل جهد، لقد ترك "الأسانسير" إلى ما هو أسرع.

"الطفولة عندنا وصلت إلى سن الخامسة والعشرين بل والثلاثين عاماً، فالشاب في هذا السن يمد يده إلى أمه وأبيه كي يعطياه نقوداً. في الخارج لا توجد مثل هذه الأمور، فالطفل بمجرد بلوغه سن الرشد تنتهي مسؤولية أبيه. إنني أعجب من الرجل الذي يقول إنني أعلم أولادي تعليماً جامعياً، وربما "استعطى" من أجلهم.. وهو يعطل طاقة أبنائه وتصير طاقة الشباب معطلة من سن الرابعة عشرة إلى سن الخامسة والثلاثين".

مثل هذا السلوك، أضاف، يضيع إنتاجنا، "فالشباب مهدور القوى لا يصنع شيئاً سوى الأكل والشرب والذهاب إلى الجامعة في صورة "دون جوان"، وفوق هذا وذاك نجد الشاب يريد أن يبدأ حياته بشقة على أحدث طراز وأدوات كثيرة".

تصرفُ الغربيين مع أولادهم، يقول الشعراوي، صحيح. "لكنهم أخطأوا بسحبهم الحكم على البنات أيضاً". فمجتمعاتنا تختلف عن مجتمعاتهم، ولابد أن "تظل البنت في حضانتنا إلى أن يأتيها عريس".

روى الشعراوي بعد سنوات لصحيفة "الهدف" الكويتية جوانب من حياته الوظيفية وبدايات صعوده، وذلك بمناسبة حلول شهر رمضان. وقال إن الناس "زمان"، كانوا يهتمون بعمل الكعك والبسكويت، خاصة في الريف، وكان الأطفال بعد مدفع الإفطار يتذوقون كعك بعضهم البعض.

يقول الشعراوي: "لاحظت يوماً أن صبياً من أصحابي أتى ومعه كمية من الكعك الذي له مذاق خاص أفضل بكثير مما كان معنا، وعند عودتي للبيت سألت أمي: لماذا كعك صاحبي فلان أحسن من الذي عندنا؟ فقالت لي: إن أبيه "موظف"، أما نحن "فعلى قد حالنا". ويضيف: "واستوقفتني كلمة "موظف"، فسألتها ويبقى إيه الموظف؟ فقالت: يبقى شغال عند الحكومة، ويأخذ أجراً شهرياً مثل المدرسين عندكم". وسألها: من يعيِّن هؤلاء موظفين في الحكومة؟ فأجابت: الشهادة التي معهم، "شهادة الكفاءة". يقول الشعراوي: وظلت هذه الكلمة في ذهني، "شهادة الكفاءة" التي يتوظف بها الناس في الحكومة ويأخذون أجراً كل شهر.. ولكن!

"عندما أخذت شهادة الكفاءة أردت أن أكون موظفاً في الحكومة. ولما سمع والدي ذلك غضب مني، وفشلت كل المحاولات لإقناعه، وأصر على أن استمر في دراستي بالأزهر حتى أحصل على العالمية. وبطريقته الخاصة في الإقناع سألني والدي: كم يأخذ الموظف الذي يعمل بشهادة الكفاءة شهرياً؟ قلت: يأخذ ثلاثة جنيهات. فقال: إذن اعتبر نفسك من هذه اللحظة موظفاً عندي بالكفاءة بأجر شهري ثلاثة جنيهات، وشغلتك هي أن تستمر طالباً في الأزهر إلى أن تحصل على شهادة العالمية. وأضاف والدي رحمه الله، وهو يربت على كتفي: طبعاً ستأخذ العلاوة التي يحصل عليها موظف الحكومة. وقبلني والدي وضمني إلى صدره. ودعوت له يومها، كثيراً".

ولا ندري كم من السنوات استمر هذا الإنفاق الأبوي على طالب العلم النجيب، وكم زاد الراتب بعلاواته.. فالشيخ من مواليد ١٩١١، وقد حصل على درجة العالمية من الأزهر، مع إجازة التدريس عام ١٩٤٣، أي عندما كان في الثانية والثلاثين!

في ١٠ نوفمبر ١٩٧٦، نفس العام، تم تعيينه وزيراً للأوقاف ووزير دولة لشؤون الأزهر في الوزارة التي رأسها ممدوح سالم. وفي العالم التالي، في ٢٦ أكتوبر ١٩٧٧، استمر تعيينه وزيراً وكانت مرحلة حكم السادات (١٩٧٠ - ١٩٨١) لمصر فترة صاخبة، فقد شهدت انفتاحاً اقتصادياً وتحولاً اجتماعياً وسياسياً. ولكن هذه التحولات لم تكن من ناحية التأثير القومي والديني في حجم قرارات السادات بزيارة إسرائيل وإلقاء خطابه الشهير في الكنيست وتوقيع اتفاقية "كامب ديفيد" مع إسرائيل، والتي أقامت عليه وعلى مصر العالم العربي وأقعدته.

في مقابلة صحفية مع الشعراوي، سألته "الوطن": "هل ندمت على قبولك لمنصب وزير الأوقاف"؟ فأجاب: "لم أندم، ولكنني لا أحب أن يتكرر".

وكانت صحيفة "القبس" قد أجرت معه قبل أكثر من عام مقابلة مطولة سألته فيها عن تولي الوزارة وعن الفتوى التي تبيح للنظام السياسي القائم بالجنوح نحو السلم، وهل ما زال الشعراوي يعتقد أن السلام مع إسرائيل على طريقة "كامب ديفيد" قرار سليم؟ فأجاب جواباً قوياً خال من التردد: "نعم ما زلت أقرُّ، لأننا لم ندخل مسألة فلسطين على أساس من الدين فكيف تطلبون أن أخرج منها على أساس من الدين. الأساس الذي دخلنا به فكر بشر لبشر، والأساس الذي خرجنا منه فكر بشر لبشر. فمن جعل فكر البشر في الدول

الرافضة أولى من فكر الدول القابلة"؟ أي الرافضة أو القابلة للسلام مع إسرائيل. ثم أضاف: "أنا الذي أدفع الثمن، أنا الذي لا يوجد عندي بيت إلا وفيه ضحايا وفيه دم، لما هؤلاء -يقصد بقية العرب- لم يعملوا أي شيء، فالذي عليه العتب هو الذي يعمل هكذا حتى يحمي نفسه! ثم إنها مسألة سياسية، والدولة التي ندافع عنها، أول منهج فيها يقول إنها دولة علمانية، وما دمتم دخلتم بمنهج البشر دعوا كل بشر يفكر في أن يخرج.. والناس التي تهول المسألة ماذا صنعوا؟ ماذا صنع الرافضون من يقوم توقيع الاتفاقية إلى يومنا هذا؟.. لا يمكن أن ينجحوا بعمل إلا إذا كانت مصر فيه...".

أما بالنسبة للشعراوي، فقد بدا في التسعينات أقل حماساً لتوليه الوزارة في تلك الفترة العصيبة. وفي مقابلة له مع "القبس" قال مصارحاً الجمهور: "إن فترة وجودي كوزير للأوقاف تعتبر أسوأ فترة في حياتي.. رفضت بشدة أن يكتب أمام أو خلف اسمي وزير الأوقاف السابق أو الأسبق...).

عرض الإعلامي المعروف محمود فوزي مقابلاته مع الشعراوي في كتاب صدر عام ٢٠٠٨. وقد طرح فوزي تساؤلاً على الشعراوي ذات مرة: "لقد باركت الصلح مع اليهود. فما هي الأسباب التي استندت عليها في هذا"؟ فأجاب: "السبب الرئيسي في ذلك أننا منذ عام ١٩٤٨ غرقى، وهناك من يتفرج علينا فقط، فلم نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، بل على العكس، كل عام الأمور تتدهور أكثر"! والشعراوي في جوابه هذا يؤكد مرة أخرى على تأثيرات التعبئة والمجهود الحربي في حياة الشعب المصري، بينما الآخرون يتفرجون. وكان لابد من حسم الوضع.

سأله الأستاذ فوزي: "عندما سافر السادات إلى القدس، ناديت موجهاً كلامك بأعلى صوتك: "من يصنع مبادرة مع اليهود، فعليه أن يبادر بصنع

مبادرة مع الله..". وكان جواب الشيخ: "كنت أقول: أنتم تصنعون مبادرة من أجل أن تتصالحوا مع البشر، فلماذا لم تصنعوا مبادرة وتتصالحوا مع الله رب البشر"؟

وسأل فوزي الشيخ عن رأيه في اغتيال السادات. فأجاب: "من العجيب أن اغتيال السادات قد فرح به الأغبياء من خصومه، وأنا قلت لهم: فرحكم باغتياله حمقٌ، السادات كانت له حسناته، كما كانت له سيئاته أيضاً قبل ذلك. فأراد الله أن يغفر سيئاته الماضية بحسناته التي فعلها الآن. فقال له: مت شهيداً، لكي تصبح كما ولدتك أمك مطهراً من ذنوبك"!

وأضاف الشعراوي: "هؤلاء أغبياء إذا فرحوا.. وكان ينبغي على خصومه أن يحزنوا.. أنور السادات فعل في أيامه أشياء لا يمكن لأحد غيره أن يفعلها.. استطاع أن يفاجئ الأميركيين والروس بإعلان الحرب".

***

مناظرات الشعراوي

ردا على العلمانيون والملاحدة:

فضيلة الشيخ الجليل محمد متولي الشعراوي.. ورغبة في طرح الرؤية الإسلامية للعلمانية وفلسفة التنوير.. كان هذا الحوار.

سؤال: في بلادنا علمانيون يدعون للتنوير..

الشيخ الشعراوي مقاطعاً: هم أخذوا التنوير من هناك " من الغرب" وقالوا إن التنوير كان طابعا لحضارة أوروبا فترة انتقالها من الظلمة والتأخر.. ولذلك هم قرنوا التنوير بإلغاء سلطة الدين والكنيسة. أي أصبح التنوير عندهم هو ألآن نلغي فكرة الدين حتى لا تحد من انطلاق العقل.

سؤال: يقولون إنها الفلسفة التي قادت النهضة الأوروبية.

الشيخ الشعراوي مقاطعاً: إن هذه الفلسفة التي قادت النهضة الأوروبية جاءت نتيجة تسلط الكنيسة التي حجرت على العقول والتي جعلت لغة التعامل مع أي مفكر في الكون " لمجرد= أنه مفكر " إما الجلد وإما الحبس وإما القتل.

فملا جاء ما سمي بالتنوير وأبطل هذا بالتسلط وهذا الحجر على العقول.. حدث التقدم. وهم يريدون منا أن نفعل هذا:

سؤال: نعم هم يريدون أن نفعل هذا ويرشحون هذا الفكر لقيادة نهضتنا العربية والإسلامية.

الشيخ الشعراوي: عندما سيطرت الكنيسة.. حجرت على العقول.. أليس كذلك؟! فلما انحل سلطان الكنيسة أو تسلط الكنيسة على العق.. انطلق

العقل.. فجاءت الحضارة " كلام سليم قوي " أنتم ماذا تريدون منا أن نفعل؟ تريدون منا في المقابل أن نلغي سيطرة الدين حتى نتقدم مثلهم " عـال قـوي " وأيضا نحن نقول لهم: تعالوا.. كونوا منصفين حتى في إجراء المقابلة.. هنـاك دين وهنا دين آخر.. تلك واحدة.

والثانية: تسلط الكنيسة باسم دينهم هو الذي حجر عـلى العقـول وحـرم البحث في الكونيات.

فهل حجر ديننا على انطلاق العقل في علوم الكونيات؟؟ لا / . بـل حثـه وحرضه على ذلك.. " قل سيروا في الأرض فانظروا.. " والعلم عندنا نوعـان. والعلم معناه الوصول إلى قضية يقينية.. واقعة.. وعليها دليل.

والعلم نوعان كما قلت: نوع في الكون.. ونوع من المكّون:

أما النوع الذي في الكون.. فالعقول ستلتقي فيه ولـو غـصباً عنهـا. لأنـه ناشئ عن تجربة معملية لا تجاهل.. ولذلك يتحد فيها الخصوم بـدليل أنـه لا توجد " كهرباء روسي وكهرباء أمريكاني " و " لا كيمياء إنجليزي ولا كيميـاء ألماني" كلها قوانين واحدة.. لأنها كما قلنا نتيجـة التجربـة المعمليـة التـي لا تجامل.

فما موقف الإسلام مـن التجربـة المعمليـة التـي لا تجامـل؟ الإسـلام حرض العقول وحثها على الانطلاق في التجربة المعملية كما تحـب ولا قيـود على حركتها.. لماذا؟

لأن البحث في الكونيات سيكون أصـلاً لتـصديق الأمـور غيـر الكونيـة ستهدينا إلى أن هناك إلهاً.. إلها يأمرني بماذا؟ يقول لك أنـا لا آمـرك إلا بـشيء يضمن وحدة الحركة في الوجود.

أي لا يوجد واحد يبني وواحد يهدم.. وواحد يبني وواحد يهدم هذه.. لأي الأشياء تخضع؟ " تخضع لأهوائهم ".

ويكون ذلك مراداً ومقصداً للدين.. أن يخرج العقل من مسألة الانطلاق في الأهواء.. لأن كل واحد سيكون له هوى.. وما دام كل واحد سيكون له هوى.. إذن سنختلف.. ومن هنا الأمور التي ستفسدها الأهواء.. حكمها الإسلام بالتشريع: " افعل ولا تفعل ".

أما الأمور التي سيدعونا الهوى لأن نلتقي فيها.. تركها الدين.. لأننا كما قلنا سنلتقي فيها ولو غصبا.

ولذلك نحن قلنا: الآية القرآنية في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ [٢٧] وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر:٢٧/٢٨).

انظر ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أمر لا دخل للإنسان فيه.. لكن ساعة إخراج الثمرات.. فللإنسان فيها دور " يبذر ويحرث ويزرع " قال: ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾

﴿ فأخرجنا به ثمرات كل شيء ﴾ هذا هو علم النبات.

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ هذا علم الجماد.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ هذا هو علم الناس والإنسان.

﴿ وَالدَّوَابِّ ﴾ هذا هو علم الحيوان.

ولذلك لم يأت هنا بحكم شرعي إطلاقا. لأنها آيات كونية.. الله أنزل من السماء ماء وحصل منه كيت وكيت " عطاء ربوبية".

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ لأنهم سيهتدون إلى أن كل ذلك لا يمكن أن يأتي وحده بدون موجد.

وأيضا لأن البحث في الكونيات هي العمدة في الدين.. لأنها هي التي ستثبت وجود الإله.. الذي سنأتمنه على مصالحنا.. والذي قال ما ستفسده الأهواء.. أحكمه أنا.. لأنني لو تركتها لك لفسدت السموات والأرض.

فماذا فعلت أوروبا؟

قالت للدين ولرجل الدين: لا تتدخل في الكونيات "لأنه كان يقيدها". وقالت لعلماء الكونيات: لا تتدخلوا في الدين. وهذا ما جاء به الإسلام فرغ العقل لأمور كفاحه في الأرض. وقال رجل الدين: لا تتدخل في علوم الكونيات لأنها هي التي ستعطيك الأدلة المادية التي أنت بحاجة إليها.

سؤال: هناك عبارة فلسفية تقول: "إنه لا سلطان على العقل إلا العقل"

الشيخ الشعراوي: عقل من.. عقلي أم عقلك؟.. أي عقل على أي عقل؟

وأول من حكم بالعقل... من الذي حكمه أولا حتى يتعقل؟.. مع أن كثيرا من الأمور العقلية النظرية التي حكم فيها العقل فيها العقل تغيرت وتبدلت.

أليست الشيوعية نظرية عقلية؟.. أليست الرأسمالية نظرية عقلية أيضًا؟ واختلفوا واندلعت على أثر ذلك الاختلاف حروب كثيرة.. لكن هل اختلف أصحاب النظريتين المتعاصرتين في نفس الوقت في علم الكونيات؟ لا.. لم يختلفوا.. بل أكثر من ذلك " سرقوا هذا العلم من بعض " يعني الأمور

النظرية العقلية " بنت الهوى " أقاموا سدودا لمنعها من الـدخول فيمـا سـمي بـــ" الستار الحديدي ".

والأمور الكونية.. المعملية.. أرسلوا جواسيس لسرقتها.

سؤال: وما موقف الإسلام من تحرير العقل من أي سلطان؟

الشيخ الشعراوي: تلك دعوة باطلة:

سؤال: وما موقف الإسلام من العق وعلاقته بالوحي؟

الشيخ الشعراوي: الإسلام يريد مـن العقـل أن يثبـت أن هنـاك وحيـاً.. ولذلك قالوا: العقل كالمطية.. توصلك إلى حضرة السلطان ولا تدخل معـك عليه. مثلا: إذا شعرت بألم في أمعائي.. يكون دور عقلي وعقـل أحبـابي الـذين سأستشيرهم أن نصل إلى اختيار الطبيب.. وعند ذهابي إلى الطبيب نقف جميعـا بعقولنا على باب الطبيب لنرى ماذا سيقول.. لننقذه.

أي أن العقل يصل بنا إلى أن للكون إلهاً أما ماذا يريد الإلـه ومـا مطلوبـة منا هذا أمر لا دخل للعقل فيه.

سؤال: إذن الاعتماد على العقل يتفاوت في علـوم الـشرع عنـه في العلـوم التجريبية !

الشيخ الشعراوي: نعم.. العقل يوصلني إلى إثبات الأمور التكليفية.. إلى أن يه إلها.. وفيه بلاغا عنه.. وأيضا لأن علوم الشرع كما قلنا جاءت لتعـصمنا من اختلاف الأهواء.. ولذلك في العلوم التجريبية المعملية قال النبي ﷺ: أنـتم أعلم بشئون دنياكم. ويأتي بالتجربة في نفسه " ينهـي ثـم يلغـي النهـي " لكـي يكون قدوة للمـسلمين في الأمـور التجريبيـة المعمليـة حتـى لا يتـدخل فيهـا الدين.

سؤال: يدعو العلمانيون أيضا إلى جعل الدين علاقة خاصة بين العبد وربه وإلى جعل المرجعية في السياسة والاجتماع والاقتصاد وتنظيم الدولة للعقل والتجربة !

الشيخ الشعراوي: كلمة " علاقة " هذه تسمية خاطئة.. لأن معنى " العلاقة " لا يتأتي إلا بين طرفين كلاهما محتاج للآخر.. أي أن العلاقات تنشأ لربط مصالح الناس ببعضها.

والله بصفات كماله وجلاله موجود قبل أن يخلق الإنسان.. وأوجد بهذه الصفات الإنسان..بل أوجد الكون كله.. فالذي خلق كل ذلك من عدم وأوجده في حاجة إلى أحد. ليس محتاجا إلى..

لأن هو " وحدانية بعزها..وعبودية " نحن الذين نحتاج إليه.. أما هو فليس في حاجة إلى أي منا.. ولهذا لا يجوز هنا إطلاق كلمة علاقة.

ثم.. على فرض منطقكم.. ما مطلوب الله منا في هذه العلاقة الخاصة؟

إجابة: أن نتعبد أن نصلي.. أن نصوم.. أن نزكي.

الشيخ الشعراوي: لماذا؟؟ هذه كلها تكليفات لإعلان الولاء لله تدريباً لنا حتى إذا وقفنا بين يدي حكم الله أو بين يدي الله تساوينا جميعاً في الطاعة.

أما عن الكلام حول المرجعية.. ربما كان هذا منطقيا لو لم يوجد للإسلام في كل هذه الأمور رأي.. ولكن الأمر خلاف ذلك.. للإسلام رأي في كل ما سبق.. والتشريع الإسلامي شمل كل أمور الحياة.. من القمة.. من لا إله إلا الله " والتي ربما ينكرها البعض " إلى إماطة الأذى عن الطريق.

لقد جاء التشريع الإسلامي بنظام فيه حل لكل قضايا الحياة.. حل ذهب إليه حتى الذين يدينون بغير الإسلام.. لم يذهبوا إليه تدينا.. ولكن لأنهم

وجدوها حلولا مثلي لكل قضايا الحياة التي عضتهم.

وهذا هو المعنى في قوله تبارك وتعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الفتح:٢٨). وهنا ليس معناه أن تنطمس كل الأديان وكل الملاحدة وكل أهل الكفر ويبقي الإسلام.. بل معناه أن يظهره عليهم نظاما بالحجة والبرهان..وتلك ليست شهادة من مسلم..ولكن شهادة ممن لا يدينون بالإسلام. وانظروا إلى موقف الغرب من " الطلاق ". وكيف كان يرفضه.. بل لعلهم كانوا يعيبونه على الإسلام. هذا الموقف انتهي إلى ماذا؟ انتهي إلى إنهم واجهوا مشاكل لا حل لها إلا بالطلاق.. وذهبت إيطاليا " التي يوجد بها الفاتيكان " إلى الطلاق الذي شرعه الإسلام. ولعل تلك أبلغ شهادة للنظام الإسلامي.. حيث " شهد شاهد من أهلها ".

ولذلك كان عليهم أن يطالبوا بأن تكون المرجعية للاسم في كل الأمور: اقتصادية واجتماعية وتنظيمية إلى آخره. لأن الإسلام جاء بالنظام الذي استوعب كل أقضية الحياة.. حتى إماطة الأذى عن الطريق.

سؤال: وهل لهذه الدعوة مكان أو حظ من النجاح في بلادنا؟؟

الشيخ الشعراوي: لا.. لأن هذا أمر لا يتأتى.

سؤال: وهل الخلاف بين الإسلام والعلمانية يدخل في نطاق الأصول أم في نطاق الفروع؟؟

الشيخ الشعراوي: خلاف في أصل الأصول.. " ثم أضاف ": هاتوا لنا جزاء طبقت فيه الشريعة وحدث من فساد. وفي المقابل هاتوا لنا جزءا حكمته الأهواء ونتج عنه صلاح. ثم على فرض أننا جميعا نحب الخير.. ونحب الصح. فكيف نواجه الفساد؟

نضطر لعمل قوة لتضييق الخناق على من يريد الإفساد.. وتتبع المفسد..وتدينه.. ثم تحاسبه.

ولكن ما هي كيفية مواجهة الفساد الذي ينشأ عن محتاط ألا تقع ليه يد القانون؟

إذن أنت يا أيها القانون البشري الوضعي لا تسيطر إلا على المحس من حركات الفساد والذي يدخل في إمكانك أن تضع يدك عليه؟ طيب ومن يفسد بإحكام بحيث لا تطوله يد القانون البشري.. من الذي يمنع فساده وشره عن المجتمع؟

لا يمنع هذا إلا ا، تكون هناك قوة لا يصل إليه احتياطه. لأن القوانين الوضعية البشرية حمت المجتمع من الجريمة التي ظهرت وخاب احتياط مرتكبها.. والذي لم تظهر جريمته ونجح احتياطه.. لابد أ، تكون هناك قوة أخرى تردعه.. ولا تخفي عليها خافية.

سؤال: وإذا أردنا أن نطبق الشريعة الإسلامية ألآن.. فهل هناك أولويات لتطبيق الشريعة؟؟

الشيخ الشعراوي: الأولويات كانت في أول التشريع.. ولكن من الممكن أن تكون الآن سياسة شرعية..ويمكن القياس. فالله حين أخرج الناس من جاهلية. كان فيه نوعان.. نوع عقيدة هذه لا هوادة فيها أي لابد من تصفية كل مسائل الكفر.

ونوع متعلق بالعادة.. يمكن أن تكون هناك فترة زمنية لكي أخرجه مما اعتاده ويجب أن يكون القياس عندي: أفضل أن أخفف الشر أم أبقيه.

قلت في نفسي: أخففه.. وألحت على خاطري.. ودوت في أذني.. وهزت

أعماقي.. صيحة الإمام الجليل فضيلة الشيخ الشعراوي:

" نريد أن نحكم بالإسلام"." بضم النون ".. إذ الغاية والقصد أن تكون المرجعية.. للشريعة الإسلامية.. وأن يقوم الحاكم على عدالة تطبيقها.. أما من يحكم فذلك أمر مرجعيته.. هي إرادة الأمة.

****

النظم الوضعية:

يقول الشيخ الشعراوي: كانت هناك شراسة للرأسمالية ، فالنقيض جاء ليأخذ السلطة ويعطيها للعمال ضد الرأسمالية ، ولكن العمال بشر أيضا قد يأخذون هذه السلطة ويطغون بها كما طغوا من قبل " الرأسمالية " فقلتم لا ، لابد أ، توجد هيئة تجمع بين الدعوى " الرأسمالية " وبين نقيض الدعوى بيد واحدة هي اليد الحاكمة فقط ، أصبحت اليد الحاكمة عندكم ، هي التي تملك الثروة وتتحكم في العامل ولا سلطان لأحد في حرية أو حركة.

ولا شيوعية تدعي أن الأديان ما جاءت لتنظيم حركة الحياة و ولذلك كانت الثورة الشيوعية تصحيحا لكل هذه الأفكار ، ولتنظيم اقتصاديات الحياة ، وقلنا إنهم جعلوا الأمر خاضعا لنظرية فلسفية هي الدعوى ونقيض الدعوى أي مقابلها والجامع بين نقيضها. وقلنا إن الدعوى في الرأسمالية يقابلها العمالية. وبعد ذلك قيل إن الرأسمالية في أيد أناس إذا استبدت بالأموال ، فكذلك قد يستبد العمال بالعمل وحينئذ يوجد شيء أسمه السيطرة الموجهة ، إذن فلابد أن نوجد هيئة تجميع بين الرأسمالية وبين المقابل وهو العمالية بيد واحدة وهي يد الأحزاب التي تسيطر وتحكم.

ونقول لهم: لنعط الجيل الإسلامي الناشئ خميرة يمكن أن يرد بها عل كل هذه الواردات.

إن الثورة الشيوعية التي بدأت في سنة ١٢٧ وأشاعت مبادئها ادعت فيما أشاعته أنها إنما جاءت بالشيوعية المرادة التي يحبون أن يؤصلوها في المجتمع ، ولكن في مقدمة للشيوعية وهذه المقدمة هي الاشتراكية.

إذن من لم يدخلوا في النظام الشيوعي. ومعنى ذلك أن النظام الشيوعي

أوغل في الاشتراكية مما يريدون.

فنقول لهم: إذا كنتم قد قلتم هذه المقدمة لتمهدوا للشيوعية فانظروا أتقدمتم إلى الشيوعية أم تأخرتم حتى عن الاشتراكية؟ إنكم فوجئتم بواقع الحياة يصوب أخطاءكم ورعوناتكم. فوجدتم أن النفعية الذاتية في الشخص قد انطفأت جذوتها ولم يعد هناك وازع في النفس للعمل. وما دام الأمر تأكد في، كلا عالم سيأخذ أجره فلا داعي أن يجهد الإنسان نفسه إلا بمقدار حاجته، والطموحات البشرية لا تجيء في كل الأفراد.

الطموحات البشرية في أفراد معدودين في كل جيل وفي كل مجتمع وفي كل عصر.. فإذا كانت..

المنفعة الذاتية هي التي تسيطر على حركة الإنسان:

إقداما ودأبا وإخلاصاً وغيره، لأن كل ذلك يعود عليه وعلى من يعول، فقد هذا المشجع وهذا الحافز في نظامكم، مما أدى إلى أن البلاد التي كنتم تصدرون إليها حبوبكم أصبحتم أنتم تستوردونها من الخارج، فهذا يدل على أنكم لابد أن تتوجهوا في النظام ليكون أقرب إلى الطبيعة.

هذا النظام الذي يكوون أقرب إلى الطبيعة هو أن تستغل حب الذات في النفس البشرية، لتعطي له حافزاً يجعله يعمل، وإن لم يكن المجتمع في باله، فإنه إن عمل ولو لنفسه ولم يكن حتى المجتمع في باله فإنه سيدخل للمجتمع قهرا عنه.

فهب أن إنسانا يريد أن يبني عمارة ضخمة، وعنده من المال مال مكنوز ويحب أن يبنيها، يدخل الله على نفسه خاطرا من خواطر الاستثمار والنفع الذاتي، هاكم ومالي لا أستغل هذا المال المكنوز في بناء عمارة تدر على

كذا وكذا من المال؟ ويضخم له الأمل ما يأتي من هذه العمـارة ، ذلـك بحـب ذاتي بحيث لا يتعدى حدود النفس الضعيفة ، وإن تعدى فإنمـا يتعـدى لولـده وإلى القريب من أهله.

نقول له: نعم إن المجتمع سيستفيد من ذلك أردت أو لم ترد ، كيف؟

الذي يحفر الأرض لتبني أساس العمارة سيستفيد.

والذي يصنع الطوب لتبني عمارتك سيستفيد.

والذي يعمل في حقل الأسمنت سيستفيد.

والذي يعمل في البناء سيستفيد.

والـذي يمـل في خلـط المـواد سيـستفيد ، والـذي يعمـل في الكهربـاء سيستفيد.

والذي يعمل فلي الأدوات الصحية سيستفيد.

والذي يعمل في الجماليت الكمالية " الديكور" سيستفيد.

فإذا ما نظرت على العمارة بعد أن أقيمت تجد أن كل مال هـذه العمـارة قبل أن ينتفع بها صاحبها انتفع بها كل المجتمع ، استطراقا من أفقـر طبقـة فيـه إلى أوسط طبقة. إذن فالحركة الذاتية في النفع الذاتي نريد أن توجد ولو لم يكـن في بال من يتحرك المجتمع. فـإن المجتمـع سيـستفيد قربهـا عنـه رضـي أو لم يرض.

فأنتم إذن اضطررتم إلى أن تدخلوا نظام الحافز.

إذن أنتم لم تقربوا من الاشتراكية إلى الشيوعية. وإنما رجعتم أيـضا حتـى عن بعض الاشتراكية.

الإسلام صحح شراسة الرأسمالية..

وصحح شراسة الشيوعية

ويعني أنكم رجعتم.. أن هناك فكرا شرسا قد هيأ لكم أمرا أو برر لكم أمرا لتسيطروا على ناصية الحكم في البلاد. وتستذلوا الناس لأنكم جعلتم لقمة العيش التي تقيم حياتهم في أيديكم ومعكم قوة الحكم.

إذن فأنتم تراجعتم قهرا عنكم لإيجاد الحافز ليوجد قدر من الحركة الهادفة النافعة المؤهلة للطموح.

فإذا كنتم قد رجعتم عن الاشتراكية التي أدعيتم أنكم إنما جئتم بها. كمقدمة للشيوعية. إذن فهذا تراجع، هذا مقابل الدعوى. وإذا ما نظرتم إلى الدعوى الأصلية وهي أنكم فعلتم ذلك لتخلصوا الدنيا من شراسة رأس المال. فلننظر في الجهة المقابلة لشراسة رأس المال.. أبقيت على شراستها أم أعطيت العمال الحقوق.. وأعطوا الراحات وأعطوا المكافآت ، وأعطوا التأمينات؟

إذن فلا الرأسمالية سارت في شراستها، ولا الشيوعية سارت في شراستها، تلك مخطئة، هذه مخطئة.

والواقع كذب الاثنين معا.

إذن فلابد أن تتنازل الرأسمالية عن شراستها وأن تتنازل الشيعية عن شراستها.

ومعنى تتنازل طرفين متقابلين أن يتواجها دون أن يتدابرا.

وإذا ما تواجها ألتقيا في منتصف الطريق ومنتصف الطريق هو الذي جاء به الإسلام.

إذن فلو أنكم أنصفتم لوجدتم الإسلام صحح شراسة الرأسمالية وصحح شراسة الشيوعية.

فلو أنصفتم لجعلتم من هذا النظام منقذا لكم مما تورطتم فيه سواء جاء التورط من جهة الغرب في الرأسمالية أو من جهة الشرق في الشيوعية.

فإذا ما أردت أن تقارن نظاما بنظام أبقى الحافز، وأشاع الخير الفاضل من الحركة الإنسانية وجدت أنهم أحرجوا فدخلوا في شيء آخر لا يدخل في مقام المناظرة، ولا في مقام الدجل، ولا تقوم به حجة وهو أنهم فروا من مناقشة النظام ومقارنته بنظام.. إلى الكلام في مصدر هذا النظام. الكلام الذي تقولونه يا أيها المسلمون كلام جيء به من شيء خرافي.

كيف تقولون إنه خرافي غيبي. إنه شيء موجود أولا، كونه ممن؟ هذا أمر لا يعنيكم. فقارنوا نظاما بنظام، وقد قابلت ففشلتم ،وتبين تفوق النظام الإسلامي على نظمكم جميعا، وأسبقيته وتميزه، وأنه لا إذلال فيه لأحد على أحد لأن بشرا لم يدع أنه أتى ليستذل به رقاب الناس؟ أو ليعتز به أو يحاول أن يجد لنفسه مكانا. لأنهم يقولون ليس من عندنا. إنما هو نظام من عند الله فيبدؤوا يناقشون فكرة الله هذه. نقول لهم: هذا فرارا من ميدان المناظرة، ومن مجال الجدل.

ما لكم والإله الذي قلنا إننا جئنا بالنظام عنه.

ناقشوا النظام وهبوه نظاما بشريا لنظام بشري. ومع ذلك سنحاول أن ندخل معكم في شيء من الجدل حتى لا تظنوا أننا قررنا من نقاش هذه المسألة.

وجود الأثر لابد أن يسبقه وجود مؤثر:

- إنكم تقولون إن الإله الذي نسبتم إليه هذا النظام إله لا وجود له ، وأن العالم يسير هكذا بطبيعته، إلى آخر الأفكار التي تقولونها في هذه المسألة التي أصبح الرد عليها ممكنا بطرف الأصبع.

- نقول لهم لو أنكم نظرتم إلى نظامكم بالذات أيدعي أحد أن النظام هبط عليه من دون مقنن له؟

إنكم قلتم ماركس.. قلتم لينين.

إذن فالنظام الذي وجد ما استطعتم أن تنسبوه إلى قوة خفية ولكنكم نسبتموه إلى قوة مادية من جنس ذواتكم. فالنظام جاء من عندنا ومتميز عما عندكم ، ألا تحبون أن ننسبه إلى أحد كما نسبتم أنتم نظمكم إلى أحد؟ وحاولتم أن تجعلوا منهم آلهة. إن نظاما جئتم به لم تقولوا إنه جاء هكذا بطبيعته ، وإنما جاء بأساتذة فلاسفة ومدارس ألخ.

فإذا كان هذا النظام الذي أصبح مفضوحا بمقارنته بنظام الإسلام لم يجئ بطبيعته ووجدتموه هكذا ، فهل النظام الذي يتفوق عليه أو على الأقل يساويه. تقولون هكذا جاء من غير أحد ، يقولون لا ،إنه جاء من أحد مثلنا ، نقول إن الذي يأتي بشيء عظيم لا يمكن أن يتخلص منة لينسبه إلى غيره.

لأن الناس تتصيد كمالات غيره لتنسبها لنفسها.

فإذا ما وجد عنده كمال ، جعله يأتي بنظام.. فهل إذا ما جاء بهذا النظام ينسبه إلى شيء آخر ويقول أنا لم أصنعه.

إن الإنسان منا يدعي ما ليس له ، ومثل هذه الكمالات لا تطلق بلا دعوى.

فإذا كانت تطلق بلا دعوى ، وأن الذين يتحملون هذا النظام يريـدون أن يرتفعوا عن مستواهم ويقولون: لا ، ليس من عندنا وإنما هو من عند إله قادر.

فلو أنه كان من عندهم لقالوا كما قلتم أنتم ، ومجدوا الذين جاءوا بهـذا النظام.

إذن فقولكم إن هذا شيء خرافي ، شيء لا يعـرف ولا يـدخل في نقـاش ولا يدخل في جدل ، وأيضا لو نقلناكم نقلة قبل وجـود النظـام. النظـام الـذي تحكمون به تقولون إنه لم يكن موجودا ، وقد وجد بموجد.

قلتم عنه إنه فلان وفلان.

- إذن فكل شيء يوجد ويطرح في عالم الوجود ، لابد له من موجـد ، مـا دمتم قلتم بنظام لم يكن موجودا قبل عام ١٧ هـذا النظـام لم تجـدوه مطروحـا هكذا بدون موجد ، ولكننا عرفنا أن قد أوجده موجد ، إذن فكـل أثـر لابـد أن يكون له مؤثر أوجده. فالضدية التي قلنا بها كدين وكإسلام قاد حركـة الحيـاة وانتصر على الفرس والروم أوجد هكذا بدون موجد؟

دعوا النظام الذي يحكم حركة الحياة. وابحثـوا في الحيـاة ذاتهـا.. هـذا الحياة التي توجد على ظهر الأرض في صور مختلفة ، أيعقـل أن توجـد هكـذا بدون موجد؟

لو أن إنسانا ما كان في صحراء ، ولا يجد ماء ولا قوتا ثم استيقظ فوجـد مائدة عليها أطايب الطعام وأطايب الشراب. أعتقد أنه قبل أ، يتناول شيئاً منهـا لابد أن يسأل فكره ، ويحمل عينيه على أن تبحث ليعرف من أمده بالطعـام ولا شراب.. فإن كان جائعا ومعجلا وأكل أظنه بعد أن يشبعه لابد أن يفكر فـيمن أحضر له الطعام ، فلن يجد أحدا أبدا يقول له أنا الذي أحضرته.

فإذا ما ارتفع صوت بعيد ليحل له اللغز وقال له: أنـا الـذي فعلـت لـك ذلك ، هو يطلـب منفعـة ، وقـال أنـا فعلـت ولم يجـد أحـدا يعارضـه في هـذه الدعوى ، ألا تصح الدعوى له ويصبح هو صاحبها؟.

ولعل في هذا إفحاما للذين يقولون (لا إلـه) إذا إستدللنا بـه عـلى إنهـم نظموا حركة من حياة من فكر البشر.

وهذه الحركة التي قاموا بها كانت نتيجة أبحـاث فكريـة لقـوم سـموهم فلاسفة هذه الثورة. الثورة الشيوعية.

إذن فالنظام لم يجيء من ذاته ، إنما بواسـطة أنـاس ، إذن فوجـود الأثـر لابد أن يسبقه وجود مؤثر.

فلو أنهم نظروا إلى الوجود من حولهم قبل أن يوجد منهم ذلك النظـام ، لوجدوا نظاما يحكم حركة الحياتية قد يكون من وضع البر ، وقـد يكـون مـن بقايا أديان درست واتهمت.

نقول لهم: تجاوزوا عن ذلك ، وانظـروا إلى الأشـياء الثابتـة في الوجـود التي طرأ عليها النظام. فالنظام جاء ليحكم حركة حياة إذن فابحثوا عن الحيـاة قبل أن تبحثوا عن نظام حركة الحياة ، وما دمنا قـد أسـتدللنا عـلى أن كـل أثـر لابد له من مؤثر يسبقه ، وقد سبق وجود نظام لكم تحكمون بـه نظـام الحيـاة الاختيارية، وجود مؤثرين أصـحاب مدرسـة وضـعوا ذلـك النظـام.. انقلـوا البحث إلى ما فوق ذلك وابحثوا في المنظم له.

المنظم له هو حركة الحياة بالنسبة للإنسان والإنسان ليس وحده في هذا الوجود الذي نظمتم له حركة.

لأن الإنسان جنس من أجناس كثيرة ، وأنتم نظمتم للإنـسان ، ولكـن لم

تنظموا شيئا لبقية الأجناس.

من الذي يجعل نظام الأجناس غير الإنسان نظاما لا يوجد له موجد لأنكم لم تدعوه؟ هاذ النظام أيضا عائد في أخريات أموره إلى الإنسان.

فالإنسان جنس وهو جنس أعلى. ومعنى أنه جنس أعلى أنه لا يوجد في الوجود المرئي للإنسان جنس آخر يفوقه في خصائصه. أقول في المرئي لأنه قد يوجد جنس غيبي أعلى مرتبة من الإنسان. إنما أنا أتكلم عن الإنسان المرئي المشهود في عالم الملك. ولا أتكلم عن الأشياء التي توجد في عالم الغيب ، لأن ذلك أمر لا نعرفه إلا عن طريق الدين.

وطريق الدين هو الطريق المختلف فيه. وما دمنا مختلفين فيه ، فلا يصح أن نحتج به عندهم.

إذن فالإنسان جنس في الكون ، وجنس أعلى لأن الجناس المرئية ، هي دونه في التكوين المشخص ودونه في مهمة.

فالإنسان إذا نظر ووجد نفسه حيا متحركا حساسا ، ووجد جنسا آخر حيا ومتحركا وحساسا وهو الحيوان الذي دونه ، ولكن الإنسان يفوق الحيوان بأنه مفكر.

ومعنى أنه مفكر أنه يختار بين بديلات متعددة.

الحيوان لا يختار بين بديلات. الحيوان محكوم لا بنظام بشري ولكن بنظام قهري وجد في غريزته لم يتعلمه أبدا ، لم يجلس إلى معلم ليعلمه كيف يأكل وكيف يشرب وكيف يتقي البرد وكيف يبني لنفسه أوكارا ،أو أعشاشا أو الخ.

إنما أمر جاء فيه بغريزة. فهو محكوم بالغريزة القسرية القهرية. والغرائز

القسرية القهرية دائما لا بدائل لها لأنها أمر واحد، ولنوضح ذلك بمثال: فأنت إذا ضربت قطة فإنها ترد عليك ردا واحدا ، ولكنك إذا ضربت إنسانا فإنه يمكنه أن يرد علك بردود متعددة. فقد يضربك ضربة أو ضربتين ، أو ضربة مثل ضربتك أو ضربة فوق ضربتك ، وقد يسخر منك ويهزأ ويعفو ، وقد يحسن إليك.

إذن فهناك بديلات متعددة الذي أدار هذه البدائل واختار أرجحها وهو الفكر وتلك هي ميزة الإنسان عن الحيوان.

الإنسان منا يأكل – كما نقول دائما – فإذا ما جاء إليه عزيز بعد شبعه بلون آخر من الطعام فإنه يأكله أيضا.ويأتي ثالث فيأكل أيضا. ولكنك إذا ذهبت إلى الحيوان بعد أن يشبع لتحمل عليه بكل ألوان القسوة لتحمله أن يأكل عودا من البرسيم فوق طاقته ما استطعت إلى ذلك سبيلا، لأنه محكوم بحكم الغريزة التي لا تجامل ، وبحكم الغريزة التي لا بدائل عندها.

إذن.. فالإنسان متميز بالفكر ، والفكر يجعله بين بدائل متعددة ، فما الذي يجعله يختار بديلا على بديل؟ إنما يختار بديلا على بديل وفق ما يرى من الخير في البديل الذي يختاره.

وقد يختلف الناس في تقدير ذلك الخير ، حسب أهوائهم ومشاعرهم ومواجدهم. إذن..

فلابد أن توجد قوة عليا لتنظم سلطان الهوى:

حتى لا يفسد على الإنسان أمر اختياره، فتتدخل هذه القوى لتفرض نظاما في اختيار الشيء الذي إن لم تختره يحصل فيه الضرر.

وبعد ذلك ننتقل إلى الحيوان ، فنجد الحيوان مستمتعا بأنه يفوق جنسا

آخر تحته.. هذا الجنس هو النبات الذي لا حس له كما نعلم ولا حركة.

والنبات يمتاز عن الجماد بأنه له نموه، والجماد لا نمو له.

إذن فأجناس الوجود التي أمامنا متدرجة. جنس يسلم إلى جنس، وتجد كل جنس في خدمة الأجناس التي فوقه.

الجماد (ماء، هواء، عناصر أرض، شمس، قمر) كل هذه جمادات هي في خدمة من؟

تخدم النبات تغذية بالضوء تغذية بالعناصر. الماء يذيب له العناصر ليتغذى.

***

الرسول نموذج للكمال البشري:

فإذا ما جاء إنسان وصاح أيها الناس ، إنني جئت لأخبركم بهذا اللغز لأنني عرفت من سخر لكم هذه الأشياء. أظن أن أقل منطق يجعل الأذان تستجيب لهذا الداعي لتسمع نمه حل اللغز الذي كانوا مشغولون به.

فإذا ما جاء رسول من جنسي وقال لي: أنا أحل لك هذا اللغز وإن الذي سخر لك هذه الأشياء هو القوة التي سمت نفسها الله.

إذن فقد حل اللغز الذي أطلب أنا حله وبعد ذلك يقول الرسول ذلك. ويأتي الآية والمعجزة على أنه صادق.

فإذا ما جاء بالمعجزة الدالة على أنه صادق.. أقال أنا الذي فعلت؟ لم يقل ذلك.. هو أيضا خرج من هذه المسألة. وقال أنا لم أفعل أيضا وإلا لو أنه استغل المعجزة التي جاءت على يده ولم يستطع أحد أن يجيء ببينة وأتحداكم أن تجيئوا به فلو أنه قال وأنا الذي فعلت ذلك ربما وجد مصدقا ، ومع ذلك لم يقلها أبدا ، بل قال أنا متلقيها عن القوة الخفية التي فعلت.

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجلي هذه العقيدة علميا والعقل يتطلبها والعقل يؤيدها فقال تعالى:

﴿ قُل لَّوْ شَاء اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:١٦).

أنا جئت بهذا وأنا سني الآن أربعون ، هل جربتم على منطقا كهذا المنطق المعجز قبل أن أبعث أبدا ، وأنا معكم منذ أربعين سنة؟

وهل تتفجر العبقرية بعد الأربعين؟ وهذا ضمن ما أثارته شبه

الملحدين، يقولون أن محمدا نشأ في أمة بليغة ولها في البلاغة مجال ، ولهـا في الفصاحة تميز. ولها في الأداء الجميل المستنير سـوابق ، فلمـاذا لا تجعلـون مسألة القرآن من محمد سابقة جميلة من هذه السوابق ، كما وجد منهم شـعراء وخطباء وحكماء؟ وما دامت هذه الظاهرة في البلاغة شـائعة لمـاذا لم تجعلـوا القرآن من هذه الظاهرة الشائعة إلا أنها ظاهرة متفوقة.

نقول لهم: إذا كان صاحب هذه الظاهرة لم يقل بها ولم ينسبها لـه وقـال لهم ليست هذه المعجزة لي وإنما أنا ناقلها من إله بعثني إلـيكم بـدليل أنكـم لم تجربوا على طيلة عمري أني بليغ أو أني أديب ، أو أني كاتب أو أني شـاعر أو أني خطيب.

﴿ قُل لَّوْ شَاء اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:١٦).

أذن فلابد أن يكون صادقا ، وإذا كان قد جـاء بـذلك وأنـتم تـنسبونه إلى الكذب وأن القرآن قد جاء به سابقة من سوابق العصر متفوقة.

نقول لهم إذا كان قد كذب نقول لهم فما الكـذب؟ كـل كتـاب يكـذب يحاول أن يحقق لنفسه نفعا لم يوجد قيل الكذب.

فما النفع الذي يريده محمد عليـه الـصلاة والـسلام ، حتـى يـدعوه إلى الكذب؟ إنه كما نعلم عاش فقيـرا عـاش مـسكينا متواضـعا) (عـاش يلـبس المرقع. عاش لم يشبع من خبز الشعير ، فـإذا كـان الأمـر كـذلك. فلمـاذا إذن كذب؟).

إذن فليس الكذب مبرر إلا أن يكون قد أراد أن يضع لنفسه موضعا أعلى مما هو فيه ، وهو بالعكس لو أنه اقتصر على ما كان فيه من أمانة التجارة لعاش

في يسر ، وعاش في أمن ورخاء ، وعاش في أسرة مترفة. لم يكن كذلك ، لأنـه لم يرد لنفسه الحياة ، وإنما أرادها الله له وهو واهب الحياة.

إن صاحب الكمال ، ينسبه لنفسه ، والقرآن كمعجزة في غاية الكمال لم ينسبه إلى نفسه ، وأيضا فإن وجوده في سن الأربعين ومجيء البلاغة الإعجازية له في سن الأربعين ، ولم يسبق له أن قال شيئا من ذلك يدل على أن العبقرية الأدائية لم تنصب عليه في سن الأربعين ، لن ذلك مخالف لنظام العبقريات في مقاييس الدنيا ، فما وجدنا عبقرية في إنسان تتأخر لسن الأربعين ، وإنما العبقريات تأتي عادة في أواخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث.

وهب أنه كانت عنده هذه العبقرية ثم آثر أن يفجرها بعد سن الأربعين؟ من الذي كان يضمن له أن يعيش لفجرها بعد سن الأربعين؟ ، فربما فاجأته المنية فمات وماتت معه العبقرية وهو يشهد أن أباه مات وأمه ماتت ، والناس حوله يتساقطون موتى في أي لحظة بدون توقيت أجلي.

إذن فقول الكفار والملاحدة إنه كذاب ، نقول لهم إن الكذاب عادة يكذب لغاية ، فما الغاية التي من أجلها يكذب محمد؟!!

لقد كانت حياته حياة هادئة رتيبة في مستوى يحسد عليه وفي مركز في تجارة خديجة ، من الممكن أن يعيش به عزيز قوم فما الذي أداه إلى هذا الكذب لنفسه.. لصنع ماذا؟.

ولا متاعب كلها انصبت عليه بعد قيامه بهذه الدعوة ثم بعد أن انتصر في الفتح ودانت له الجزيرة وأصبح سيدها كيف عاش؟

إنه دخل مكة في منتهي التواضع وفي منتهي الانكسار لله ، وقالوا إنه من خشيته وتواضعه لله كانت رأسه وهو على دابته تمس قربوس فرسه.

إذن فذلك هو منتهي التواضع ، وإذا كان يقال لنا إنه كان يمر الشهر ولا يوقد في بيت محمد نار يعني للطهي ، لم يشبع من خبز شعير ليلتين متواليتين.. كل ذلك يدل على ماذا؟

يدل على أنه ليس هناك سبب للكذب ، وأيضاً فإن محمد لم يجعل لأهله حظا في دنيا الإسلام. بل بالعكس منع أهله من أن يأخذوا حظهم من الزكاة وإن كانوا فقراء، منع أهله أن يرثوه " نحن معاشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه صدقة ". إذن فليس هناك سبب يدعوه أن يكذب ليعيش هذه العيشة في هذه الدنيا التي يحاول الناس فيها أن يأخذوا حظهم منها.

وأيضا فإن الملابسات التي مرت به جعلت الناس أمامه قسمين: قسم آمن به، وقسم تصدى له.

التصدي عادة لإبطال دعوى مقابلة يجند لها كل مواهبه ، ويجند لها كل قواه ليحاول صدها فكونهم كفروا بمحمد ،وتصدوا له دليل على أنهم جندوا كل قواهم وما دام قد جندوا كل قواهم ثم انتهي أمرهم. إما إلى أن أئمة الكفر تطرح ، والباقي يذهب إلى محمد ليؤمن به ، وبعد أن كان حربا عليه يكون سلاحا في يده ، كل هذا يدل أن محمدا لم يستلب هذه الزعامة وإنما وهبت له من السماء وكانت لها تبعات لم يستفد منها هو ، ولم يستفد منها واحد من بنيه ولا واحد من أهله.

أيضا حين يقول رسول الله ﷺ إني أدلكم على الإله الذي خلق ، والذي رزق ، والذي سخر لكم كل ما في الأرض، مما لا يدخل تحت قدرتكم. إنه الله ولا إله سواه مما تعبدونه من دون الله.

بعد ذلك أعلنها في لا إله إلا الله وأعلنها مدوية وأعلنها في أذن سادة الجزيرة. ومعنى سادة الجزيرة ما كان يستطيع أي عربي أو أي قبيلة أن تقف

في وجهها. ومحمد وحده، وحوله قلة من الصحابة المستضعفين يقولها لا في أذن سادة مكة وحدها بل في إذن سادة الجزيرة كلها، سادة الجزيرة المسيطرون عليهم في رحلة الشتاء والصيف للتجارة، ولا تستطيع أي قبيلة أن تقف ي وجهها.

هؤلاء القوم " محمد وحده " يصيح في أذانهم ليهد لهم ذلك الجبروت وليدك لهم هذه السيادة، وليقول لهم أن الأصنام التي تعبدونها من دون الله لا تضر ولا تنفع، وإنما يجب أن تتجهوا إلى الله، هذا ما يريده محمد وما يريده الإسلام بصيحته " لا إله إلا الله " وبعد ذلك ظلت الكلمة منكرة ممن كفر بها، ولم يدع إله من الذين يدعونهم أن يكون أمام هذا الإله ليقول لا " أنا الإله" وليس هذا هو الإله وظلت كلمة " لا إله إلا الله " بدون رد من إله آخر فإن كانت المسألة لأنه لا إله إلا الله صحيحة، إذن قضية الإيمان انتهت بالصدق، وقضية الإيمان انتهت بالواقع وإن كان هذا الكلام ليس صحيحا وليس حقيقيا، وفيه إله، ألم يسمع أن إلها قال إني الإله الواحد، وإنه لا إله إلا أنا. أسمع أم لم يسمع؟

إن لم يكن قد سمع فيكون إلها نائما لم يدر ما يحدث حوله.

وإن كان قد سمع فلماذا لم يتجه هو الآخر ويقول أنا الذي خلقت وأنا الذي رزقت ويكون لك واحد منهما حجة وصاحب الحجة البالغة هو الغالب.. لم ينشأ هذا.

وظلت كلمة " لا إله إلا الله " وإن كفر بها قوم ليسوا نم الآلهة الذين كفروا. إنما الذين يدعون بأن هناك إلها.. الإله الذين تدعونه أين هو وقد قال الإله الحق لا إله إلا أنا ويقول الله:

﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ

﴿ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:١٨). أين هو؟

إذن إن لم يكن صدقا لا يصح أن يكون إلها لأن الكون أخذ منه والربوبية أخذت منه وهو لا يدري ، أو هو يدري ولا يقدر أن يواجه من أخذ الكون منه إذن هو لا ينفع أن يكون إلها.

فقولنا " لا إله إلا الله " بدون معارض من آلهة أخرى لا من أمثالنا، إذن تظل الدعوى لصاحبها قائمة إلى أن يقوم معارض جديد لينفي هذه الدعوى.

إذا أردنا أن نكتفي بهذا القدر ونردهم بحقائق الوجود أى واجب الوجود وهو الله ويكتفون بهذا فلا مانع وإن لم يكتفوا بهذا القدر فنقول لهم ، الدين الذي جاء حل لكم كثيرا من معضلات الحياة التي واجهتكم بمجهوداتكم أنتم.

علماء السلالات أو الأنساب حينما صنعوا الإحصائيات للسلالات وجودا أن السلالات تصير دائما في المستقبل إلى كثرة.

هو وقفوا عند هذه الظاهرة وكنهم ما استطاعوا أن يتمشوا مع الظاهرة تمشيا إيمانيا ليهديهم إلى أصل الدين ، لأنهم ليس عندهم فكرة الرجوع إلى دين.

ولو كان لهم فكر أن يذهبوا إلى دين كان قد أصبح من الميسور على الباحثين والمفكرين والعقلاء الذين يستنبطون من مادة الأرض ومن التجارب والمعمل كان من الممكن أن يذهبوا إليه.

ولذلك الذي يضع الحقيقة الدينية نصب عينيه ، وهو يبحث ينتهي دائما إلى الإيمان.

ولكن الناس في غفلة عن هذه المسألة.

نقول لهم إن العالم سكانه ألآن خمسة آلاف مليون نسمة إذا كنا قبل قرن

من الزمن كم كان عددنا؟ قدر أي عدد نقول ألف مليون وقبل قرنين خمسمائة مليون وقبل قرون سلسلها في القدم فستنتهي إلى أنك كلما أوغلت في القدم أنقصت في العدد.

إذن التكاثر نشأ في الاستقبال. وما دام التكاثر ينشأ في الاستقبال، تكون القلة ناشئة في الماضي، ونتدرج ونسأل أنفسنا كم كان العدد من عشرة قرون خمسة ملايين ومن ٢٠ قرنا ٢ مليون ومن أربعين قرنا مليون إلى أن نصل إلى مائة إلى أن تصل إلى أقل عدد يأتي منه التكاثر وهو عدد اثنين ولا نقول واحدا لأن الواحد لا يأتي منه التكاثر.

فمهما توغلنا في الماضي فسنصل إلى العدد اثنين.

إذن انحل لغز التكاثر والسلالات والإنسان من الذي حله؟ الذي حله هو الدين، كيف ذلك؟

لقد حل في آية من كتاب الله:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء ﴾ (النساء:١).

إذن انحل لغز السلالات والأنساب ولغز التكاثر في الوجود، قضية لا يمكن أن يجادل فيها إنسان وإلا كيف كنت؟

يمكننا من هذا المنطلق وهذه الحقيقة أن نرد على الذين يقولون إن الإنسان أصله قرد.

نقول لهم إن كل جنس موجود باستقلاله، فالدين الخالد هو الذي حل كل القضايا الأساسية في الوجود التي سينتهي إليها الإنسان يبحثه مجردا عن التدين ليحل له هذه القضايا.

فقول الله تعالى:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات:٤٩).

وأيضا كيف تكلم الملحدون فنحن نتمادى معهم لنأتي لهم بالشبه التي يوردونها ويقولون أنتم تؤمنون بإله خرافي ليس موجودا نقول لهم الإله الذي تقولون عنه إنه خرافي هو الذي فسر لنا الحقائق التي وصلتم إليها.

هذا الإله هو الذي أوصني إلى هذه المعلومات.

أ/ محمد عليه الصلاة والسلام فقد بلغها لي فقط وإلا لو قلتم إن محمدا ليس برسول ، فماذا تريدون أن يكون؟

تريدون أن يكون إلها ، وهو لا يرضى أن يكون إلها.

إنما هو قال أنا رسول من رب العالمين.

ليس لي من الأمر شيء ، ولا أنسب شيئا لنفسي.

ونرتقي معهم في المناظرة لنثبت لهم أن الكلام الذي يقولونه فرارا من جدية البحث في النظام ومقارنته بنظام إلى أن ينقلونا إلى شيء لا دخل له في المناظرة ولا دخل له في الجدل.

ولكننا دخلنا فيه فقط لنثبت لهم أنهم حمقى، وأنهم لا يريدون أن يصلوا بالأمور إلى حقائقها لأن إيمانهم بإله يسيطر على الوجود كله وقانونه هو الذي يجب أن ينفذ ليمنعهم من أن يكونوا جبارين في الأرض ومتسلطين ويمنعهم أن يكونوا حكاما آمرين بأهوائهم.

انتهينا من الرد على الذين يدعون أن هذا الكون خلق بطبعه وإنه لا إله وراء هذا الكون ، خلقه ويدبره ، وهو قيوم.

وقلنا إن الإيمان بالله حل لنا كثيرا من أقضية الحياة ، التي انتهي إليها العقل في عهدنا المعاصر ، ولولا وجود ذلك الدين وخصوصا دين الإسلام لوجدت في الكون حقائق ، لا تستطيع تبريرها ولا تستطيع تعليلها ، وإذا كان هؤلاء الذين يرجفون حول الإسلام ليشككوا في تعاليمه ، وفي مبادئه ، فإن لنا أن نأخذ قضاياهم الباطلة واحدة واحدة ، لنرد عليها ردا نجعله مصلا إيمانيا. يعطي كل مسلم مناعة تطمئنه على دينه ، وأنه دين لا يمكن أن يقوي عليه أي بطلان أو أن يغلبه أي تبرير. أشاعوا فيما وصلني من الكتب أنهم يشيعون أن محمدا ﷺ رجل كان يصيبه الصرع ، وكل ما حدث مما قال إنه قرآن أو حديث قدسي أو حديث نبوي كل ذلك نتيجة الصرع.

وللرد على هؤلاء نقول باختصار: هل المصروع يمكنه أن يقول ويردد ما قاله حين صرعه؟ إن المصروع يفعل وحين يفيق ينكر ما فعل ولا يذكره ، ولكن الذي حدث لمحمد صلى الله وعليه وسلم أنه كان حين يأتيه الوحي تراه في منتهي الهدوء والسكون ولا يحدث له إلا ما يحدث من اضطراب لا نزوع له كلاميا.

فلم يجربوا عليه أثناء الوحي كلمة خرجت منه ولا تصرفا في جوارحه وإنما يلاحظون أشياء كانت تحدث فيه وهو في منتهي الثبات وفي منتهي الاستقرار وفي منتهي الاتزان وإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة. حكى ما أوحى به الله له ، والذي يدل على بطلان ذلك أنه كان يوحي إليه النجم (الآيات) من القرآن طولا يستغرق وقتا طويلا ليحكيه ويقوله.

فإذا ما قاله كتبه كتاب الوحي عنه يجيء إليه الوحي بالقرآن فيقرؤه في الصلاة. حين يقرؤه في الصلاة يقرؤه كما كتب عنه ، فهل يوجد واحد يستطيع أن يأتي بكلام يستغرق الساعة فأكثر ثم يقال له أعده كما قلته فيعيده كما قاله؟

لا شك أنه حين قال فكتب عنه وحين قال ما كتب فجاء طبق ما قال دليل على أنه يصدر عن قضية قالها القرآن: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ (الأعلى:٦).

لأن هذا أمر خارج عن نطاق البشر ، فهات أي إنسان ليتكلم ربع ساعة، ثم سجل عليه ما تكلم به، ثم قل له أعد على ما قلت، إن لم يكن حافظا وربما إن كان حافظا أيضا فإنه ينسى ولا يستطيع إعادته طبق ما سجل عليه.

أما الرسول: نقول له هات لنا كلاما جديدا وقل لنا فيه ، ثم سجل عليه ذلك ، ثم قل له أن يعيد ما سجل عليه ، فلا تجد فارقا بين ما قاله فكتب عنه ، وبين ما يردده في الصلاة بعد أن كتب عنه.

أشاعوا وقالوا إن كلاما جاءنا عن محمد يقول عنه إنه قرآن ، مرة ويقول أنه حديث قدسي ومرة يقول أنه حديث نبوي.

جعلوا من ذلك مصدر تشكيك قالوا إنه كان حين يروق له أن يقول ذلك قرآن ، يقول إنه قرآن. وحين يروق له أن يقول هذا حديث قدسي، يقول: هذا حديث قدسي، وحين هو يروق له أن يقول هذا حديث نبوي يقول: هذا حديث نبوي، نقول لهم إن الذي أخذتموه لتجعلوه ضد نبي الإسلام هو في صالح نبي الإسلام ، ولكنكم قوم حمق ، وعناد يترك الله بعض الحق عند الأحمق لينبه على حمقه.

نقول لهم: هاتوا لي في عالم الإنس إنسانا له موهبة القول وما دام له موهبة القول ، سجلوا له ظاهرة أسلوبه ، ثم سلوه أن يغير الأسلوب إلى أسلوب آخر ، وسجلوا أسلوبا آخر ، ثم اطلبوا منه أسلوبا ثالثا.

إنه لا يستطيع أن يخرج عن أسلوبه أبدا لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص في أداء المعاني ، وما دامت له طريقة في أداء المعاني فإن

الأداء سيأخذ تشخيصا لا يمكن له أن يبرئ نفسه منه ، فإذا ما جئنا بالأسلوب القرآني ، وأسلوب الحديث القدسي وأسلوب الحديث النبوي فسند أساليب ثلاثة ، لا يمتزج فيها أسلوب بأسلوب ، ولا يشتبه فيها أسلوب بأسلوب ، أساليب ثلاثة لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه.

فهل يستطيع بشر أن يجعل لموهبته الأدائية ثلاثة أساليب بحيث يقول أنا سأتكلم ألآن أسلوب قرآن ، وأتكلم الآن أسلوب حديث قدسي ، وأتكلم الآن أسلوب حديث نبوي.

هذا لا يوجد في طاقة بشر ، إذن فهو كما هو القرآن يوحيه الله له ، والحديث القدسي يوحيه الله له.

ولكن الفارق أن القرآن يأتي وحيا معجزا متحدى به.

ولا حديث القدسي يأتي أيضا من الله لكنه ليس متحدى به، ولا متعبدا بتلاوته.

وأيضا فالحديث القدسي لا يمكن أن نصلي به، ولا يمكن أن يكون إلا بطريقة من الطرق التي لم يجيء بها القرآن. فمثلا القرآن جاء بطريقة واحدة هي هذه الطريقة الثالثة فيما أخبر به القرآن نفسه بها حيث قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾(الشورى:٥١). إذن كلام الله لخلقه لا يعدو هذه الثلاثة.

ومعنى الوحي إعلام بخفاء، وهذا هو الإلهام كما يسميه العلماء، وليس الوحي المراد به جبريل، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي أن طبيعة البشر لا يمكن أن تتلقى عن الله، لأن القدرة الممكنة مستحيل أن تتلقى عنا لقدرة الواجبة المطلقة.

ولنضرب المثل لذلك " ولله المثل الأعلى " ولنقرب ذلك نقول إن

الطاقات حينما تنتقل من قوى إلى ضعيف لابد أن توجد بينهما وسائط. هذه الوسائط تأخذ من القوي لتعطي الضعيف.

فالقدرة الواجبة المطلقة لا يمكن لبشر أن يتحملها، بل لابد من إيجاد وسائط.

فالرسول ﷺ يشترك مع إخوانه الرسل في أنه كان يتلقى عن الله. إما إلهام. وإما أن يكلمه الله من وراء حجاب.. وأما أن يرسل رسولا (جبريل) فيوحي بإذنه ما يشاء.

إذن هي ثلاث طريق في توصيل الوحي إلى الرسل كل ما يمكن أن يكون من الاتصال بين الله وبين رسوله مرة يكون بالإلهام الذي يسميه الله وحيا، ومرة يجيء الكلام من وراء حجاب كما حدث ليلة الإسراء، أو كما حدث لموسى حين كلمه ربه ولكن القرآن لم يجيء إلا بطريق واحد. هذا الطريق الواحد هو أن يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، إذن فالقرآن لم يثبت إلا بهذا الطريق، ولكن الحديث النبوي والحديث القدسي يثبتان بالطريقتين الأخريين.

• ولماذا حظى القرآن بهذا؟ لأن القرآن معجزة ومتحدى بها، فلابد أن يوجد وحي من الله. ليكون ذلك إلزاما.

لأنه إما أن تتغير بطبيعته ﷺ بعض الشيء ليمكن أن تتقبل عن الوحي، وإما أن يتمثل له الوحي مرة كرجل.

وحينئذ تكون المسألة خفيفة على رسول الله، لأن الرسول ﷺ بقى على طبيعته البشرية. وأمين الوحي هو الذي انتقل من طبيعته إلى رجل، كما حدث حينما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ في صورة صحابي وسيم الوجه يسمى

"دحية الكلبي" وأسند ركبتيه إلى ركبتي رسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام وعن الإيمان وعن الإحسان ، والرسول ﷺ يجيبه ، ويقول له جبريل صدقت ومعنى أن جبريل يصدقه دليل على أنه يعرف الإجابة قبل أن يقولها الرسول ﷺ.

• فقال الصحابة: عجبنا يسأله ويصدقه ، فلما انصرف قال لهم رسول الله ﷺ: هذا جبريل جاء يعملكم أمور دينكم وبهذا زال العجب عن الصحابة.

• إذن فالوحي قد يتشكل ، وقد يحدث للنبي صلى الله ولعيه وسلم في ذاته ما يجعله أهلا لتلقي الوحي ، فلذلك يقول الذين شهدوا نزول الوحي عليه إنهم كانوا يسمعون حول رأسه دويا كدوي النحيل ، وإنه كان إذا أوحى إليه وهو على دابته تكاد الدابة تئط (تنخ) من ثقل الوحي على رسول الله ﷺ وإنه إذا أوحي إليه ويده على فخذ أحد الصحابة فإنه يثقل عليه. وإنه كان يتصبب عرقا عند نزول الوحي عليه في الجو البارد ، إذن هناك تفاعل حدث في رسول الله صلى فكانت هذه الأحوال إيذانا بأن جبريل جاء ليقول له وحيا ، ولكن الأحاديث القدسية والنبوية جاءت إلى رسول الله ﷺ، فكانت هذه الأحوال إيذانا بأن جبريل جاء ليقول له وحيا ، ولكن الأحاديث القدسية والنبوية جاءت إلى رسول الله ﷺ عن الوحي بمعنى الإلهام (أو أن يكلمه الله من وراء حجاب) ولذلك يجب أن نفهم ألآن اختلاف أسلوب القرآن عن الحديث القدسي ، وعنِ الحديث النبوي ، يجب ألا يكون مثار تشكيك ، وإنما يجب أن يكون دليلا إيمان على أن الرسول أعطى ثلاثة أساليب للأداء لا يشترك أسلوب مع أسلوب ولا تشتبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى.

فطريقة القرآن لها خواصها المتحدى بها ، والحديث القدسي له خواصه ولكن لا يتحدى بها. ولولا أن رسول الله ﷺ كان يقول فيما نقل إليه جبريل عن رب العزة. أو يقول قال رسول الله ﷺ فيما ألهم به عن ربه ، لما

استطعنا أن نفرق بين حديث نبوي وحديث قدسي ، ولذلك رأي بعض العلماء أنه لا يكاد أن يوجد فارق بينهما إلا أن الحديث القدسي توقيفي ، أما الحديث النبوي فبعضه توقيفي ،وبعضه توفيقي، يعني يقول فيوافق مراد الحق وإذا أراد الله أن يرسلا رسولاً إلى خلقه ليرحمهم جميعا ، هذه الرحمة تتمثل في أن جعل مشقة التلقي عن الأعلى قاصرة على واحد ، وإلا فلو أن هذه الحالة جاءت لكل واحد ، وخاطب الله كل إنسان لكان كل إنسان تعرض لمشقة الوحي ، لكونه أختار بعض خلقه، " وأعدهم على عينه " ، حتى يكونوا أهلا لهذا التلقي ، ومع ذلك أصابهم شيء من التعب ، ندرك ذلك من قول الحق ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ [١] وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ (الشرح:١/ ٢).وإذا قرأنا هذه السورة وجدناها بعد سورة الضحى في قوله تعالى. ﴿ وَالضُّحَى [١] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [٢] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى:١/ ٣).

حينما فتر (تأخر) الوحي عن رسول الله ﷺ لأن الوحي كان يجيء بتبعاته ، وكان يجيء بمشقاته حتى أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي يقول زملوني زملوني دثروني ، أي كأنه يصيبه شيء من الحمى.

إذن فهذه متاعب تحملها رسول الله ﷺ ، عن أمته ليأخذ عن الله، ولو أن الله أراد أن يخاطب كل الناس كما خاطب رسول الله لكان في ذلك العنت ولا مشقة على الجميع.

ولكن الله اصطفي واحدا ليحمله هذه المهمة ، مهمة تلقى الوحي بتبعاته ومشقاته.

ومع ذلك أعده الله ذلك الإعداد الذي يناسب هذا التحمل ولم يسلم من المتاعب والمشقات التي يقول عنها الحق في كتابه ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [٢] الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ (الشرح:٢/ ٣).

إذن فالشيء الذي كان يأتي أولا بالمشقة ، صحيح وواقع من الوحي على رسول الله ﷺ وأن الرسول ﷺ في الفترة الثانية من الوحي لم تكن المتاعب التي حدثت له في الفترة الأولى هي المتاعب التي تحدث له في الفترة الثانية ، ولذلك قال الله في سورة الضحى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (الضحى:٤).

لأن أول علاقة لرسول الله ﷺ بالوحي كانت الدربة صعبة والريادة مشقة.

لكن حين يفصل الوحي عن رسول الله ، وبعد ذلك يذوق رسول الله حلاوة ما ألقاه الله غليه من أمر الوحي بعد أن يهدأ تعبه يعجبه ما أخذه فملا يعجبه ما أخذه فتر عنه الوحي ، لتوجد في رسول الله ﷺ طاقة اشتياقي.

الطاقات الاشتياقية في النفس البشرية تحمل كثيراً من المتاعب وتغسل كثيرا من الجهد.

فإذا ما كان الإنسان يتحمل شيئاً من المشقة في سبيل أن ينال شيئاً من الخير ، يتعب ساعة تناله المشقة ، لكنه حين ينعم بذلك الخير ، يتمنى أن يحدث له ذلك مرة أخرى.

هذا التمني يصوره لنا بعض الفلاسفة تصويرا عظيما ،يقول هب أنك رأيت شجرة من التفاح على جبل ، الصعود إلى هذا الجبل صعب ، ولكنك تحملت التعب ولا مشقة فوقفت مرة ، وتشبثت بالصخور مرة ، ووقعت مرة أخرى ونالك ما نالك من رُضوض أو جروح ، ولكنك في النهاية وصلت إلى الشجرة ، فأخذت منها ثمرة ونزلت بهذه الثمرة. حين تهدأ ، ويهدأ ما نالك من التعب وحين تأكل الثمرة يحدث لك شوق أن تصنع مثل ذلك.

هذا الشوق يودد لك طاقة ثانية فوق طاقتك الأصيلة ويلهيك عن

المتاعب أو يغريك بتحمل المتاعب.

فإذا ما ألهاك عن المتاعب أو أغراك بتحملها. لأنك كنت قبل هذا الأمر متعبا قبل أن تدرك لذة. ولكنك الآن تعب بعد أن تدرك اللذة.

فاللذة التي أدركتها نتيجة التعب الأول هي التي سهلت لك التعب الثاني.. لذلك كان رسول الله ﷺ حينما جاء له الوحي أولا ، لم تأت الثمرة وإنما جاءت متخلفة بعد. فلما جاءته الثمرة جعل الله له فترة وحي ليجد طاقة من الشوق وطاقة من الحنين عند رسول الله ﷺ لحلاوة ما يصله من الله ، هذه الحلاوة والطاقة يسرتا له كثيرا من المتاعب ، ولذلك لم يعد يتعب بعد ما حدث بعد فترة الوحي لا يقول زملوني ولا يقول دثروني ولا ترجف بوادره ، ولا يقول غني جبريل حتى بلغ مني الجهد ، كل ذلك لم يحدث بعد فترة الوحي.

إذن قول الله ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (الضحى:٤).

لماذا لأنك قد أخذت لذة من المتاعب الأولى.. هذه اللذة يسرت لك فيما بعد أن تأتي وتشتاق إلى الوحي ليأتي لك من جديد.

ولذلك يقول الحق ﴿ وَالضُّحَى [١] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [٢] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى:١/٣).

إنما صنع ذلك لحكمة لا لتوديع ولا لقلي (بغض) ولا لهجر ، وإنما لتربية الاشتياق في نفسك حتى يسهل عليك أمر استقبال متاعب الوحي فلا تجد بعد ذلاك هذه المتاعب.

إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يعطي رسوله ﷺ من فيضه ، يعطيه عطاءات متعددة ، عطاء هو قرآن ويقول ربه له تحد به وعطاء آخر أحاديث

قدسية ليست للتحدى ويعطيه عطاء يفوضه فيه وهو الحديث النبوي.

وليس الحديث النبوي كلاما فحسب ولكن إن رأي الرسول غيره تكلم فسكت الرسول.. فهذا إقرار له منه على ما فعله. فيكون حديثا نبويا أيضا.

إذا فعل صحابي فعلا ووافقه الرسول على فعله يكون حديثا ، ولكن الأحاديث النبوية إما توفيقية وإما توقيفية ، فالحديث القدسي توقيفي من الله ، بدليل أن الرسول ﷺ حين يعرضه ، يعرضه مسند إلى رب العزة ، فيما يرويه عن الله ، وما دام يرويه عن رب العزة فهذا هو السند وفي نفس المتن للحديث ما يدل على أنه حديث قدسي فحينما يقول في الحديث القدسي (يا عبادي..) إذن من الذي ينادي إنما هو الله كما يقول في الحديث ٤ القدسي عن رب العزة "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا.."

"يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئا" الخ الحديث ، وكقوله في الحديث القدسي " أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدي" .

إذن متن الحديث يوحي بأن الله هو الذي يتكلم. فالحديث القدسي توقيفي يعني عن الله مباشرة ولكن أحاديثه ﷺ فيها ما هو توقيفي ، أوحى الله إليه أن يقول بمعانيه ، أو يقول النبي ﷺ فيوافق أو يعدل ولذلك من ضمن الأشياء التي كتب إلي فيها أنكم تقولون إن نبي الإسلام لا ينطق عن الهوى:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (الحشر:٧).

فالرسول مفوض في الأمر أن يبينه ، فالله شرع الصلاة إجمالا ، وترك للرسول أن يبينها تفصيلا ، عدد أوقات وعدد ركعات وهيئات كل ذلك بمبدأ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

فأحاديث رسول الله ﷺ بالنسبة للقرآن كاللائحة التنفيذية للدستور أو القوانين المكملة لمطلوبات الدستور.. فهؤلاء الملحدون اجترءوا على القرآن وعلى رسول الإسلام وعلى أئمة الإسلام وقالوا: الشافعي ومالك وابن حنبل وأبو حنيفة كل أولئك لا نعترف بهم وبعد ذلك اجترءوا على أحاديث رسول الله ﷺ.

***

عمل المرأة:

وهم يقولون على الإسلام بأنه دين جاف جامد، يريد أن يجحد نصف المجتمع لأنه لا يجعل المرأة حركة في الحياة.

نقول لهم إنكم لم تفهموا الإسلام وتحاولوا أن تربطوا بين تصرفات رسول الله ﷺ للمرأة في عصره وبين التصرفات التي توجد للمرأة الآن في العصور الحديثة.

فكلما خرجت المرأة لعمل أو أي شيء يقولون أيضا إنها خرجت للحرب حتى يبيحوا للمرأة أن تجند.

وما دامت المرأة تجند تصبح مثل الجنود ويقولون لك إن فلانة كانت تقول إنها كانت تمرض.. كانت تداوي الجرحى.

وهذا لون من الاختلاط له نظير عندنا لأن الاختلاطات حين تكون محوطة بشيء من العقيدة تحول عن مضار الاختلاط. ففي الحج اختلطت المرأة والرجل في الطواف وفي أعمال الحج وقد تطوف وتجد نفسك لاصقا بامرأة وأنت لا تدري.

ولكن استحلفك بالله: الرجل الذي كان ينتظر طول حياته ويتمنى أن

يحج مرة واحدة في العمر يحاول أن يكفر بها خطاياه ويغسل بها ذنوبه أفي هـذا الوقت يمكن أن يفكر في امرأة؟!

إننا جميعا مر بنا ، إننا قد نجد أنفسنا وسط نـساء دون أن نـشعر بهـن إذن فالموقف يبتعد عن الموقـف الـذي يفكـر فيـه الرجـل أن يجتمـع بـالمرأة في مكان.. ما.

كذلك الحرب عملية فيها قتال وجراح وقتلى ومـع ذلـك ظلـت المـرأة تؤدي هذا الواجب وهي تحاول جاهدة ألا تأخذ من الموقف أكثر مـن الـدور الذي تقوم به.

ألم تذهب إلى الكافر لتقتله؟ ولما قتلته قالت لحسان أنا قتلت انزل إليـه، واسلبه يعني خذ سلبه " الغنيمة التي عليه ".

والله ما منعني من أخذ سلبه إلا أنه رجل ، فقـد قتلتـه وحـين قتـل فقـد الحس والحركة ، ألا يمكن أن تتقدم منه وتأخذ ما معه ما دام ميتـا ومـع ذلـك تحرجت أن تأخذ سلبه ،وقالت لرجل اذهب أنت لأنه سيلتصق به.

إذن هي أخذت الضرورة بقدرها ولكننا لا تأخذ مـن الـضرورة بقـدرها ونقول قضية مسلمة.. ويقول بعد ذلك إن المرأة كانـت تعمـل ،.. و.. تعمـل مع من؟ يتكلمون عن أسماء أنها كانت تخدم فرس زوجها وتـسقيه وتـأتي لـه بالنار ولكن تعمل لمن؟

ألا تعمل المرأة الآن ولا شرع يقرها مع أبيها ومع زوجها ومع أولادهـا ومع محارمها..

ألا تعمل المرأة مع بنات جنسها الـذين يريـدون ألا يحمـوا المجتمـع نشاطه نصفه كما يقولون.

لماذا لا يجعلون للنساء مجالا في حرفهن ويكـن هـن العـاملات وهـن المديرات وهن المشرفات؟! إذن نريد أن ننتفع بالمرأة في مجالها وفي نشاطها الذي يصون لها كرامتها وعفتها.

إن قضية المرأة يجب أن تدرس في إطار من الواقع التكـويني الخلقـي، قبل أن تبحث من الناحية الخلقية.

فالتكوين الخلقي للمرأة يجب حين نعرفـه جيـدا أ، نقـارن بـين وظيفـة المرأة في الإسلام وبين ملائمة تلك الوظيفة بالتكوين الخلقـي لهـا، فـإذا مـا شئنا أن نبحث هذا الموضوع وله شاهد من واقع الحياة نقول:

المرأة نوع من جنس.. ومعنـى أنهـا نـوع مـن مجـنس أن هنـاك جنـسا يجمعها هي والرجل. هو جـنس الإنـسان والإنـسان كمـا نعرفـه في التعريـف المنطقي حيوان ناطق ،ونـاطق يعنـي مفكـر. مفكـر يعنـي لـه أن يختـار بـين البديلات. و حركة الحياة لا تتطلب عمـلا واحـدا، يعمـل النوعـان للجـنس ولكنه جعلت لكل نوع مجاله.

وإذا ما نظرنا إلى المتحرك نجدد أنه هو الـذي يقـوم بحركـة. والحركـة دائما تحتاج إلى الزمان ولا مكان، والزمن إما حاضر أو مستقبل أو ماض،

والمكان.. ظرف ثابت. الحد يحتاج إلى الظرف(الزمان والمكان). ومـا دام الظرف " المكان والزمان " للحدث، والحدث لابد أن يكون من متحرك ينفعل بالحدث، إذن هناك ثلاثة أشياء: متحرك، وحركة الحركة تقتضي زمنـا ومكانا..

لو نظرنا إلى الوجود كله لوجدنا الـزمن عنـدنا في تقـسيمه العـام ينقـسم انقساما بينا بآيتي الليل النهار ثم يقسم الليل إلى جزئيات والنهـار إلى جزئيـات

إلا أن جزئيات النهار يجمعها قاسم مشترك وهو الضوء وجزئيات الليل يجمعها قاسم مشترك هو الظلمة. فالظلمة تجمد الحركة ويصحبها السكون، إذن فالمتحرك لابد له من زمان ولابد له من مكان والزمان يقسم إلى قسمين قسم يتحرك فيه الإنسان وقسم يرتاح فيه الإنسان من الحركة.

ولذلك جعله الله سكنا ولا سكن لابد أن يكون عن تحرك الليل والنهار حركة، كأننا نسكن في الليل الذي جعله الله سكنا ليمكننا استقبال النهار بالحركة فما لم نسكن لا نستطيع ا، نتحرك، إذن فالسكون له مهمتان مهمة تربح من تعب حركة اليوم ومهمة تعين على حركة الغد، فالذي يتعب نهارا ولا يسكن ليلا لا يستطيع أن يعمل بعد ذلك عملا.

ونظرا لأن الزمن انقسم هذين القسمين والله سبحانه هو خالق الإنسان وخلق له الزمان والمكان:

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص:٧٣).

مهمة الرجل ومهمة المرأة:

إذن الليل للسكن والنهار للابتغاء. ولكن هل خرج الليل عن كونه ظرف زمان وهل خرج النهار عن كونه ظرف زمان؟

إذن فهنا زمان انقسم إلى ظرفين زمانيين الليل والنهار وكل قسم له مهمته، إن حاولت أن تدخل ظرفا في وظيفة الظرف الآخر تكون قد أفسدت نظام التكوين الزمني.. فحينما يقول الحق سبحانه ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [١] وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ (الليل:١/ ٢)، يغشى أي يغطي الكون والناس تسكن فيه والنهار إذا تجلى أي اتضح ووضح، الناس على بينة بأشيائها يسيحون في

الأرض ويضربون فيها يأتي بعد ذلك بالمتحرك ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى [٣] إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (الليل:١/ ٢)، يعني لكل واحد مجال في سعيه.

" يعني يا ذكر لك مهمة ويا أنثى لك مهمة ".

"فإياك يا رجل أن تأخذ مهمة المرأة وإياك يا امرأة أن تأخذي مهمة الرجل".

وبينكما قدر مشترك وهذا القدر المشترك هو أن كلا منكما إنسان مفكر، وإنسان مفكر أي له عقل يقارن فيه بين البديلات ولكن لك أيها الرجل عقل يخاير بين بديلات في مجالك وللمرأة عقل يخاير بين بديلاتها في منطقتها، فإذا حاولت المرأة أن تأخذ خيار بديلاته أو الجل حاول أن يأخذ خيار بديلات المرأة تقول له أنها ستقف أمامه بنية الأشياء التكوينية ومعنى بنية الأشياء التكوينية.. الطبيعة التي خلقت عليها.

مهمة المرأة:

فهل المرأة أخذت عمل الرجل ولا رجل أخذ عمل المرأة؟ فالمرأة لها مهمة هي الحمل والرضاعة ، فهل للرجل أن يعمل عمل المرأة؟ فالبنية تقف أمامه ، فإذا تساوت المرأة بالرجل وإذا تساوى الرجل والمرأة ظلت مسائل بطبيعة تكوينها منوطة بها.. إذن أأنت صعبتها على المرأة أم خففتها عنها وأيضا فإذا ما أردنا أن تلحظ العملية التكوينية.. ند أن الرجل يمتاز بالصرامة.. ومعنى الصرامة أن طاقة العقل تتحكم في تصرفاته ، وطاقة العاطفة تكاد تكون على قدرها فيه..

والمرأة تتعرض لمسائل تتطلب العاطفة قبل العقل ، والرجل يتعرض لمهمة تتطلب العقل قبل العاطفة ونلاحظها نحن في حياتنا اليومية

ونجدها.الرجل المتعب حين يرتاح ليلة وله طفل يتألم ويبكي فماذا يكون موقف الرجل من المرأة حين يسمع طفله يبكي؟ لا يرى إلا أن طفله يفسد عليه نومه ويعكر عليه راحته وربما أطلق ألفاظا يسب بها الابن والأم ويقول لها: اسكتي هذا الولد لأني أريد أن أرتاح. ذلك هو منطق العقل لأنه يريد أن يستيقظ ليذهب إلى عمله وماذا بالنسبة للمرأة؟

إن منطق العاطفة يجعل هناك افتراقا.

الرجل يريد أن تخرس الطفل والأم تذهب تهدهد عليه وترعى ألمه وتبعده عن أبليه لأنها لا تستطيع أن تقنع الولد بألا يبكي ، لأنها لا تعلم ما الذي يبكيه. فالطفل يريد قسطا من العاطفة. هذه العاطفة تصطدم مع قضية العقل ، وقد يأتي الولد الصغير ويجلس وبعد ذلك تقضي ظروفه أن يقضي حاجته أثناء الطعام ماذا يكون الموقف؟ أن يسب الأب ويشتم وتأخذ الأم ابنها بعيدا عن الطعام وتمسح بيدها.

إذن فطاقة العاطفة مطلوبة عند المرأة.

وطاقة العقل مطلوبة عند الرجل..

لأنه يريد أن ينتفع بهما في ميادين الحياة.

إذن فللمرأة مهمة وللرجل مهمة ولذلك لا يصلح الرجل أن يتسلم الطفل في ذلك الوقت ، ولكن الأم هي التي تأخذه ولذلك قلنا إنه يجب أن يفهم الناس حقيقة ، حديث رسول الله ﷺ في قوله " خلقت المرأة من ضلع أعوج " لأن مهمتها حنانية فشبه بالضلع المعوج ولكن اعوجاه صالحا لمهمته.

حديث رسول الله ﷺ في قوله: خلقت المرأة من ضِلع أعوج لا يعتبر سبا لها.. بل هو مناسب لمهمتها التي خلقت من أجلها.. وهي مهمة حنانية.

لو كان هذا الضلع معتدلا لا يصلح لمهمته لأن الله جعله هكذا ليصون القفص الصدري للقلب والرئتين. إذن فعوجه ليؤدي مهمته.

الناس تفهم أن قوله " المرأة خلقت من ضلع أعوج " يعتبر سبا لها! نقول: لا..

هذا مناسب لمهمتها التي خلقت من أجلها لأن مهمتها حنانية لأنها حملت الابن في بطنها وتحاول أن تحتاط في كل حركة من حركتها ، تحاول أن تكون بعيدة عن كل ما يؤثر في بطنها ، في حركتها. كل ذلك مناسب لمهمتها ، فإذا ما أردنا أن نأخذ عملها في تكوين النشء وجدتها أتعب من الرجل وأشقى من الرجل ، لأنها تتعامل مع من لا يفهم ، تتعامل مع من لا يستطيع أن يبين موضع ألآمه وتلك مهمة صعبة وأطول مهمة في حياة طفولة الأشياء ، أن الذي يحاول أن يجعل مهمة أخرى للمرأة يكون قاسيا عليها.

لأن مهمتها الأصلية إن أرادت أن تكون مخلصة لها وأمينة عليها تحتاج منها ضعف الوقت الذي تعيشه.

وقلنا إن الإنصاف يجب أن يظهر أن المرأة تتعامل مع الطفل.

والإنسان في طفولته يعتبر المثل الأعلى في طفوليات الكائن الحي ، الأشياء تختلف في طفولياتها، شيء طفولته مدة ساعة ، وآخر يوم ، وآخر أسبوع ، وآخر عامان ، ومع ذلك نجد الإنسان – لأنه السيد للكائنات – طفولته تتناسب مع سيادته.

ولذلك تحدد الطفولة في عرف الإسلام بمرحلة البلوغ.

ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ ﴾ (النور:٥٩).

إذن الحد الذي يخرجني من الطفولة هو أن أبلغ الحلم وأصير رشيدا

عندي القدرة على أن أنجب مثلي..

إذن لا يخرج عن الطفولة إلا عندما تكون عنده القدرة على أن يجب مثله.

إذن فمن ولادته إلى أن يبلغ هو طفل.

تلك الطفولة في حاجة إلى حاضن ، هذا الحاضن إذا نظرنا إليه وجدناه في الأب والأم ، حضانة الأب في الخارج ، وحضانة الأم في الداخل.

وإذا نظرنا إلى القيم التي تسيطر على الإنسان عندما يكون شابا وفتيا نجد كل هذه الأشياء تكون عندما تتفتح عنده وسائل الإدراك ، لا تقل إنها تتكون بعد سنة ، إنها تتكون بمجرد أن يدرك ، تبدأ قضية التعلم التي هي من القضايا الكونية التي يمارسها وهو طفل ، إياك أن تفهم أن التعليم هذا لمجرد السن المؤخرة. التعليم معناه أن يوجد سمع ، ويوجد إدراك ، بمجرد أن يوجد بصر، ويوجد إدراك ، بمجرد أن تأتي خميرة من المدركات الحسية ، وتتكون المكونات العقلية.

إذن فكل من يسمع فهو ناطق ومدرك ، وما دام هكذا فعند وجود السمع في الطفل فإنه يتعلم ولكن لماذا طالت طفولته؟

لأن مهمته عالية تتطلب طفولة واسعة لأنه سيتعرض لقضايا كثيرة مجدا تتلاءم ورسالته في الحياة لأنه هو السيد وهو المهيمن على هذه الأشياء وهو الخليفة.. خليفة الله في الأرض ، إذن لابد أن يعد الأعداد المناسب.. ومن هنا فإن طول طفولته يتناسب مع مهمته " الأم هي سيدة هذا الفضل. ومن الممكن أن تأتي له بحاضنة تصنع له أشياء.

" ولكن لا يمكن أن تضع في قلب الحاضنة قلب الأم.. "

قلب الأم له وظيفة أخرى ، وأيضا فإن المحاضن التي صنعوها في الخارج وجاءوا بأطفال كثيرين وتشرف عليهم حاضنة. لم تؤد إلا إلى ما قرأناه في كتاب " أطفال بلا أسر " لأن الطفل تأتي عليه فترة من الفترات يريد أن يكون له راع وحده ، ومعتن به وحده ، بدليل أننا عندما نجد طفلا وولد على رأسه طفل آخر ، نجد ماذا يحدث؟ لو أن الأم نظرت إلى هذا نظرة دون الآخر يحزن ! فما بالك بحاضنة عشرة أو عشرين أو الخ؟

طاقة وزعتها من العطف على أبناء.. بقلب غير قلب الأم فماذا يكون الموقف؟ فالمرأة التي إذا أردنا أن تصل بمهمتها على ما طلب منها يضيق وقتها به ومن الممكن أن تكون المرأة هي كل شيء في الوجود إذا أرادت أن تخلص لمهمتها.

المرأة حين تأخذ مجهد الرجل وتحاول أن تديره إدارة يتسع إلى مطلوبات الحياة ، وتستطيع أن تنمية وتستطيع أن تتعلم صنعة تكسب منها ويصرف كسبها على أشياء في غير طائلها.

كان المغزل وشغل المرأة وإذا نظرت إلى المغزل وجدته يقوم مقام آلة النسيج ومقام آلة الخياطة حتى أنها كانت تقوم بعمل نسيج لزوجها. فإذا كانت المرأة راغبة في زيادة العمل وزيادة الجهد تستطيع أن تصنع. أو أن تكون وزيرة صحة أو وزيرة مالية. تستطيع أن تكون قاضية تقضي بين الأولاد في بيتها ، والإسلام حين طلب من المرأة أن تتفرغ لهذه المهمة أعطاها الطاقة الحنانية التي ترتفع لهذه المهمة.

ويجب ألا نعزل قضايا الإسلام بعضها عن بعض.

يقولون لك: إن حاجة المرأة في الوقت الحاضر تتطلب الخروج إلى العمل.

نقول له: قل حاجة الإسلام. لأنك غيبت قضية من قضايا الإسلام.

تقضي بأن المرأة مطلوب رعايتها من أبيها إن كان موجودا.. مطلوب رعايتها من أخوتها ، مطلوبة من عصبها.. مطلوبة من أعمامها.. مطلوبة من زوجها..

إذن فحين تأخذ قضية الإسلام فلا تعزل قضية المرأة عن قضايا الإسلام فإذا لم تجد المرأة واحدا من هؤلاء أو هم موجودون ولكنهم عجزة.. الإسلام لم يمنع المرأة أن تضرب في الأرض الضرب المناسب لمهمتها وتحتفظ أيضا بكونها امرأة.

ولهن في بنات شعيب.. أسوة حسنة:

وإن قصة بنات شعيب في القرآن هي القضية التي إذا قرأتها بتدبر وجدتها لم تترك عنصرا من عناصر حياة المرأة إن احتاجت للعمل إلا وجاءت بها ، مما يدل على أن القرآن الكريم لا يعرض القصص لقتل الوقت أو الزمن أو الترفيه إنما يعرض القصص لالتقاط العبرة منه فيأتي القرآن ليحدد.. الضرورة.. ويأتي بقضايا الإسلام مع بعضها.. وقضايا الإسلام أن الرجل مسئول عن بناته والإخوة مسئولون عن أخواتهم والرجل مسئول عن امرأته وأمه.

إذن فالإسلام إذا أخذناه جملة واحدة لا تجد فجوة يخرج منها واحد. فإذا احتاجت المرأة وكان المجتمع الإسلامي خاليا من المروءة؟ ضرب الله مثلا في قصة موسى:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ (القصص:٢٣).

معنى تذودان تمنعان عن الذهاب إلى عين الماء ، إذ كانتا تمنعان

الماشية أن تذهب إلى عين الماء لترد..

ما الذي جعلهما يذهبان للعين؟ شيء ملفت للنظر.. إذن فقول موسى عليه السلام للفتاتين: ما خطبكما؟ كلام طبيعي لأنه رأى فتاتين تذهبان إلى مكان العين، ومع ذلك يمنعان الماشية من أن ترد العين !!

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (القصص:٢٣).

قالتا لا نسقي إذا كان هناك جمع، وحكى عنه قول يصير القول الواحد يأتي من الجمع، كيف؟ إذن من الذي قال.. الاثنتان.. إن كانتا قد اتفقنا في هذا المنطق وقالت الاثنتان في نفس واحد ذلك على أنها قضية مدروسة وليست قضية ارتجالية (قالتا).. الاثنتان وكأنه عندما قال ما خطبكما، جاء الجواب، منهما معا فإن كان الجواب قد جاء منهما معا دليل على أنه جواب مدروس..

إذن هي قضية لم تفاجأ بها.. أو أن واحدة قالت والثانية سكتت.. وإن سكتت الثانية. فمعنى ذلك أن رأيها هو رأي الأولى ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء ﴾ كان فيه رجالا كانوا يسقون أيضا.

وأبونا شيخ كبير أي أن الأب المسئول عن الرعاية عاجز عن الحركة والكسب وتلك هي الضرورة.

فلو أن الضرورة كانت تبيح للمرأة أن تخرج مختلطة بالرجل لكان مبررا أن تختلط به عند الماء.. لا.. المرأة أخذت الضرورة خرجتا لأن أباهما شيخ كبير..

القضية بحيثيتها ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء ﴾ معناها أنهما أخذتا الضرورة بقدرها بدون تزويد..

صحيح أننا خرجنا لأن أبانا شيخ كبير، ولكن ليس معنى ذلك أن

نحتك مع الرعاة. بل سنترك أمر الرعاة حتى ينتهوا وبعد ذلك نخرج في فراغ.

إذن فهما خرجتا في إطار الحجاب أيضا.

إذن فإن أبانا شيخ كبير " حيثية الضرورة ، الضرورة بقدرها لم تزد ماذا يكون مهمة المجتمع الإيماني؟ ﴿ فسقى لهما ﴾ لتكون مهمة المجتمع هنا عندما يرى امرأة أخرجتها الضرورة لمجال ، عليه أن يؤدي لها العمل لتعود إلى مكانها الطبيعي.. تلك المهمة هي المهمة الإيمانية.

إذن الإسلام يعرض القضية لنستنبط منها الضرورة ومجالات الضرورة حتى لا نأخذ الضرورة بتزايداتها ونضيف عليها إضافات ليست من مجال الضرورة.

كون القرآن يعطينا القصة من موسى في قوله: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ يعني موسى لأن الحق بعلمه الواسع علم أن أتباع موسى هم الذين سيصنعون للمرأة حدود الانطلاق عندهم ليكن أسوة لحدود الانطلاق عند غيرهن ، فجاءت من موسى وكأننا نرى أن ما يفد إلينا من صناعات اليهود فيما فعلنه من تأليب المرأة على منهج الإسلام نقول لهم: نبيكم هو الذي (سقى لهما) ومعنى سقى لهما أن السقي لم يكن مهمتهما..

وبعد ذلك نجد أن المرأة من كرامتها أن تنهي هذه المهمة ، لم يجعل الله في القرآن نهاية القصة على يد رجل ولا على يد موسى ولا على يد شعيب (والد المرأتين) وإنما جاء بها عن طريق المرأتين ، فكأن المرأة الكريمة على نفسها ، الحريصة على وضعها العرضي والأدبي في أي مجتمع تحاول جاهدة أن تخرج من الضرورة عندما تجد بصيصا من الأمل يخرجها عن الضرورة ، نجدها في لقطة من الآية عندما يقول الحق ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ (القصص:٢٦). لو أن المرأة حلالها أن تخرج من مكانها الطبيعي إلى الخروج لما

نبهت إياها إلى أن يستأجر الرجل ليسقى لهما.. أي يمنعها من الـضرورة التـي أخرجتهما.

إذن المـرأة الواعيـة هـي التـي تعـشق مهمـة التـستر.. تعـشق مهمـة الاحتجاب ، لأن الحجاب فيه كرامة المرأة..

***

النظم السياسية والإسلام:

ثالثة الأثافي:

ثم انتقلنا إلى قضية أساسية وهي معنية في الكتاب الذي بثالثة الأثافي ، ثالثة الأثافي ، هي أن الأثفية الثانية جاءت للمرأة على العموم وقضاياها المتعددة ، وكلمة ثالثة الأثافي شاعت على كثير من الأسنة الناس في كثير من التعبيرات يعبرون بها عن الشيء الفظيع فكأن ما قبله قد يحتمل وما بعده لا يحتمل والأثافي جمع أثفية، وأثفية هي الحجر الذي يوضع تحت القدر ليسنده ، القدر حين يوضع يحتاج إلى ثلاثة أحجار: حجر على اليمين وحجر على الشمال وحجر خلف القدر ، عادة لا نضع شيئا في الأمام لأننا نريد أن نضع الوقود ، يكون هناك ثلاثة أحجار. فكان الناس قديما حين يضعون القدور يكتفون باثنتين فقط ، أثفية على اليمين وأثفية على اليسار ثم يكتفي عن الأثفية الثالثة بالجبل.. يأتي بواحدة يمينا وواحدة شمالا ويسندها إلى الجبل.. فالجبل يكون ثالثة الأثافي ، انظر إلى الجبل بالنسبة إلى الحجر الموضوع يمينا والحجر الموضوع يسارا هذا كاف لها ، لأن الجبل ضخم قوي. ثالثة الأثافي يعني الداهية العظيمة.

ظاهرة تعدد الفرق الإسلامية:

وثالثة الأثافي لأنهم قالوا: يجب أن تستغلوا ظاهرة إسلامية ، هذه الظاهرة الإسلامية تنقض قضية فيها من أساسها لأن الإسلام لم يعد يجمع بل آل أن يكون مفرقا فاستغلوا هذه الظاهرة في الإسلام ، الإسلام في الأول جاء ليجمع. الإسلام ألآن في بلاد المسلمين وجد ليفرق. وآثار ذلك ظاهرة فغي كل بلاد الإسلام. فالمذاهب والطوائف الحمقى والفئات التي اتخذت من

دين الله ألوانا. كل طائفة أخذت لونا تعصبت له ولم تـر الإسـلام إلا فيـه ، بـل ربما تنزل بها الأمر أن تكفر المذاهب الأخرى. تلك قضية جعلـت الإسـلام، وسـيلة تفريـق لا وسـيلة تجميـع. انظـروا كيـف أنهـم أعـدوا لـذلك الأمـر بالأساطين من أساتذة التبشير وفطاحل رجـال الكهنـوت والمتمرسـين بـأمر الدعوة والتبشير وعلماء الجامعات في علوم الاجتماع والسلالات والأنـساب البشرية والمهتمين بشئون العالم والدارسين له والواقفين على حقيقـة تكوينـه ، لا شك أنهم رأوا للإسلام مذاهب وطرقـا وطوائـف ، وكـل مـذهب يـرى أن مذهبه هو الأحق أن ينسب إليه الإسلام أو ينسب إلى الإسلام ويكفر الطوائف الأخرى ، وعلى هذا يصبح الإسلام لا مبدأ تجميع للناس ولكنـه يـصبح مبـدأ تفريق. استغلوا هذه المسألة وقالوا لهم: أي إسلام هؤلاء صحيح؟ فـإن كـان الإسلام صحيحا في مذهب فالمذاهب الأخرى باطلـة. وإن كـان صـحيحا في طائفة فالطوائف الأخـرى باطلـة ، إذن فيجـب أن تـدخلوا مـن بـاب تمزيـق الإسلام بالمذهبية والطائفية ، إلى أن الإسلام ليس هو الإسلام وأنـه إن وافقـه واحد فقد خالفه كثير من هؤلاء.

انظروا كيف درسوا قـضية الإسـلام ، وانظـروا كيـف مهـد المـسلمون يجعل دينهم فرقا وقدموه إلى أعدائه ليدخلوا من هذا الباب.

وصدق الله إذ يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:١٥٩).

هذه الظاهرة إنما نشأت لأي شيء؟ لخطأ المسلمين ي فهـم كثيـر مـن قضايا الدين الأساسية.. التي جاءت من عد الله.. والله حق.. والله حكـيم.. لا يمكن أن يأتي شيء إلا وفيه مصلحة للخلق.. ولا يمكن أن يعمل لمبدأ يفـرق الخلق.. أن يتسلل إلى منهجه ، لأنـه حـق ولأنـه حكـيم وكثيـر مـن المبـادئ

الوضعية لها ظاهرة تذوق ودافع يجذب.

فمثلا الشيوعية لها لون يجذب وبالتطبيق يظهر اللون الذي لا يجذب الرأسمالية لها لون يجذب وبالتطبيق يظهر اللون المنفر.

إذن كل ناحية من نواحي التفكير البشري لا يمكن أن تدخل على العالم لتغزوه بقبح إجماعي، بل لابد أن تدخل عليه بلون جمالي مزخرف وإن سترت في طيها أشياء، إذن فكل أمر يهتدي إليه الفكر لابد أن يكون له ناحية جمال تغري ويستطيع الإنسان أن يقدمها بين يدي الخلق، مثلا في النظام السياسي يوجد شيء أسمه ديكتاتورية ويوجد مقابل لها على النقيض " ديمقراطية ".

اعذروني في استعمال هاتين اللفظتين الوافدتين على اللغة والوافدتين على بيئة الإسلام لأننا أخذنا كل حضارتنا مستوردة من الخارج، النظام الديكتاتوري حيث يجيء لابد أن تكون فيه فكرة تريح الناس، لكي يتغلغل. وبعد ذلك يجيء في طي الأشياء أنه ديكتاتوري، الديكتاتوري يقول لو أن كل أمر أردنا أن نصلح به، وأردنا أن نأخذ رأي الناس لما التقينا على شيء ولذلك جاءت المقولة: لا ينفع الشرق إلا مستبد عادل، ماذا يعني بمستبد عادل؟ مستبد: لا أحد يستطيع أن يقول له لماذا فعلت هذه؟ ويكون عادلا لكي لا يترك أي شيء له حق.. لماذا؟ حتى يخرج من غوغائية النقاش وجماهيرية الاستفتاء. إذن الديكتاتورية لها لون قد يصيب في أن الأمور يبت فيها بسرعة وبحزم. ولا تدخل فيها الغوغائية ولكن من يضمن لنا أن الذي يفعل ذلك ينفذ كل الأمور على وجهها الصحيح، ولا يأتي إلا بقضايا عدل وقضايا حق؟ إذن ذروة الشر تأتي من الناحية الأخرى يكون هناك ملامح خير وملامح شر.

والديمقراطية.. الناس تفطن لما تفعله وأمرها يطول، هذا يأخذ وذاك يجيء وتكون عملية كبيرة حتى نعمل قرارا فتؤجل كثيرا من أعمال

الإصلاح. ولكنها فيها ملمح جمالي وملامح قيمة. إذن هذه فيها كذا وهذه فيها كذا، مثل الشيوعية فيها ناحية حسن والرأسمالية فيها ناحية حسن ولكن الرأسمالية فيها ناحية الحاكم. الاشتراكية فيها ناحية الاستقرار الاقتصادي المادي. إذن لا يوجد أي نظام على الجماهير إلا إذا كانت فيه ناحية جمالية..

وكان المفروض طالما أن، العصر عصر التقاء أن نلتقي في مثل هذه المسائل لا إلى تجربة قضايا متقابلة أو متقاربة. لماذا إذن هذا يكون له أنصار وهذا يكون له أنصار؟

لو نظرت إلى دين الله لوجدته قد أخذ جوانب الحسن في الديكتاتورية وترك ملامح القبح فيها. وأخذ الحسن في جوانب الديمقراطية وترك ملامح الشر فيها فأعطانا الأمرين بفائدة وبعدالة، فالأمور التي يجب أن يبت فيها بحزم ولا تترك لأهواء البشر لها مجال شرعها الله تشريعا ولا يجعل لأحد عليها استفتاء أبدا.

ومن هنا حينما نصل إلى القضية التي يريد أن يستغلها خصوم الإسلام ليدخلوا منها إلى تشكيك المسلمين في دينهم وإيمانهم.. هذه القضية هي أنهم يقولون إن الإسلام لم يعد أداة تجميع. بل أصبح في بلاد المسلمين وسيلة تفريق، فكل مذهب يكفر المذاهب الأخرى، وكل طائفة تكفر الطائفة الأخرى.

وهكذا أصبح الإسلام طوائف متعددة ومذاهب متباينة لا تعيش في التآلف والتناصر. ولكن تعيش في فلك الجدل والتناحر.

وللرد على هؤلاء نقول:

إن خصوم الإسلام يريدون أن يدخلوا إلى المسلمين من هذه الزاوية

فنقول إن العلماء الإسلاميين أو الجمهرة الإسلامية يجب أن تنتبه إلى أمر مقصود للمشرع أعلى.

هذا الأمر هو أن كل أمر من أمور الحياة فيها أمور يجب البت فيها بحسم وعزم وعدم تردد.وأمور أخرى من الممكن أن تؤدي نواحي الخير على أي لون من الألوان. فالحركة الحياتية محكومة بأمرين: أمر ضروري أن يوجد سريعا مبتوتا بحزم.. وأمور تأتي هينة ، ومن الممكن أن تأتي على الناس باختياراتهم لتخلق لهم مبدأ الذاتية في الاختيار ، ولا تكبت أدوات الاختيار في نفوسهم... " وهو العقل.. أداة الاختيار بين البديلات ليشعر الإنسان أن له رأيا فيما يطمئن عليه.

وقلنا إننا إذا نظرنا إلى المبادئ الوضعية في البشر وجدنا نظامين:

النظام الأول يسمونه " ديكتاتوري "

ونظام يسمونه "ديمقراطي ".

و "الديكتاتوري " ظاهرته الأساسية الاستبداد في أخذ القرار بدون مشورة أحد.

والديمقراطي الأمر فيه يأتي من أسف ثم يترقى إلى أن يصير مبتوتا فيه. وكل مبدأ من مبادئ البشر، ولو كان وضعيا يستغل وجوده بإبراز ناحية الجمال فيه. ثم يستر وراءه ما يريده من نواح أخرى " فالديكتاتورية " تستغل هذا.

إننا لو أخذنا آراء الناس في كل قضية لتأجل كثير من القضايا ودخل الجدال وخل التناحر كل شيء. فلابد من أشياء تظهر ناحية الجمال فيها و ولكنها تستر في داخليها ناحية أخرى من نواحي الشر ، تدس فيها نواحي أخرى من النواحي التي تكن حيثية وجود الديكتاتورية.

والديمقراطية لم تخل من ناحية الجمال فيها.

ومن العجيب كما قلنا أننا نجد المبدأين موجودين في زمان تكاد تكون الفرصة فيه واحدة وتكاد الإمكانية فيه تكون واحدة ، وتكاد الروح السائدة أن تكون واحدة وتكاد الالتقاءات أن تكون واحدة.

نقول إذن في كل.. ناحية من نواحي الجمال. ولكن هذه الناحية لا تقتصر على ناحية الجمال بل تدس في ثنائها كثيرا من ملامح تناوئ الإسلام.

ولو نظرنا إليه كدين من الحق الحكيم وجدناه محتملا للنظريتين ، فالأمور التي يراد البت فيها بتا.ويحزم الأمر فيها حزما وحسما يذهب إلى حزم الدكتاتورية. بحيث لا رأي لأحد فيها.

ويظهر ذلك بوضوح في قول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٣٦).

حكم مبتوت فيه.. أنه إذا قضى الله ورسوله وحكم في أمر.. فلا راد لحكمه ولا جدال بعد حكم الله و " لا معقب لحكمه ".

وهناك أمور تركها الله للنفس الإنسانية التي تتميز بالعقل ، والعقل الذي مظهره الاختيار بين البديلات.. ترك لها مجالا لتنمي فيه هذه الملكة وليكون الأمر بما ينتهي غليه هذه العقول المفكرة.

فيكون الإسلام قد جمع بين الميزتين:

ميزة الحكم والبت في الأمور التي لا يريد أن يؤرجحها أو يجعلها متراخية حتى تكون بينة.

وأمور تركها لأنها إن جاءت على أي وجه من الوجوه فلا يحصل منها حذر.

في القضية الأولى يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ (المؤمنون:٧١).

وفي القضية الثانية يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء:٧٣) ويقول الله تعالى:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ولذلك فإن المشرع " محمدا ﷺ " يقول له ربه إن كان الأمر قد نزل به حكم من السماء ، فلا رأي لنا نحن البشر فيه. لأن السماء لها علم ليس لنا ، وإن لم يكن نزل فيه أمر من السماء كالمكيدة في الحرب. " ونشير عليكم بكذا وكذا ". هذا يمثل الرأي لحالي وهذا يمثل الرأي المستنبط. ونم أراد دينا أو مذهبا يحقق ألأمرين معا يجده في الدين الإسلامي.

ويمتاز الإسلام بأن الديكتاتورية فيه ليست من مساو. يعني ليس الديكتاتور من جنسك لأني أنا وأنت نحكم بإله آمنا جميعا به وأنه إله فوقنا قدرة وحكمة.

إذن بالإسلام يعطيني ميزة الديكتاتورية بدون جبروت الديكتاتورية واستعلائها وإذلالها.

وأيضا لم يحرمني من ملامح الحسن في الديمقراطية وحق الرأي والمشورة وحق الاختيار بين البديلات وهكذا يجب أن ينظر علماء المسلمين إلى قضايا الإسلام.. فلا تجعل الأمور التي زحزحها الله عن مجال الحكم الحازم والبت الذي لا اختيار لنا فيه ، لا ينقل هذا إلى المسائل التي ترك الله فيها للمسلمين المشورة .

يقول الله تعالى:

﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (آل عمران:١٠٣).

إذن فالمسلمون الآن هم الذين فتحوا الباب وجعلوا الملحدين يجدون منافذ يدخلون بها علينا ليهدموا لنا قضية إيماننا وإسلامنا.

كلامنا الآن ليس مع هؤلاء الذين يريدون بنا الكيد ، ولكن مع القوم الذين فتحوا الأبواب والمجال لهؤلاء ليدخلوا.. نقول لهم: راجعوا فهم دينكم من جديد ، واعلموا أن القضايا التي بت الله فيها وحكمها قضايا لو ترك الله فيها أمر الاجتهاد واختيار لفسدت السموات والأرض.

وأمور ترك الله لنا فيها الاختيار ، لنا على أي لون لن نجتمع إلا على خير.

آية الوضوء بين الدكتاتورية والديمقراطية:

وضربنا كثيرا من الأمثال لهذه المشاكل في قضية واحدة مجتمعة. لم نأت بشيء من قضية على شيء من قضية أخرى يعني لم نلفق القضايا بعضها ببعض ولكن نبحث في قضية واحدة ونتأمل في حياة المشرع من منطقة المشرع الأعلى في آية واحدة. وفي حياة المشرع الثاني عن الله وهو رسول الله ﷺ " فتلك نص وهذه تطبيق ".

نقول لهم تعالوا: انظروا إلى قول الحق سبحانه وتعالى في هذه القضية التي هي قضية واحدة.

فمثلا قضية الدخول إلى الصلاة فإذا أردنا أن ندخل إلى الصلاة فلابد أن نتوجه للوضوء أولا ، فآية الوضوء فيها المثل كله. يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ ﴾ (المائدة:٦).

فلو فطنوا إلى التعميم في الوجوه وعدم التقييد فيها وإلى التقييد في الأيدي في قوله إلى المرافق إذن لأراحوا واستراحوا وعلموا منهج الله كما يريده الله. الوجوه لم يحددها الله ﴿ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أطلق غسل الوجه دون تحديد أو تقييد لن الوجوه لا اختلاف فيها عند العرب في مفهومها فالوجه مفهوم بالإجماع.

ولكن الأيدي يقع فيها خلاف مرة تطلق ويراد بها الكف ومرة تطلق ويراد بها الأنامل إلى المرفق ، وهذه إطلاقات تطلق على يد فلو أن الله سبحانه جلت قدرته ترك التقييد في اليد إلى المرافق لكان لمجتهد أن يقول هي الكف. ولمجتهد أن يحدد حسب اجتهاده ، وهذا يمكن لو أن الأمر ترك للاجتهاد ولكننا نقول: لا اجتهاد في ذلك لأن الله يريدها على وجهه محدد وما دام يريدها على وجه محدد فيكون مددا في الآية.

والوجه غير محدد.

إذن تحديد الأيدي دليل على أن هذا القدر هو المراد للشرع ، وبذلك حسم الأمر حسما لا مجال فيه للخلاف.

ثم قال بعد ذلك ﴿ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ ﴾ لم يقل امسحوا رءوسكم كما قال اغسلوا وجوهكم هذا غسل صحيح ، وذلك مسح ، وهذا غسل يفيض عليه بالماء وهذا مسح لا يفيض عليه بالماء ".

فمن هنا الأمر أن فيهما خلاف: أمر بالغسل لابد فيه من جريان الماء على العضو أما المسح فيكفي فيه وضع اليد مبتلة على الرأس.

المهم أن نعرف قدر المسموح لو كان الله يريد أن يحدد قدر الممسوح لقال: وامسحوا بعض رءوسكم أو كل رءوسكم أو ربع رءوسكم مثلما حدد غسل اليدين إلى المرافق ولم يجعلها من باب اغسلوا وجوهكم، ولكن جاء فيها بالباء فالباء في اللغة لها إطلاقات متعددة تحتمل وجوها كثيرة.

وما دام الله عدل عن الأسلوب الذي قاله في قوله: ﴿ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ ولم يقل امسحوا رءوسكم. بل قال برءوسكم والباء محتملة لمعان متعددة، لذلك قال قوم إن الباء معناها الاستعانة ولذلك قالوا بمسح الرأس كلها، قال قوم إن الباء للتبعيض والمسح لا يكون إلا باليد واليد هي الراحة الممسوح بها وهي قدر الربع.

إذن فكل مجتهد أخذ الحكم من معاني الباء كل ما يريده، الله لا يريد لونا خاصا يحكم به الأمر فإذا ذهب مجتهد إلى أنها لكل ومجتهد آخر إلى أنها الربع ومجتهد ثالث إلى أنها البعض، ولو شعرة. إذن فكل هذه الاجتهادات تفهم عن الله. وما دامت عن الله فيجب أن نحترم رأي كل مجتهد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ ﴾ (المائدة:٦).

نحترم رأي من قال البعض ونحترم رأي من قال ربع، لأن الباء احتملت رأي من قال الكل، ومن قال البعض، كل هذه الاحتمالات في نطاق الباء شائعة ولكن الآفة أن من يقول بهذا يحاول أن يجعل فهمه هو الأصوب.

يا أخي لو كانت المسألة يراد منها أصل لا متزحزح عنه، لكان صاحب التشريع أولى بأن يعدل هذا الأصل.

ولكنه حين لم يعدله احترم وجهة النظر، لأنها إن جاءت على أي وجه

فهي مقبولة عنده ، وما دامت مقبولة عن المشرع ، فليس لك أن تلزم المـشرع بفهمك أنت.

بعض الناس يرى أن اجتهاده هو الحق ، وإن اجتهـاد غيـره هـو الباطـل وأنه باجتهاده يمثل وجهة نظر الإسلام.

وهذا لا يمثل وجهة نظر الإسلام ومن هنا جاء الخلط والتخبط.

رسول الله ﷺ لم يدع المسألة في فهم نفهـم، ولكـن جـاء الـنص في واقـع عملي تطبيقي ، ليدلنا على أن أمر المشرع إن كـان محكمـاً ف مجـال لاجتهـاد أحـد. وإن كـان محـتملاً فالمـشرع نفـسه شـرع الاحتمـال ، ومـا دام شـرع الاحتمـال نـشاء عـن هـذا قـضية أصـولية الحـق واحـد صـادفه واحـد مـن المجتهدين وأخطأه الثاني ، الحق متعدد لكن في الحكم واحد.

****

الرد على شبهات الملاحدة على القرآن الكريم:

من مصلحة المسلمين لصالح إسلامهم أن يعرضوا على من يتولون تربيتهم وتنشئتهم الفكر المناهض للإسلام حتى لا يدعوا فرصة للفكر المهاجم أن يهاجم من خلفهم. لأنه إن هاجم من خلفهم، هاجم بشراسة وهاجم وليس مع أولادنا دليل نقده.

وقلنا إن هذه القضية نصنعها نحن في أمورنا المادية حين نتخوف على أبنائنا مرضا من الأمراض القاتلة. وقبل أن يأتي إليهم بشراسته، نأتي بالميكروب يستطيع بالدواء والرياضة أن يقف أمام هذا الداء.

وكثير من الناس يلتمسون أن يذكروا ذلك لأبنائهم وهم يحاولون بذلك إبعادهم وتلك ميزة أولى ولكن ليس من الممكن أن نحجب عن الناشئة الآثار التي يعلمون بها من وسائل متعددة.

فوسائل الإعلام ألآن، وسائل شتى ولم تعد تقتصر على أقوال الآباء وأقوال الأمهات ولا منهاج الدرس، بل هناك وسائل متعددة فإن احتطت ألا تجد هذا الوافد على آذان أبنائك الذين تقوم بتربيتهم فإنك لا تستطيع أن تمنع الوافد من سواك.

وقلنا إن ما تعرضت له الرسالة التي وصلتنا أيضا أنهم يقولون: إن القرآن الذي يرفعونه إلى مرتبة التقديس ،وأنه من الله الحكيم، وهم يقولون ليس من الإله في شيء، لأن الإله لا يمكن أن يتضارب قوله، والقرآن متضارب في كثير من آياته ،وعرضوا عشر آيات ظاهرها التضارب لأنهم يحرضونها بغير فهم اللغة العربية، وبغير رياضة العربي ذي الملكة الذي يفهم الأسلوب ويفهم مرادها فأول ما عرضوا عرضوا قضية قول الحق

سبحانه وتعالى ليشككوا في القرآن ذاته ، وهي: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الأنعام:١٦٤).

سفر البرهان في متناقضات القرآن:

فقالوا تلك قضية قرآنية ، والمخطوط الذي تعرض لمثل هذا اسمه (سفر البرهان في متناقضات القرآن).

فقالوا إن القرآن يقول ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ثم يشككون فيقولون إن محمدا قال في آية أخرى تناقض هذه الآية هي: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (العنكبوت:١٣).

فهؤلاء معذورون لأنهم لم يتمارسوا بفهم الأسلوب العربي.

أو هم فاهمون ولكنهم يحاولونه أن يخلوا على الناس براهين واهية ، لأنهم سيخاطبون ناشئة قد لا يكون عندها بصر بأساليب اللغة.

نقول لهم: لا تضارب لأن الإسلام دين ذاتي بمعنى أن الإنسان لا يعاقب إلا عن فعل فعله باختياره غير مكره عليه ، في زمن يكون التكليف فيه موجودا، ومعنى التكليف في بلوغ العاقل ، وله شروطه الخاصة مما يدل على احتياطات التشريع الإسلامي في قضية الجزاء أولا، لا يكلف إلا عند نضج عقله ، استكمال البنية الإسلامية في البلوغ.

والبلوغ له ظاهرة جنسية عارمة ، فربما لم تكن عندي حين تعاقدت على الإيمان ،وتبدأ في جسمي الأشياء تنضج ، والنضج في كل شيء هو أن يقدر الإنسان بذاتيته أو الكائن الحي بذاتيته ، هذا هو النضج.

ولذلك قلنا سابقا إن من رحمة الله بنا لأجل بقاء الأنواع التي تخدمنا أن الثمار التي نأكلها هي في أصل تكوينها لحماية البذرة التي تنبها الشجرة ، ولا

تنضج وتكون حلوة مشتهاة ولذيذة إلا إذا تم نضج البذرة فيها.

فأنت مثلا إذا شققت بطيخة إن وجدت بذرها أبيض تجدها غير حلوة ، لماذا؟

لأن البذرة التي تنضج منها لم تتم ، لكن إذا وجدت بذرتها سوداء دل ذلك على نضجها ،وأي شيء قد قطف لتأكله إن وجدت بذرته تنضج أصبحت حلوة في أكلها.

إذن حمى الله بقاء النوع بأن الثمرة لا تحلو لمقتطفيها إلا إذا نضجت كذلك الإنسان لا يمكن أن ينضج إلا إذا كانت عنده القدرة الذاتية على إبقاء نوعه (يعني البلوغ) فهذا هو أحد أنواع التكليف.

وأن يكون مختارا.. فإذا أكرهته قوة أقوى منه على الفعل يرفع عنه التكليف. انظر إلى الضمان الإسلامي لعدالة الجزاء.. وتكون أداة الاختيار عنده بين البديلات سليمة..ويكون عاقلا.

فما دام عند هذا الاختيار لأجل أن يرتب الجزاء يكون معناه أنه محل للعدالة.

وما دام محلا للعدالة ، فيكون من أول الأمر. إنني لم أحمله وزر سؤاله ، وألان يشترط فيه هو نفسه أشياء ولذاته لأجل أن أضمن له عدالة الجزاء. قال له الإسلام. لاحظ أن أعمال الإنسان في الوزر الذي نفعله صحيح ، ولكن الوزر الذي يفعله قد يظهر أنه فعله في غيره ، فالذي يضل بذاته من غير أن يتعدى ضلاله إلى الغير ولكنه حين يريد أن ينقل ضلاله إلى الغير ، ماذا علم؟

عمله أنه ضل ذاته ،وعمله الآخر أنه حاول إضلال غيره ، فحين يحاول إضلال غيره ، فهذا علم جديد في أنه فأفضل الغير.

هناك فرق بين وزر الضلال ووزر الإضلال.

إذن هم غير فاهمين ولذلك يقول الرسول صلى اله عليه وسلم (من سن سنة ، حسنة فله أجرها وأجر من علم بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من علم بها إلى يوم القيامة). لماذا؟

لأن معنى سن ، قدوة منظورة.. ومادامت قدوة منظورة في السيئة ، إذن هو الذي دفع بسلوكه غيره لفعل السيئة.

لو ذلك أمر الإسلام بستر بعض الجرائم في التشريع الإسلامي لن الإسلام حرم إشاعة الفاحشة لأننا لو أشعناها فتصير أسوة. فيواريها ويقول لك استر ، فأنت لا تقدر على كشف عيوب الناس.

أما الذي يتبجح في الجريمة فهذا شيء آخر.

إذن لا توجد الأسوة بالسيئة لأنها لو وجدت الأسوة. فمن الذي صنعها ،وجعل الناس متأسين بها. صاحب السيئة هون الذي أوجد القدوة السيئة.

فالمسألة منقوضة لأن هناك فرقا بين إضلال الغير ، وإضلال الإنسان نفسه ،

هذا هو البند الأول من كتاب " سفر البرهان في مناقضات القرآن".

وبعد ذلك يعرض قضية أخرى (عقوق الأبوين). وما هو العقوق الأبوي؟

يقول صاحب الكتاب إن القرآن يحض على أن يعامل الناس آباءهم معاملة قاسية ، كيف؟

فعرض آية: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ

اللَّــهَ وَرَسُــولَهُ وَلَــوْ كَــانُوا آبَــاءهُمْ أَوْ أَبْنَــاءهُمْ أَوْ إِخْــوَانَهُمْ أَوْ عَــشِيرَتَهُمْ ﴾ (المجادلة:٢٢). فقال هذا يمنـع الأولاد " ود " آبـائهم ، بينمـا يـأتي في آيـة أخـرى ويقول.. ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَـيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْـمٌ فَـلَا تُطِعْهُـمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ (لقمان:١٥).

فكيف يقول مرة ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَـنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ ﴾، وبعد ذلك يقول ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الـدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾.

والرد عليهم. وما ذنبنا نحن إذا كان الذي يـتكلم في أسـلوب القـرآن لا يفهم العربية. لا بطريقة الملكة ولا بإتقان الصنعة؟ !

نريد أن نعرف منك في لغتك ما هو الود أولاً، و ما هو المعروف ثانيا؟

الآيتان لم يردا على شيء واحد ، لم يأت الود في الآيتـين ، بـشيء واحـد ، وإنما جاءت كلمة الود في آية ، وكلمة المعروف في آية أخرى.

نفهم معنى كلمة المعروف.

لو أن الآيتين تواردتا عـلى لفـظ واحـد لكـان مـن الممكـن أن يقـال إن القرآن متناقض.

إنما الآيتان كل آية أتت بلفظ يخالف الآخر.

الأولى بلفظ الود ، والآية الثانية بلفظ المعروف.

فما هو الفارق بين الود والمعروف ، ابحث عنهما؟!!

• الـود حـب القلـب ، وحـب القلـب ، يـدعو إلى انجـذاب القلـب(الجسم).

• لكن المعروف ليس هو الحب. المعروف بذلك القال ، ولا معـروف تصنعه مع من تحب ومع من لا تحب.

• فالممنوع من الآباء أن يكون لك ود خـالص ، إذا كـانوا كـافرين ،ولا يمنع أن تكون صاحب معروف للب الكافر ومن الممكن أن تكحون صاحب معروف حتى على أعدائك إذن الممنوع هنا الود ، لأن الود عملية قلبية.

• والمأمور به هنا المعروف يكون مع من تحب ومع من لا تحب.

ولذلك الود القلبي يترتب عليه المعـروف ، لكـن المعـروف لا يترتـب عليه الود القلبي ، بدليل أن وقائع الإسلام كثيرة تدل على ذلك مثل قصة سـعد بن أبي وقاص مع أمه ، حينما أسلم ، حلفت أ/ ه أنها لا تأكـل ولا تـشرب ولا تغتسل ولا تقول من الشمس حتى يعود إلى الكفر.

فقال لقومه حينما شكوا إليه حالها: دعوها.. فإن أذاها القمل اغتسلت ، وإن عضها الجوع أكلت ،وأن أصابها الظمأ شربت. وقال لهـا: يـا أمـي لـو أن لك مائة روح ثم فاضت منك روحا روحا على أن أترك دين محمد مـا تركتـه ، كيف تغلب سعد على هذا الأمر ، ما الذي صنعه؟

إنه الإيمان.

الملحدون يقولون إن القرآن الذي يسمونه قـرآن محمـد سـيتعرض إلى قضية كونية ، ما كان أغناه أن يتعرض لها ، لأنها ليست مهمة في قضية الـدين ، ولكن شاءت إرادة الله ، وشاءت ربوبية المسيح – هكذا قالوا – أن يوقعه فيهـا حتى تكون حجة عليه.

وقالوا إن القرآن حين يتكلم عن خلق الـسموات والأرض يقـول إن الله خلقها في ستة أيام ، فكل آية من آيات الإجمال في القرآن تدل على أنه خلقهـا في

ستة أيام، هذا يعطينا أن خصوم الإسلام يدرسون الإسلام ، ويعملون له الإحصائيات التي يستطيعون بها أن يعلنوا أنهم لم يقولوا ذلك إلا عن دراسة ، ولينفذوا إلى أشياء ربما لم ينفذ إليها الكثير من المؤمنين بالقرآن ، لأن المؤمنين بالقرآن حين يقرأون القرآن بقداسة ،لأنه كلام الله ، والسماع للقرآن بقداسة على أنه كلام الله ، يسد منافذ النقد ، لأنه مؤمن أن كلام الله حق وصدق ، وهو فوق النقد.

• تمر على المسلم الآية وهو يقرأ فيقول إن لله مرادا فيها ، ولا داعي للبحث ، ولذلك فإن كثيرا من خصوم الإسلام هم الذين نبهوا المسلمين إلى جمال قضايا الإسلام ، لأن بحثهم عن هذه الأشياء مقصود لله ، ليقع الحاسدون من الكفار في عدم فهمها ، فيتصدى المؤمنون لرد علهم لتنويرهم وفي نفس الوقت يهتدي المؤمنون للرد عليها ، كما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضية طويت   أتاح لها لسان حسود

فالحسود هو الذي ينبه على الفضيلة أما غير الحسود فلا يتنبه لمثل هذه الأمور التي أثارها الملحدون ضد القرآن.

• إذن ما وقع فيه أهل الكفر والإلحاد من عدم الفهم لقضايا القرآن ، شاء الله ذلك ليمد أهل الإيمان بالردود القاطعة عليهم ، ومن هنا يبدو جمال القرآن.

يقول الملحدون عن الآية التي تتعلق بخلق الأرض، وآيات الإجمال في القرآن كلها تنص على أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام وهذا يبين لنا أنهم أحصوا واستقرأوا وفي القرآن آية قالوا عنها بلغة "فضحهم الله " إنها فضحت محمدا ، هذه الآية قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٩] وَجَعَلَ فِيهَا

رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ [١٠] ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [١١] فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ.. ﴾ (فصلت ٩، ١٢).

ووضعوا تحت كلمة (يومين) خطين ، وجعلوا تحت (أربعة أيام) أربعة خطوط.

وقالوا الذي لا يعرف القراءة ، فلينظر إلى الخطوط إذا جمعتها أربعة زائد اثنين فيكون المجموع ستة أيام.

وقد قضى السبع سموات في يومين فيكون مجموع الايام التي خلق فيها الأرض والسموات ثمانية.

إذن محمد سها عن أصل العدد. فلما جمعنا هذه الأيام في آية التفصيل وجدناها ثمانية أيام ،وكل آيات الإجمال تقول إنها ستة أيام.

فأي الآيات نصدق يا محمد؟

هذه من مزاعم الذين افتروا على محمد عليه الصلاة والسلام.

الرد عليهم:

نقول لهم إنكم لم تفهموا معطيات القرآن ، لأن القرآن نزل باللسان العربي الفصيح، لا أقول كل جملة لها مراد ومعان، بل أقول كل حرف، فالحس العربي في ذاته يستطيع أن يصل إلى المعلومة القرآنية التي جاء القرآن بلغتها، لأن العربي حين يقرأ القرآن بملكته يستطيع أن يضع اللفظ في مكانه المناسب وإن لم يكن منقوطا، لأن القرآن قبل ذلك غير منقوط، تستوي فيه نبرة الباء بنبرة النون بنبرة الياء بنبرة التاء، تقرأ على نبرات عديدة، ومع ذلك كان العربي بملكته يفرق بين النبرات.

إذن لو أننا جئنا بكتاب يجمع القرآن غير منقوط ثم عرضناه على غير متمرس باللغة العربية ، لا يستطيع أن يقرأه ، إنما العربي متمرس بالقراءة.. فإذا قرأ القرآن ، فإن السياق يهديه على الكلمة فيطقها نطقا صحيحا ويمكنه أن يفرق بين الحروف المنقوطة أهي تقرأ ياء أو نونا أو تاء.. لما عرضوا القرآن غير المعجم يعني غير المنقوط قال القارئ في قوله تعالى:

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء ﴾ (الأعراف:١٥٦). فقرأ (أساء) أساء بالسين لا بالشين، والمعنى لا يبعد كثيراً. مما يدل على أن الملكة العربية تستطيع أن تقرأ اللفظ وإن لم يكن منقوطا بما يحكمه السياق القرآني، لكن كلمة أساء أعطت معنى لكنه غير مقصود، لأنها لو قرئت أساء بالسين، وصارت أساء لكان المعنى أن عذاب الله يصيب كل مسيء لكن كلمة (أشاء) تعطي معنى أخر وهو أن الإنسان قد يكون مسيئا ولا يشاء الله أن يعذبه ، لأنه قد يكون تاب ،وقبل الله توبته وغفر ذنوبه.

وقرأ أحدهم قول الله تعالى صبغة قرأها: ﴿ صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة ﴾ والمعنى واحد بالنون أو بالباء.

إذن فالقرآن له أسلوب عربي يستطيع العربي بملكته وبطريقته أن يهتدي – إن لم يكن على المقصود – يقع قريبا من المقصود.

• ولذلك كان يعرف الكاتب العربي من غير الكاتب العربي. بأن الكاتب غير العربي ينقط ويشكل ، أما الكاتب العربي فيقول لو أني شكلت كتابي إلى المكتوب إليه ، فقد أسأت الظن به ، بمعنى أنه لا يعرف أن يقرأ إلا المنقوط والمشكل.

• ولذلك قلنا إن الذين ألفوا الكتابة العربية اعتادوا على ذلك لأن العربي يستنكف أن يزود لغته ويعمل قواعد لأن هذه مسألة لا تحتاج إلى

تدوين ولا أي شيء ، لأنه عرف بملكته أن يقرأ غير المنقوط وغير المشكل.

ونعود إلى آيات الإجمال والتفصيل في خلق السموات والأرض لنثبت أنه لا تناقض بين الإجمال والتفصيل ، لأن العربي يستقبل بحسه وملكته آيات القرآن فيفهمها ولا تناقض فيها.

ويمكننا أن نقول ردا عليهم: إذا وجدت إجمالا ثم وجدت تفصيله ،فكل تفصيل يحمل على الإجمال إلا إجمال العدد وتفصيله المجمل هو الذي يحمل على الذات ، المفصل يحمل على المجمل ، كيف؟ لأن الأعداد يمكن بالتداخل أن يصل المفصل إلى المجمل ، إنما المجمل لا يمكن أن نفصله.

وإذا طبقنا هذه القاعدة على الآية لوجدنا أن قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٩] وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ﴾ (فصلت:٩/ ١٠).

فقد خلق الله الأرض في يومين وجعل فيها رواسي أي الأرض ، وقدر فيها أقواتها أي الأرض.

إذن كلمة أربعة أيام المخلوق في أربعة أيام ليس ابتداء شيء ولكنه تكملة شيء فجعل الرواسي والأقوات تكملة لخلق الأرض.

إذن الأربعة أيام لم تكن لإنشاء أي شيء جديد، وإنما لتكملة خلق الأرض.. فالتمام جعل في السماء.

ولنضرب لذلك مثلا ، أخطأت مرة وقلت أنا سرت بالسيارة من القاهرة إلى طنطا في ساعة. وإلى الإسكندرية في ثلاث ساعات ، وإنما قطع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات ، فالساعة التي قطعها من القاهرة إلى

طنطا داخلة في الثلاث ساعات ، وليست خارجة عن هذه المدة الزمنية.

وعلى هذا تفهم الآية على أن خلق الأرض في يومين داخل في الأربعة أيام التي هي مدة تتمة خلق الأرض فتكون المدة أربعة أيام ، واليومان داخلان في الأربعة فلا يحسبان مرتين ، إذن فالمدة أربعة أيام.

أما قول الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت:١٢). فيكون قد ضم الاثنين إلى الأربعة ويضم لهم الاثنان الأوليان.

فإذن يكون العدد ستة أيام وبذلك تكون آيات الإجمال اتفقت مع آيات التفصيل وبذلك ينتهي الإشكال.

• فلو كان في الآيات تناقض كما تقولون لسهل على القوم الذين ملكتهم عربية ونزل القرآن بلغتهم، وتحداهم القرآن، وتحدى ملكتهم فلو كان في آية كما تقولون تناقض لسهل عليهم أن يردوا على محمد، وأصروا على كفرهم وعنادهم ومعارضتهم.

فلو كان هناك خلل في القرآن كما يدعون لكانوا هم أول المستنبطين للخلل.. ومع ذلك لم يحدث ذلك مع أن الله أبقى كثيرا من صناديد الأمة كافرين وقد شحذوا كل جهودهم للتحدي، ومع ذلك لم [illegible] القرآن آية من الآيات.

• ولو أن في القرآن آية يستدرك عليها بالتناقض لنادى أهل الكفر بأعلى صوتهم ،وقالوا يا أهل اللسان العربي. يا أهل الفصاحة.. هذا محمد جاء بالقرآن ليتحداكم به ،في حين أن فيه كذا وكذا من التناقض !

• إذن فالعرب ما أمكنهم أن يأخذوا على القرآن أي مأخذ

• فإذا كان في زمن العرب الذين كانوا يتكلمون العربية سليقة وفطرة ، لم

يستطيعوا أن يجدوا ثغرة في القرآن للقدح فيه.. فهل يمكن لهؤلاء المستشرقين الذين لا يفهمون العربية أن يقدحوا في القرآن ويصفونه بالتناقض؟

لا ريب أنهم لن يستطيعوا ذلك؟.

يقول الملحدون في قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ.. ﴾ (آل عمران:١٣٥). أليس فعل الفاحشة ظلما للنفس؟.

فكيف يأتي بعد ذلك بقوله ﴿ أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ.. ﴾ مع أنها واحد (فعل الفاحشة وظلم النفس).

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ.. ﴾ (النساء:١١٠). فقد رتب ظلم النفس على فعل السيئة مع أنها واحد.

وللرد على ذلك نقول: إن " أو " تأتي على معنيين التخيير أو الإباحة.

ومثلا فيقولك تصدق بدرهم أو دينار معناها التخيير ، وفي التخيير لا يجمع بين الأمرين.

أما قولك جالس الحسن أو الحسين فهنا معناها الإباحة. لأنه يباح لك أن تجالس الاثنين معا فإذا ما فهمنا الآيات على ضوء ما قلنا فإننا سنصل إلى الفهم السليم.

فقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ.. ﴾

وكذلك الآية الثانية ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (النساء:١١٠). له دلالته ومعطياته لأن الذي يفعل السيئة يحقق لنفسه متعة عاجلة ، وقد ذهل عنا لمتعة الآجلة ، إنما حقق لنفسه متعة.

وأحيانا إنسان يلجأ إلى المعصية فلا يحقق لنفسه متعـة ، ويحقـق لآخـر متعة ، فلا يأخذ متعة المعصية في ذاتها ، ولا يأخذ المتعة في الآخـرة ، إذن فقـد خسر متعة الدنيا والآخرة.

يقول الرسول ﷺ شرحا لهذه القضية وتأكيدا لأسلوب القرآن: (شـركم من باع دينه بدنياه ، وشر منه من باع دينه بدنيا غيره).

فالذي يأخذ المال سرقة أو نهبا قد حقق متعة لنفسه في الدنيا وحرم متعة الآخرة.

أما من يشهد الزور مثلا لإنسان ليأخذ غير حقه ،فقد حقق للغير متعـة.. وبقى هو بلا متعة فيكون قد ظلم نفسه.

***

الشيخ الشعراوي وقضية الشباب

انتقد الشيخ محمد متولي الشعراوي بمرارة، ظاهرة اجتماعية باتت اليوم عرفاً راسخاً في مجتمعاتنا. الظاهرة تحدث عنها الشعراوي في مقابلة صحيفة بجريدة "الوطن" الكويتية، وتتمثل في الاعتماد شبه الكامل على الوالدين لسنوات طويلة حيث باتت "الطفولة" تصل إلى سن الثلاثين!

وقد وصل الشباب إلى هذه المرحلة، يقول الشعراوي، لأننا أطلنا عمر الطفولة، وصار الشاب يحلم بالقمة دون بذل جهد، لقد ترك "الأسانسير" إلى ما هو أسرع.

"الطفولة عندنا وصلت إلى سن الخامسة والعشرين بل والثلاثين عاماً، فالشاب في هذا السن يمد يده إلى أمه وأبيه كي يعطياه نقوداً. في الخارج لا توجد مثل هذه الأمور، فالطفل بمجرد بلوغه سن الرشد تنتهي مسؤولية أبيه. إنني أعجب من الرجل الذي يقول إنني أعلم أولادي تعليماً جامعياً، وربما "استعطى" من أجلهم.. وهو يعطل طاقة أبنائه وتصير طاقة الشباب معطلة من سن الرابعة عشرة إلى سن الخامسة والثلاثين".

مثل هذا السلوك يضيع إنتاجنا، "فالشباب مهدور القوى لا يصنع شيئاً سوى الأكل والشرب والذهاب إلى الجامعة في صورة "دون جوان"، وفوق هذا وذاك نجد الشاب يريد أن يبدأ حياته بشقة على أحدث طراز وأدوات كثيرة".

تصرفُ الغربيين مع أولادهم، يقول الشعراوي، صحيح. "لكنهم أخطئوا بسحبهم الحكم على البنات أيضاً". فمجتمعاتنا تختلف عن مجتمعاتهم، ولابد أن "تظل البنت في حضانتنا إلى أن يأتيها عريس".

روى الشعراوي بعد سنوات لصحيفة "الهدف" الكويتية جوانب من حياته الوظيفية وبدايات صعوده، وذلك بمناسبة حلول شهر رمضان. وقال إن الناس "زمان"، كانوا يهتمون بعمل الكعك والبسكويت، خاصة في الريف، وكان الأطفال بعد مدفع الإفطار يتذوقون كعك بعضهم البعض.

يقول الشعراوي: "لاحظت يوماً أن صبياً من أصحابي آتى ومعه كمية من الكعك الذي له مذاق خاص أفضل بكثير مما كان معنا، وعند عودتي للبيت سألت أمي: لماذا كعك صاحبي فلان أحسن من الذي عندنا؟ فقالت لي: إن أبيه "موظف"، أما نحن "فعلى قد حالنا". ويضيف: "واستوقفتني كلمة "موظف"، فسألتها ويبقى إيه الموظف؟ فقالت: يبقى شغال عند الحكومة، ويأخذ أجراً شهرياً مثل المدرسين عندكم". وسألها: من يعيِّن هؤلاء موظفين في الحكومة؟ فأجابت: الشهادة التي معهم، "شهادة الكفاءة". يقول الشعراوي: وظلت هذه الكلمة في ذهني، "شهادة الكفاءة" التي يتوظف بها الناس في الحكومة ويأخذون أجراً كل شهر.. ولكن!

"عندما أخذت شهادة الكفاءة أردت أن أكون موظفاً في الحكومة. ولما سمع والدي ذلك غضب مني، وحاولت كل المحاولات لإقناعه، وأصر على أن استمر في دراستي بالأزهر حتى احصل على العالمية. وبطريقته الخاصة في الإقناع سألني والدي: كم يأخذ الموظف الذي يعمل بشهادة الكفاءة شهرياً؟ قلت: يأخذ ثلاثة جنيهات. فقال: إذن اعتبر نفسك من هذه اللحظة موظفاً عندي بالكفاءة بأجر شهري ثلاثة جنيهات، وشغلتك هي أن تستمر طالباً في الأزهر إلى أن تحصل على شهادة العالمية. وأضاف والدي رحمه الله، وهو يربت على كتفي: طبعاً ستأخذ العلاوة التي يحصل عليها موظف الحكومة. وقبلني والدي وضمني إلى صدره. ودعوت له يومها، كثيراً".

ولا ندري كم من السنوات استمر هذا الإنفاق الأبوي على طالب العلم النجيب، وكم زاد الراتب بعلاواته.. فالشيخ من مواليد ١٩١١، وقد حصل على درجة العالمية من الأزهر، مع إجازة التدريس عام ١٩٤٣، أي عندما كان في الثانية والثلاثين!

في ١٠ نوفمبر ١٩٧٦، نفس العام، تم تعيينه وزيراً للأوقاف ووزير دولة لشؤون الأزهر في الوزارة التي رأسها ممدوح سالم. وفي العالم التالي، في ٢٦ أكتوبر ١٩٧٧، استمر تعيينه وزيراً وكانت مرحلة حكم السادات (١٩٧٠ - ١٩٨١) لمصر فترة صاخبة، فقد شهدت انفتاحاً اقتصادياً وتحولاً اجتماعياً وسياسياً. ولكن هذه التحولات لم تكن من ناحية التأثير القومي والديني في حجم قرارات السادات بزيارة إسرائيل وإلقاء خطابه الشهير في الكنيست وتوقيع اتفاقية "كامب ديفيد" مع إسرائيل، والتي أقامت عليه وعلى مصر العالم العربي وأقعدته.

في مقابلة صحفية مع الشعراوي، سألته "الوطن": "هل ندمت على قبولك لمنصب وزير الأوقاف"؟ فأجاب: "لم أندم، ولكنني لا أحب أن يتكرر". (٢٣/ ٤/ ١٩٨٩).

وكانت صحيفة "القبس" قد أجرت معه قبل أكثر من عام مقابلة مطولة سألته فيها عن تولي الوزارة وعن الفتوى التي تبيح للنظام السياسي القائم بالجنوح نحو السلم، وهل ما زال الشعراوي يعتقد أن السلام مع إسرائيل على طريقة "كامب ديفيد" قرار سليم؟ فأجاب جواباً قوياً خال من التردد: "نعم ما زلت أقرُّ، لأننا لم ندخل مسألة فلسطين على أساس من الدين فكيف تطلبون أن أخرج منها على أساس من الدين. الأساس الذي دخلنا به فكر بشر لبشر، والأساس الذي خرجنا منه فكر بشر لبشر. فمن جعل فكر البشر في الدول

الرافضة أولى من فكـر الـدول القابلـة"؟ أي الرافـضة أو القابلـة للـسلام مـع إسرائيل. ثم أضاف: "أنا الذي أدفع الثمن، أنا الذي لا يوجد عنـدي بيـت إلا وفيه ضحايا وفيه دم، لما هؤلاء -يقـصد بقيـة العـرب- لم يعملـوا أي شـيء، فالذي عليه العتب هو الذي يعمل هكذا حتـى يحمـي نفـسه! ثـم إنهـا مـسألة سياسية، والدولة التي ندافع عنها، أول منهج فيها يقول إنها دولة علمانية، ومـا دمتم دخلتم بمنهج البشر دعوا كل بشر يفكر في أن يخرج.. والناس التي تهول المسألة ماذا صنعوا؟ ماذا صنع الرافضون من يقوم توقيـع الاتفاقيـة إلى يومنـا هذا؟.. لا يمكن أن ينجحوا بعمل إلا إذا كانت مصر فيه...".

أما بالنسبة للشعراوي، فقد بدا في التسعينات أقل حماساً لتوليه الوزارة في تلك الفترة العصيبة. وفي مقابلة له مع "القبس" قال مـصارحاً الجمهـور: "إن فترة وجودي كوزير للأوقاف تعتبر أسـوأ فتـرة في حيـاتي.. رفـضت بـشدة أن يكتب أمام أو خلف اسمي وزير الأوقاف السابق أو الأسبق...).

عرض الإعلامي المعروف محمود فـوزي مقابلاتـه مـع الـشعراوي في كتاب صدر عام ٢٠٠٨. وقد طرح فوزي تساؤلاً عـلى الـشعراوي ذات مـرة: "لقد باركت الصلح مع اليهـود. فمـا هـي الأسـباب التـي اسـتندت عليهـا في هذا"؟ فأجاب: "السبب الرئيسي في ذلك أننا منذ عام ١٩٤٨ غرقـى، وهنـاك من يتفرج علينا فقط، فلم نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، بل على العكس، كـل عام الأمور تتدهور أكثر"! والشعراوي في جوابه هـذا يؤكـد مـرة أخـرى عـلى تأثيرات التعبئة والمجهود الحربي في حياة الشعب المصري، بينمـا الآخـرون يتفرجون. وكان لابد من حسم الوضع.

سأله الأستاذ فوزي: "عندما سافر السادات إلى القدس، ناديـت موجهـاً كلامك بأعلى صوتك: "من يصنع مبادرة مـع اليهـود، فعليـه أن يبـادر بـصنع

مبادرة مع الله..". وكان جواب الشيخ: "كنت أقول: أنتم تصنعون مبادرة من أجل أن تتصالحوا مع البشر، فلماذا لم تصنعوا مبادرة وتتصالحوا مع الله رب البشر"؟

وسأل فوزي الشيخ عن رأيه في اغتيال السادات. فأجاب: "من العجيب أن اغتيال السادات قد فرح به الأغبياء من خصومه، وأنا قلت لهم: فرحكم باغتياله حمقٌ، السادات كانت له حسناته، كما كانت له سيئاته أيضاً قبل ذلك. فأراد الله أن يغفر سيئاته الماضية بحسناته التي فعلها الآن. فقال له: مت شهيداً، لكي تصبح كما ولدتك أمك مطهراً من ذنوبك"!

وأضاف الشعراوي: "هؤلاء أغبياء إذا فرحوا.. وكان ينبغي على خصومه أن يحزنوا.. أنور السادات فعل في أيامه أشياء لا يمكن لأحد غيره أن يفعلها.. استطاع أن يفاجئ الأميركيين والروس بإعلان الحرب".

***

الشعراوي المقاتل

لم يكن معقولاً أن تمر حياة شيخنا الجيل ومع طبيعته الصريحة والقوية في الحق دون عوائق أو عقبات ، بل وحتى معارك حارب هو فيه ضد الفساد، مثل " معركة الحوت " عندما كان وزيراً للأوقاف. ومعارك ضده من خصومه أو ممن كانوا يكرهون نجاحه وانعقاد قلوب الملايين في طول العالم الإسلامي وعرضه حول حبه وعلمه.

وفي هذا الجزء سننقل رصد الأستاذ/ الكاتب الصحفي " رجب البنا" الكاتب الصحفي المعروف " نسأل الله أن يتغمده بوافر رحمته" وجدير بالذكر أن الكاتب هو أخ الشهيد الشيخ " حسن البنا ".

ففي هذه المقالة يرصد الكاتب جمال البنا جانباً من معارك الشيخ الشعراوي قائلاً:

" معارك الشيخ الشعراوى فرضت عليه ولم يكن هو البادئ أو الساعى إليها. ومع أن شعبيته الطاغية لم تتحقق لأحد قبله، والإجماع على أنه «إمام الدعاة» و«شيخ المفسرين»، فإنه لم يسلم من النقد ومن الهجوم أحيانا، وهذه سنة الحياة.. لم يسلم الأنبياء والصالحون وأولياء الله منها.

كتب صحفي معروف يوماً: هل يدفع الشيخ الشعراوى الضرائب عن إيراداته الهائلة التي يحصل عليها، وتأثر الشيخ باتهامه بأنه يتهرب من الضرائب وهو الداعية الذي يطالب الناس بأداء حق الله، وحق الدولة، وحق الناس، وتطوّع مسئول كبير في وزارة المالية فأدلى بتصريح نشرته الصحف في أبريل ١٩٨٦ قال فيه إن الشيخ يقدم إقراره الضريبى في موعده ويخضع للفحص ويبلغ مصلحة الضرائب بكافة إيراداته وهو أول من يسدد ما عليه..

ولقد تعرض الشيخ مبكرا لمكائد الخصوم ففي زيارة للقاهرة- وكان مقيما في مكة- فتم القبض عليه واستمرت التحقيقات ٤٠ يوما معه ومع عدد من زملائه المعارين معه في السعودية وذلك بتهمة اشتراكهم في قراءة الفاتحة في الكعبة ضد الثورة وقادتها(!) ثم أفرج عنه أخيرا بعد أن قدم إلى النيابة الصحف التي نشرت صورته مع عبد الناصر عندما ذهب إلى السعودية لتقديم العزاء في وفاة الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٥٣. وربما تكون هذه الواقعة من أسباب موقفه من الثورة ومن عبد الناصر وسببا لمعركة أخرى، عندما أعلن أنه عندما علم بالهزيمة سنة ٦٧ سجد لله شكرا وبسبب هذا التصريح تعرض لهجوم من الصحافة والمثقفين والسياسيين واضطر إلى الإدلاء بتصريحات لتفسير أسباب السجود والشكر لله على الهزيمة. قال إنه اعتبر الهزيمة بداية يقظة لتصحيح الأخطاء بما أحدثته من زلزال هز الجميع، وأيقظ الوعي في النفوس والعقول، وكشف الطغاة، وعرى أخطاءهم وخطاياهم، وقال أيضا إن صلاة الشكر عند الهزائم والمحن والكوارث هي من قبيل الامتثال والرضا بقضاء الله وقدره. وفي حديث آخر قال إنه كان يقصد أن حرب ٦٧ لو انتهت بالنصر لكان ذلك سندا للشيوعيين أنصار الاتحاد السوفيتي ليقولوا إن الشيوعيين ساعدونا على النصر وجاءت إرادة الله بالهزيمة لأنصار الشيوعية (!).

وفرضت عليه معركة أخرى كانت إسرائيل هي التي أثارتها بعد توقيع معاهدة السلام احتجت إسرائيل على أحاديثه التي تذاع منها حلقتان أسبوعيا وتعاد كل منهما مرة ثانية يشرح فيها آيات القرآن التي تتحدث عن اليهود.. واحتجت إسرائيل وادعت أن كلام الشيخ معاداة للسامية وضد معاهدة السلام وبعد هذا الاحتجاج حاول البعض إقناع الشيخ بألا يتناول الآيات التي تتحدث عن مكائد يهود المدينة للرسول ﷺ ونقضهم للعهود والتفافهم

عليها. ورفض الشيخ واستمر في شرح الآيات.. بعد ذلك أصبحت أحاديث الشيخ تذاع حلقة واحدة أسبوعيا ولا تعاد إذاعتها.

ضد الملك.. وبعيد عن الإخوان

لم يكن اعتقال الشيخ في عهد الثورة المرة الوحيدة التي ذاق فيها عذاب السجون. فقد دخل السجون قبل ذلك في عهد الملكية في عام ١٩٣٤ وكان طالبا في معهد الزقازيق وكتب قصيدة في الهجوم على الملك وطغيانه واعتدائه على الحريات، وتم اعتقاله وتقديمه للمحاكمة بتهمة «العيب في الذات الملكية» وحكم عليه بالحبس لمدة شهر، وصدر قرار بفصله من معاهد الأزهر مع عدد من زملائه شاركوه في إبداء آرائهم عن الملك وأعوانه. وعندما جاءت وزارة النحاس إلى الحكم قررت إعادة جميع الموظفين والطلبة المفصولين بقرارات الحكومة السابقة فعاد إلى الدراسة مع زملائه.

وعلاقة الشيخ بالإخوان كانت موضع تساؤل، فقد قال البعض إنه ينتمى إليهم، وأكد البعض أنه لا ينتمى إليهم وأنه متفرغ للدعوة وحريص على استقلاله وحريته في التفكير ويرفض أن يلتزم أو يلزمه أحد أو جماعة بمواقف أو بآراء معينة، وحسم الشيخ الأمر في حديث قال فيه: إنه انضم إلى الإخوان في بداية نشأتها وهو طالب في الأزهر، وأنه التقى بمؤسس الجماعة الشيخ حسن البنا وأنه هو الذي كتب أول منشور للإخوان بمبادئ الجماعة وبعد ذلك ترك الجماعة عام ١٩٣٧ عندما اكتشف أن لها أهدافا غير معلنة، وكان انضمامه لها على أنها جماعة هدفها الوحيد نشر التربية الإسلامية بين الأجيال الجديدة وبناء مجتمع مسلم قائم على القيم والأخلاق والمبادئ التي وردت في القرآن والسنة. لكنه وجد أنها تمارس السياسة ولا تختلف في ذلك عن أى حزب من الأحزاب التي يرفضها وهو يرفض النفاق والانتهازية التي تجعلها

تعلن شعارات وتخفي نواياها وسار في طريقه للدعوة حريصا على استقلاله بعيدا عن الإخوان وعن الأحزاب وعن السياسة والسياسيين.

.. ومعركة مع فكر الإرهاب

وعندما ظهرت بوادر الفكر المتطرف وجماعات الإرهاب أعلن رأيه بوضوح برفض هذا الانحراف والجنوح فقال: إن الفكرة التي انتهيت إليها بعد تفكير طويل هي أن خصوم الإسلام عز عليهم أن يخترقوا الإسلام من باب الهجوم الصريح عليه فقط فدخلوا من باب ثان هو العمل على تفجير المجتمع الإسلامي وإفساد العقيدة الإسلامية وتشويه الدين الإسلامي من داخله بإثارة التعصب في عقول ونفوس أصحاب العقول والنفوس الضعيفة من شباب المسلمين.. وخططوا للعمل على إيجاد طائفة تستغل انتشار المشاعر الدينية في مصر وفي العالم الإسلامي بل وخارج العالم الإسلامي لتدس شعارات لا يرفضها جمهور المسلمين ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب وكلمة حق يراد بها باطل تنطوي على هدم الأساس الذي يقوم عليه الإسلام وهو «التسامح» وحرية العقيدة «ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».. و«لست عليهم بمسيطر».. ومما لا يصدقه عقل سليم أن نجد من يدعون الدعوة إلى الإسلام ويقولون إنهم يمثلون الإسلام يقتلون أول ما يقتلون عالما مشهودا له بالفضل والعلم وسلامة العقيدة هو الشيخ محمد حسين الذهبي؛ ويقتلون بعده أبرياء «ومن قتل نفسا بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا».

وكان رأى الشيخ أن هؤلاء الشباب يعيشون في حالة «خواء دينى» وبدون «خميرة إيمانية» وكل من لديه علم وفهم للدين الإسلامي يحكم على أفكار هذه الجماعات بأنها أفكار غريبة ليست من الإسلام.. هي أفكار ضالة

ومضللة، وأعمالهم تتناقض مع دعواهم بأنهم يعملون على حماية الدين وإقامة الشريعة، فليس في الإسلام عصيان الأهل أو هجرهم، وليس في الإسلام أن تتزوج الفتاة بدون ولى. وليس في الإسلام أن يجتمع أزواج متعددون بزوجات متعددات في مكان واحد.. وهؤلاء فعلوا ذلك وأكثر منه فضلا عن ترويع الآمنين.. ولكن برغم وضوح الضلال في دعواتهم فإنهم وجدوا من يستمع لهم ويتبعهم. وهم يمارسون الإكراه على الناس لكى يتبعوا ضلالهم، ويبقى «الخواء الدينى» لدى الشباب هو المسئول عن كل ذلك. وعلى أية حال فإن الأيام سوف تفصح عن حقيقة العوامل النفسية والأسرية والاجتماعية التي أدت إلى وجود هذه الظاهرة.. وسوف نجد أن هؤلاء الشباب انضموا لهذه الجماعات وانساقوا وراء أمرائها لأنهم لم يجدوا القدوة رغم حاجتهم لها، ولم يجدوا من يهتم بهم ويرعاهم ويحتويهم ووجدوا ذلك في هذه الجماعات وأمرائها.. وكانت نتيجة هذا الموقف أن حدث حريق في الشقة التي كان يسكنها في حي الحسين.. ورفض الشيخ أن يتهم أحدا وفضل قيد الحادثة ضد مجهول.

وآثار الشيخ بعض الكتاب والسياسيين عندما أعلن في حديث للأهرام (٥ يونيو ١٩٨٢) أن الشورى ليست ملزمة للحاكم المسلم مادام قد جاء على أساس اختيار سليم، وأن الرسول ﷺ كان يستشير أصحابه ليتعرف على الآراء المختلفة لتكون معروضة جميعها أمامه، وله بعد ذلك أن يتوكل على الله ويختار ما يراه من هذه الآراء أو مما يراه هو، ولذلك قال له الله سبحانه وتعالى: وشاورهم في الأمر. ولا تفهم هذه الآية إلا في ضوء قوله تعالى «فإذا عزمت فتوكل على الله». وهذا يعنى أن الحاكم ليس ملزما بالأخذ بآراء من يستشيرهم. وامتلأت صفحات الجرائد بالمقالات التي تهاجم الشيخ وبالحديث عن الديمقراطية والديكتاتورية والنظم السياسية الحديثة.. وسلطة

الأغلبية.. وخطورة انفراد الحاكم بالسلطة وتجاهله لـرأى الأغلبيـة.. ودخـل في الساحة كتاب إسلاميون خالفوا الشيخ وقالوا إن الحكم قي الإسلام حكـم ديمقراطي بدليل أن الإجماع أصل من أصول الفقـه، والـنظم الـسياسية تتطـور كما تتطور النظم الاقتصادية والاجتماعية، وطبيعـة المجتمعـات في العـصور الأولى للإسلام كانت قائمة على النظم القبلية التـي كانـت سـائدة وهـي التـي فرضت أن يكون «القرار» بيد «شيخ القبيلة ثم بيـد «الملـك» أو «الخليفـة» أو «الحـاكم» الفـرد، ولكـن مـع نظـم الحكـم الحديثـه القائمـة عـلى أحـزاب وانتخابـات وأخـذ الأصـوات والالتـزام بـرأى الأغلبيـة فـإن الأمـر اختلـف والتطور سنة الحياة."

وهكذا كل من يسيرون في طريـق الـدعوة إلى الله ، وإلى الحـق دائمـاً مـا يكونون مبتلين بالابتلاءات المختلفة ، وكذلك يتعرضون لكثير من المحـن.. وهذا أمر طبيعي خاصةً إذا كان هذا الداعية مثل الشيخ الشعراوي " لا يلين في الحق ولا يخشى في الله لومة لائم" نسأل الله أن يتغمده بوافر رحمتـه ويغفـر لـه ويتجاوز عنه ويسكنه فسيح جناته.

***

المنهج والتفسير

في حوار للشيخ مع الأستاذ الكاتب الصحفي / أحمد زين.. والذي ضمنه في كتابه " حوار مع الشعراوي" والذي نشر من خلال مؤسسة " المختار الإسلامي" تكلم الشيخ عن تفسير القرآن ورؤيته لشباب الأمة وأمور كثيرة والذي يهمنا هنا قضيتان في غاية الأهمية هما المنهج في تفسير القرآن..وكذلك " تخلف الدول الإسلامية " هاتان القضيتان تكلم عنهما الشيخ في هذا الحوار المطول والحقيقة أنه سلسلة من الحوارات المثمرة.

فلنبدأ مع الشيخ في حواره حول تفسير القرآن الكريم.

(سأل المحاور الشيخ الشعراوي هذا السؤال: إن هناك أسئلة حائرة في أذهان الشباب لا تجد لها التفسير الذي يتلاءم مع مفهوم العصر.. ولقد قدم بعض المفكرين باجتهادات في التفسير.. بعضها أجاب على أسئلة .. وبعضها جانبه الصواب..ولكنني من متابعتي لأحاديثك كل ما تقوله أرى أنك أكثرهم التزاما.ودقة في التفسير..وأنني أتمنى أن تقوم بتفسير للقرآن يطبع ويوزع (كان هذا الحوار قبل طباعة خواطر الشيخ حول القرآن الكريم.. ويوجد ألآن نسخة مطبوعة في عدة مجلدات).. لأن هذه خدمة جليلة للدين.. معنية للشباب على ألا ينحرف. وتجرفه التيارات المختلفة التي تزين له الدنيا.. وتزين له المعصية وتصور له الدين على أنه تخلف وسلفية ورجوع إلى الماضي.وبعد عن الحضارة وأفيون للشعوب (هذا الكلمة المشهورة عن كارل ماركس صاحب منهج الماركسية).. إلى آخر هذه التعبيرات التي يحاول كل من يحارب هذا الدين أن يلصقها به.

قال الشيخ: أنني خلال لقاءاتي التي قمت بها أحسست بقوة الدين في

نفوس الشباب.. وتعطشهم لتعلم دينهم.. وهذه بشرى تجعلنا نؤمن أن الخير قادم.. ولقد مر وقت كان فيه العلماء يهانوا ولا يكرمـون.. وألا،. فـإن علمـاء الدين يكرمون في كل مكان.. وهذه بـشرى ثانيـة.. وهـذا متمـشي مـع طبيعـة شعب مصر.. الذي أعطى فيه النبي الحكم مـن قـديم في حـديث شـريف. أن أهل مصر في رباط إلى يوم القيامة.. ومعنى ذلك أن الخميرة هنا إيمانية.

ولذلك يجد الناس الـذين يحـاولون إخـراج الـدين مـن وجـدان هـذا الشعب وكيانه.. أن محاولاتهم فاشلة.. وعليهم أن يريحوا أنفسهم.

والذي أحب أن أقوله أن العلم واسع..وواسع جدا ولكن السلوكية هي القليلة بمعنى أنه غالبا ما تستطيع أن تعطي النتائج..ولكـن قليـل جـدا وقليـل أولئك الذين يعطون القدوة في السلوك.. بمعنى أنني أريد ممن يقول كلاما أن يطبقه أولا على نفسه.. إننا في عصر جرب فيه العالم كل شيء.. جرب فيه جميـع النظريات والأشياء التي تعرضها الـدنيا.. تبـدو براقـة.. ووجـد فيهـا الـشقاء ولاتعاسة وبدأ يعود للدين.. ولكن العودة للدين يلزمها القدوة فيمن يقـدمون النصيحة.. أو كما قلت أن يطبق الإنسان ما يقوله على نفسه أولا.. ولقـد قـال الرسول ﷺ.. أنا لم آمركم أمرا أنا عنه بنجوى.. وأنا عندما يأتيني رئـيس عمـل ولا أراه متميزا عني إلا بالشقاء في عمله.. وبكثرة العمل.. فإذا طلب منـي أي شيء فإنني أقوم به فورا وبطيب خاطر.. ذلك أنني أحس أنـه غيـر متميـز ولا بكثرة مـسئولياته..وهـو في هـذا يعطينـي القـدوة الـسلوكية التـي طالـب بهـا الإسلام. والإسلام دين الحق.. ولقد قال لي أحد المستشرقين الـذين اعتنقـوا هذا الدين. لقد درست الإسلام ووثقت أنه رسالة الحق. وأن محمـدا رسـول الحق. لشيء واحد فكل كاذب له هدف مـن وراء كذبـه.. والهـدف مـن وراء الكذب لمن يدعي أنه رسول.. أنـه يريـد أن يـسيطروا يحكـم هـؤلاء النـاس

الذين يدعوهم إلى الدين الجديد./ وإلا فما هو الهدف الذي يسعى إليه.. ولقد عرض لى السؤال في أول أمره بدون تعب.. عرض عليه الملك إن أراد.. فرفض وعرضت عليه الثروة والجاه ولا سلطان.. وكل ما تستطيع والدنيا أن تهبه.... كل ذلك وهو فى أول الطريق.. ولكنه رفض هذا كله.. إذن الغلبة التي يكذب من أجلها رفضها من أول الطريق.. وأحيانا تكون المثل عند الإنسان أكبر من حجم الدنيا.. لانه لم يذق حلاوة الدنيا.. ولكن بعد ذلك حينما تدخل الدنيا عليه قد تغير من مثله وقيمه.. بعد ذلك جاءته الدنيا وليس لنفسه فقط.. وإنما له ولذريته. فقال: لا لنفسي ولا لذريتي.. لا نورث.. ما تركناه صدقة.. وإذا كان هذا خلقه.. فلابد أن يكون صادقا.

تحليل آخر أعجبني.. لسيدة أسلمت قالت أنني قبل الإسلام قرأت كثيرا عن هذا الدين..ووجدت أن محمدا كان يحرسه أصحابه مخافة أن يعتدي عليه.. فأتى يوما وقال لحراسه: اذهبوا عني فقد تكفل الله بحراستي.. مصداقا للآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة ٦٧).. فلو أن هذا الرجل يخدع الناس جميعا ما خدع نفسه في حياته..وما عرض نفسه للعدوان عليه.. ولو لم يكن واثقا من أن الذي قال له هذا لا كلام هو الله سبحانه وتعالى.. وهو قادر على أن يحميه ويعصمه.. لم يكن يفعل هذا. هذه أشياء نمر عليها نحن. وقد لا نلتفت إلى تلك المعاني.. ولكن سيدة دارسة استخرجت منها هذا المعنى العظيم.

وقصة ثالثة. عن رجل مستشرق أشهر إسلامه. إنه يقول: أن الناس الذين يكذبون محمد ﷺ أنه رسول.. ويقولون أنه أتى بالقرآن من عنده..ويضيف أنني أتحدى أن توجد عبقرية تصنع لنفسها ثلاثة أساليب.. أسلوب يقال عنه القرآن. وأسلوب يقال عنه حديث قدسي.. وأسلوب يقال

عنه حديث شريف..ويعزل هذا الأسلوب عن هـذا الأسـلوب بدقـة متناهيـة بحيث أنك عندما تسمعه تميزه وتقول هذا قرآن.. هذا حديث قدسـي..وهـذا حديث نبوي. لا أحد من البشر يستطيع أن يصنع لنفسه هـذا.. ثلاثـة أسـاليب متميزة ومختلفة بهذه القدوة والقدرة.

وكثير من الناس يريد أن يناقش الـدين والقـرآن بـشكل عقـلي..ويتـرك الأساسيات ليبحث عن أشياء يضيف غليها ويستخرج منا إساءة للدين.. ومن بعض هؤلاء الناس أعجب وأعجـب كثيـرا أن سـلوكهم مـع البـشر للأسـف الشديد يخ ـ عن سلوكهم تجاه الله. فأنا إذا مرضت مثلا ذهبت إلى الطبيـب ليعـالجني. فأختـار أبـرع الأطبـاء وأكثـرهم شـهرة وخبـرة في عـلاج هـذا المرض.وعندما أثق في الطبيب وخبرته وسمعته.. أذهب إليه.. فيكـشف عـلي ويقـول: أنـت تأخـذ وتتنـاول دواء كـذا وكـذا..وأنـت تأكـل كـذا ولا تأكـل كذا.وآخذ هذا قضية مسلمة.. فإذا جاءني صـديق يـزورني..وسـألني مـا هـذا الذي تتناوله بعد الغداء أو بعد الطعام. أقول له: أن هذا دواء قد كتبـه الطبيـب لي.. فلا يناقش ولا يتكلم. وإنمـا يـسلم بـالأمر. فـإذا كـان هـذا يحـدث مـع الطبيب وهو بشر. فماذا يحدث مع الله سبحانه وتعـالى. إذا كنـا متأكـدين مـن وجوده فلماذا نريد أن نناقش كل شيء.)

****

لماذا تخلفت الدول الإسلامية وتقدم غيرها؟

رداً على هذا السؤال.. قال الشيخ:

(إن الإسلام قبل أي شيء هو سلوك. الإنسان المسلم، يسلك سلوك الإسلام.. لكن كثيرا من الناس لا يفعلون ذلك. بل أن بعض المسلمين الذين يعيشون في بلاد غير إسلامية تجرهم تلك البلاد بعاداتها وتقاليدها. فيبتعدون عن الإسلام. وأعتقد أن واجبنا الأول أن نثبت الإسلام في نفوس المسلمين .. معظم الذين اعتنقوا الإسلام قد رأوه القدوة في السلوك الإسلامي.. وأحسوا بعظمة هذا الدين.و ما يقدمه من سلوك طيب..ومنهج كريم للحياة..

وفي هذا الكون. هناك أشياء تفعل لك. وهناك أشياء تنفعل بك.. فالشيء الذي يفعل لك في الكون يستوي فيه الناس جميعا. كافر ومسلم. ويستوي فيه الناس كل الناس. هذه الأشياء هي: كالشمس مثلا.. لا شمس تشرق كل صباح ولا تخص بنورها كافر أو مسلم. أو شاكرا لله.. أو جاحدا بنعمه.. كلهم سواء.. عطاء الشمس للجميع.. سواء وهي لا تفرق بين شخص وشخص. ولا هواء مثلا تتنفسه كل الكائنات الحية دون أي تمييز.. والماء مثلا يشرب منه كل كائن حي بصرف النظر عن دينه وعقيدته وإيمانه بالله أو كفره. هذه الأشياء تفعل لك كثيرا.. الشمس تعطينا النور ولا طاقة وأسباب الحياة.. إلى آخر ذلك. والأكسجين والهواء يعطينا أسباب الاستمرار في الحياة.ولا ماء يعطينا الحياة نفسها.. ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء:٣٠). فهذه أشياء تفعل لك.وتفعل لك بلا تمييز..أي أنها لا تميز في عطائها بين عاص. وعابد. ومؤمن.وكافر.

نأتي بعد ذلك إلى الأشياء التي تنفعل بك. وارتقاء الإنسان في الكون يتم

فيما ينفعل بك لا فيما يفعل لك. إن ما ينفعل بـك أن فعلـت فيـه ينفعـل.. إذا حرثت الأرض حرثا جيدا ثم وضعت فيـه البـذرة. ثـم واظبـت عـلى رعايتهـا وتوليتها تعطيك ثمرا جيدا.ومحصولا وفيرا. إن بحثت عن المعادن الصالحة لحياة الإنسان في باطن الأرض تعطيك معادتها.،لـو لم تفعـل فإنهـا لـن تنفعـل معهم.. فالذين يعملون ويجدون في الأشياء لتنفعل معهم.. والذين لا يقومون بأي جهد مع الأشياء التـي تنفـل للإنـسان في الأرض لا يتقـدمون.. ويظلـون متأخرين. وهنا يحدث الخلاف بين ارتقاء عـدد مـن النـاس..وتخلـف عـدد منهم. يحدث هذا الخلاف في التعامل مع الأشياء الموجـودة في الكـون التـي تنفعل بك.و لا دخل للـدين في هـذه المـسألة.. فالأشـياء التـي تنفعـل لـك. كالشمس والهواء ولا ماء.وما في الأرض. لا تفرق في عطائها بين مؤمن وكافر وملحد.. والأشياء التي تنفعل بك. ولاتي يجب أن تقـدم لهـا عمـلا لتحـصل على النتيجة.. هذه الأشياء أيضا لا تفرق بـين مـسلم وكـافر ومـؤمن وملحـد. فالكافر الذي يحسن حرث أرضه وريها..ويحـصل عـلى أجـود أنـواع البـذر. ويتعهد الـزرع. يجنـي محـصولا وفيـرا. والمـؤمن الـذي يهمـل الأرض ولا يزرعها ولا ينفعل معها لا تعطيه الثمـرة.. لأنـه لا يطبـق قـوانين الكـون..،لا يعمل لينفعل مع الأشياء التي تنفعل بـه في الـدنيا. والملحـد أو الكـافر الـذي يستخدم أحدث الأساليب العلمية.ويجـد ويـسعى ليكـشف عـن المعـادن في باطن الأرض... تظهر له هذه المعادن. لأنها تنفعل به. والمـؤمن الـذي يتـرك المعدن في باطن الأرض.. ولا يبحث عنه.. لا ينفعل به. ولا يخرج له.

تلك حقيقة كونية يجب أن نعيها جيدا.

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها. ليجذب الإنسان إلى العمل. فمـا هي الزينة في حقيقتها. هي ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبيـة..

فالمرأة مثلا تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل.. وزينة الارض هي أن تصبح أكثر جاذبية للإنسان ليعمل.. فالإنسان حين يرى حديقة جميلة أو عماره فخمة. يتمنى أن يبني أو يعمل مثلها.. فتكون هذه الزينة حافزا له للعمل. فكان الله قد جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبني إليها.. ثم بعد ذلك هل تكون هذه الزينة هي الغاية.. أم لا تكون.. وهنا الابتلاء.. ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود ٦١).. معنى أستعمركم.. أي طلب منكم عمارتها.. وذلك لا يتأتى ألا بأمرين.. أن تبقى الصالح على صلاحه. لا تفسده... وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه. وأقل ما تأمر به هذه الآية. هو أنك لا تأتي للصالح وتفسده. معنى استعمر الأرض. أي أبقى الصالح على صلاحه أو زاد في إصلاحه.

والله يخاطب الشيء بالقوة..والشيء بالفعل. زينة الله على الأرض من أثرين.. آثار خلق الله..والطبيعة التي وهبها لنا. وآثار ما فعله الإنسان بما علمه الله له. ليضيف إلى ذلك.وعندما نقرأ في سورة الكهف.. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً [٨٣] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً [٨٤] فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ (الكهف ٨٣ ، ٨٥).. ومعنى ذلك أننا أعطيناه أسباب المتعة والقوة والحكم في الأرض..ولكنه لم يقتصر على ما أوتي. لم يقتصر على ما فعل له. اتبع هو سببا.. فيما ينفعل له. ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليقول لنا: أن الإنسان مهما يعطي لا يجب أن يكتفي بما أعطي له ولا يفعل شيء. بل يجب أن يأخذ هذا العطاء.ويعمل من أجل أن يضيف إليه.. وينفعل به.. مع العناصر التي خلقها الله لتنفعل بعمل الإنسان في الأرض.. ردت مصداقا للحديث الشريف: لا خير فيمن لا يضيف.. والإضافة هنا بمعناها العام. أي أنك أنت إن استفدت من الكون. وجعل الله الكون في خدمتك.. ... ن تعطي عطاءا للكون. أن تضيف إليه شيئا. وإلا أصبحت

الحياة جامدة وغير متحركة.ولا متطورة. وتوقف تطور البشرية ونموها إذ أن الحياة تتطور من أن يضيف الإنسان من ذاته ما تفاعل به من بيئته. ومع الكون ليصنع ثـ ـديدا.. أي أن الله سبحانه وتعالى ينهانا أن نقف أمام قطعة من الأرض ولا نفعل شيئا ننتظر المطر ثم يظهر نبات. أي نبات.. فنأكل منه. أو ترعى منه الماشية.. ثم بعد ذلك لاشيء.. لابد أن يتعلم كيف يجعل هذه العناصر التي خلقها الله في الأرض لتنفعل به..وتعطيه أحسن النتائج. وهذا معنى الآية الكريمة.. فأتبع سببا. أي أنه لم يقف ولم يقتصر على العطاء الذي أعطى له من الله.

والذي يجب أن نعرفه.. أن منازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة. فقد يكون رجل ذا جاه ومال في الدنيا. أخذ من نعم الأرض الكثير. ومع ذلك مصيره النار.. وقد يكون رجل ليس له حظ في الدنيا رزقه يكاد يكفي قوته. هو من أهل الجنة..تلك حياة.وتلك حياة.. بل أن المترفين في نعمي الدنيا هم عادة أكثر بعدا عن الله من غيرهم.. وللذلك ضرب الله عدة أمثلة في القرآن.. ولكن هذا لا يجب أن يلهينا عن الحقيقة.. وهي أن من يتبع القوانين التي وضعها الله في الأرض. بالنسبة للحياة الدنيا يأخذ نصيبه منها.ومن يتبع قوانين الله بالنسبة للحياة الآخرة.. يأخذ نصيبه منها.

وكما أوضحت.. فإن الله قد أمرنا أن نضيف من الأسباب التي أعطاها لنا في سبيل الرزق.. عملا. لنحصل على أحسن النتائج. وهذا العمل هو نوع من العبادة.. لأننا نطيع قوانين الله في الأرض.. وهو أعطانا أسباب الرفعة في الدنيا. وفي الآخرة. وعلينا أن نأخذ بهذه الأسباب.. ونعمل من أجل الدنيا. ومن أجل الآخرة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص ٧٧).. فإذا كان هناك تخلف في الدول الإسلامية.. فالإسلام نفسه بريء

من هذا التخلف. لأنه وضع أمامنا كل أسباب الرقي والتقدم.. وطلب منا العمل في الحياة الدنيا. حتى يتحقق لنا ثمرة هذا العمل. فإذا كنا قد تركنا أسبابا التقدم التي هي موجودة في الإسلام.. فليس هذا عيب الإسلام.. وإنما العيب في عدم تطبيق تعاليم الإسلام التطبيق الصحيح والسليم.

وإنني أعجب من بعض الناس الذين يفسرون التوكل على الله بأنه دعوة إلى عدم العمل والجهاد.. بينما هو في الحقيقة / .. دعوة للجهاد والعمل. والتأكد من أن النتيجة طيبة. لأن الله يبارك هذا العمل.. ولا تأكد من أن النتيجة طيبة.. لأن الله يبارك هذا العمل.. ويبارك هذا لجهاد. الصادر من قلب المؤمن.ولكن بعض الناس يريدوا أن يضعوا في الدين ما ليس فيه..وإذا كانت المسألة كذلك.. من أن نترك كل شيء لله..ولا نعمل.. فلست أدري. لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم في أبسط الأشياء.. وهو الطعام والشراب. فإذا عطش. فهو يقوم ليشرب.. وإذا جاء الطعام. فهو يأكل ويبذل جهدا في تناول الطعام ومضغه. لماذا لا يترك كل هذا لقدرة الله. إذا كان المطلوب هو عدم العمل. وعدم بذل أي جهد للإنسان..ولماذا يأتي إلى هذه النقطة بالذات..ويضيف عملا إلى ما أعطاه الله.)

إلى هنا أنتهي كلام الشيخ.. وها قد رأينا كيف وبكل بساطة وعمق.. شّخص لنا داء من أهم أدواء الأمة وهو (تخلفها) عن غيرها. وكيف أن هذا التخلف لا علاقة له بالإسلام بل بنا نحن المسلمين وخاصة أولئك الذين تركوا الأسباب أو معظمها متعللين (كذبا وزوراً) بالأسباب.. فإذا أردنا التقدم وأن نجد لأنفسنا موطأ قدم بين الأمم المتقدمة فلابد من الأخذ بالأسباب التي هيأها الله لنا.. وهكذا يمتعنا الشيخ الشعراوي دائماً بكلماته وفهمه العميق لقضيانا وللنفس البشرية.

الشعراوي وشنودة

من القضايا الملحة في السنوات الأخيرة والتي تسبب صداعا في رأس الوطن ووجعاً في قلب مصر.. هي قضية العلاقة بين المسلمين والمسيحيين.. وما أعترى هذه العلاقة في الآونة الأخيرة من توترات والتهابات على جميع الأصعدة.. وتعددت الآراء ما بين متشدد ومتساهل.. والأنكى من ذلك هو ظهور (نوع من تجّار الفتن) والذين أخذوا يزايدون على القضية ويشعلون النار في الحطب (من الجانبين) فكما أن هذا الجانب به متشددين.. فالجانب الآخر أيضاً لا يخلو منهم. وأصبح الموضوع مادة دسمة (لإعلام الإثارة) والبعض يزايد والبعض يحاول التربح من إثارة الفتن وإشعالها إذا خمدت.

وفي ظل هذه الفتن المتلاطمة وقطع الليل المظلم التي اعترت بلادنا في الآونة الأخيرة نلجأ إلى أمثال شيخنا الشعراوي لكي (نتنوّر) بعلمه وبفهمه العميق لأمراض الأمة وقضاياها لنستلهم منه الحكمة والعبرة من خلال فهمه لكتاب الله تعالى والذي أفنى عمره في دراسته وتفسيره.

وقبل أن نعرف رأي شيخنا في هذه القضية سنأخذ خلفية تاريخية مهمة عن العلاقة التاريخية بين المسلمين وأهل والكتاب وذلك من خلال الدكتور / عبد الرحمن عطية الباحث من " سوريا الشقيقة ".

(العلاقات المسيحية اليهودية والعلاقات المسيحية الإسلامية تاريخياً ولاهوتياً:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه أجمعين، إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم ممن حملوا رسالة الله وأدوا الأمانة: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى ١٣).

تمهيد:

الحديث عن العلاقات بين المسيحيين واليهود، وبين المسيحيين والمسلمين، ترافقه كثير من الحساسيات، بسبب ما يتداوله عامة أبناء هذه الملل من روايات حولها، قد يتداخل فيها الصحيح بغير الصحيح، بحيث تبقى الحقيقة غائمة تجاه غير المدقق. ولذا كان من واجب كل باحث في مثل هذه الموضوعات أن يتوخى الحذر لئلا يجنح به الهوى أو تزل به عثرات اللسان إلى غير الحق؛ الأمر الذي يقتضي أن يكون كل كلام في هذا الموضوع متسماً بالدقة وبالصحة، ولا يتأتى ذلك إلا لمن يلتزم الموضوعية في بحثه، ويدعم كل رأي يدلي به بالدليل الذي لا يقبل النقض.

وأنا (الكلام للباحث) في هذه الدراسة ملتزم بهذه الضوابط ومتمثل بالقاعدة الإسلامية في مناهج البحث: «إذا كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل». المصادر التي اعتمدتها في هذا البحث هي المراجع الأصلية في كل من اليهودية والمسيحية والإسلام: "العهد القديم" "التوراة" و"العهد الجديد" "الإنجيل" و"القرآن" وهي الأصول المعتمدة لدى رعايا الملل الثلاث. أضفت إليها بعض المراجع الإسلامية والمسيحية.

العلاقة مع الآخر

العلاقات بين المسيحيين واليهود، والعلاقات بين المسيحيين والمسلمين، علاقات ثنائية الأطراف، وهناك طرف ثالث هو (الآخر)، يحسن أن نعرج إلى الحديث عن العلاقة معه بالنسبة لكل من هذه الأطراف، وبكثير من الإيجاز.

الآخر بالنسبة للمسيحية، مهما كان انتماؤه أو اعتقاده، مُكَرَّم، [illegible] إليه حتى في أشد حالات عدوانه على المسيحي، مثال واحد من أمث[illegible]ـرة تعج بها صفحات الأناجيل يترجم عن الروح العامة للتعامل مع الآخر في المسيحية، وهو قول السيد المسيح ننقله عن الإصحاح السادس من الإنجيل الذي رواه القديس لوقا، الفقرات من ٢٧-٣٢:

أما أنتم أيها السامعون، فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضيكم، وباركوا لاعنيكم، وادعوا للمفترين الكذب عليهم... افعلوا ما أردتم أن يفعل الناس لكم، فإن أحببتم من يحبكم، فأي فضل لكم؟.

فهل هناك تَسام في التسامح وفي الحسّ الإنساني أروع مما سمعنا؟

هذا في المسيحية، أما في الإسلام، فإن الله يؤكد لجميع البشر أنه ربهم جميعاً، لا رب فئة منهم، فكان مفتتح أول سورة في القرآن هي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكان مفتتح آخر سورة في القرآن هي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. وكان مقياس الإسلام في التعامل بين البشر جميعاً، لا بين المسلمين وحسب، هو العدل، حتى في أشد حالات العداوة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة.٨).

وأيضا أترك لكل منكم التعليق على الروح التي تملي هذه العلاقات مع الآخر. هذا في المسيحية، وهذا في الإسلام. أما في اليهودية، فقد قسم اليهود الناس إلى قسمين: (يهود) و(جوييم)، الذين تسميهم أسفار "العهد القديم" "الأمم" والذين يطلق عليهم حديثاً اسم "الأميين"(١) وهم جميع الأمم غير اليهودية.

---

(١) جوييم: اسم لشعب غير اليهود هو (تدعال). انظر "العهد القديم"، سفر التكوين، الإصحاح ١٤ الفقرة ١ و٢، ثم أصبح يطلق على كل شعب من غير اليهود، وهم الذين يسميهم "العهد القديم"==

الأمم، أو الأميون، هم "الآخر" عند اليهود، والنظرة إليهم في معظم أسفار "العهد القديم" نظرة ازدراء، وهم يستحقون القتل، ومن لا يقتل منهم يجب أن يكون تابعاً ذليلاً لليهود. والنصوص في ذلك كثيرة، نجتزئ بعضها في هذه الدراسة.

ورد في سفر القضاة (١ و٢) في الإصحاح الثالث - الفقرة ١ - أن بعض سكان مدينة جبعون تظاهروا بأنهم غرباء فقراء، ولما كشف يشوع أمرهم سألهم عن السبب فأدلوا له بسبب مخاوفهم، وقالوا:

أُخْبِرَ عبيدُك (أي سكان جبعون) إخباراً بما أمر به الرب إلهك موسى عبده أن يعطيكم كل الأرض ويبيد جميع سكان الأرض من أمامكم.

وفي سفر يشوع - الإصحاح الثامن - الفقرات ٢٤ و٣٥ ورد حول حرب إسرائيل لشعب (عاي):

إن جميع إسرائيل رجع إلى (عاي)، وضربوها بحد السيف، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل (عاي).

في النص الأول إشارة إلى إذن الرب بإبادة جميع سكان الأرض. وفي النص الثاني إبادة شعب مدينة رجالاً ونساء.

اغتصاب الأرض وتخريبها، وتحليل القتل والإبادة لغير اليهود ممن يقفون ضدهم، أو لا يقفون معهم، هي قيم سلبية لا إنسانية تعجّ بها صفحات "العهد القديم"، ومنها، وغير النصين السابقين، نسمع أيضاً في سفر الخروج - في الإصحاح ٢٣ والفقرات ٢٣، ٢٤ - خطاب الرب لموسى:

==(الأمم) كما ورد في سفر القضاة (١ و٢) الإصحاح ٢ - الفقرة (١ و٢): «فأنا أيضاً لا أعود أطرد إنساناً من أمامهم من (الأمم) الذين تركهم يشوع»، وكما ورد في سفر القضاة (٢ و٣) الإصحاح ٣ الفقرة ١: «فهؤلاء (الأمم) الذين تركهم الرب ليمتحن بهم إسرائيل».

إن ملاكي يسير أمامك، ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفِرْزيّين والكنعانيين والحويّين واليبوسيين فأبيدهم. لا تسجد لآلهتهم، ولا تعبدها، ولا تعمل كأعمالهم. بل تبيدهم وتكسر أنصابهم(١).

الإبادة هنا لشعوب كثيرة لم تكن من اليهود، لا لشعب واحد يحاربهم وحتى لو كان الأمر مع شعب واحد محارب فهل يجوز، إنسانياً وأخلاقياً ودينياً، إبادتهم جميعاً؟

وفي المزمور السابع والثلاثين بعد المائة نسمع في الفقرتين ٨ و٩: «يا بنت بابل المخربَة، طوبى لمن يجازيك جزاءَك الذي جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة»(٢).

صحيح أن شعب بابِل سبى اليهود وشردهم، ولكن هل يجوز، وفي أي عرف من الأعراف، سحق الأطفال لأن شعبهم تغلب على شعب آخر.

وفي الإصحاح الثالث من سفر الملوك الثاني، الفقرة ١٨ و١٩ جاء ما يلي:

فيدفع - أي الرب - موآب إلى أيديكم فتضربون كل مدينة مصحَّحَة، وكل مدينة مختارة، وتقطعون كل شجرة طيبة، وتَطُمُّون جميع عيون الماء، وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة(٣).

وفي الفقرات منْ ١٣ إلى ٢٦ من الإصحاح التاسع من سفر التكوين ذكر لأبناء نوح الذين خرجوا من الفلك سام وحام ويافث وأن حام أبو

(١) العهد القديم، بيروت، ١٨٩١، ص. ١١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص. ٨٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص. ٥٣.

كنعان، وجاء فيه: «ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته»(١).

أظن أن هذه الأقوال، وهي قُلٌّ من كل، لا تحتاج إلى أي تعليق وينبغي عليه أن ما جاء في البروتوكولات تمليه الروح نفسها التي سمعنا ببعض آثارها في النصوص السابقة ومن وحي هذه التوجهات والمواقف مع الآخر؛ ستحدد أيضاً علاقة اليهود بالمسيحيين، هذه العلاقة التي هي إحدى مادتي البحث في دراستنا هذه.

العلاقات الثنائية بين المسيحية واليهودية، وبين المسيحية والاسلام كثيرة ومتشعبة، وتضيق كثير من الكتب عن استيعاب تفصيلاتها؛ الأمر الذي حملني على تركيز دراستي حول نقطتين أساسيتين فقط، هما من أهم ما يتصل بأصول العقيدة في الملل الثلاث، وهما الموقف من السيدة مريم، ومن السيد المسيح عليهما السلام عقيدياً - أي من وجهة النظر اللاهوتية - ومن ثم تداعياتهما في التعامل مع الآخرين تاريخياً، ومع التساؤل هل بقيت المواقف اللاهوتية التي جاءت في أصول العقائد على حالها؟ أم دخلها شيء من التغيير؟ وإذا حصل ذلك، فما هي المسوغات التي اقتضت ذلك، وهل هي بمستوى تلك الأصول؟

علاقات اليهود بالمسيحيين:

المسيحية جاءت زمنياً بعد اليهودية بزمن طويل. ولكن لما كان مجيئها إلى مجتمع يهودى فقد كان طبيعياً أن يتعامل معها هذا المجتمع بالأساليب نفسها التي اتبعها في تعامله مع الآخرين ... تجلى هذا التعامل في غاية الوضوح مع أول رمزين أصيلين ومعتبرين في المسيحية، وهما السيدة مريم والسيد المسيح عليهما السلام.

---

(١) المصدر نفسه، صص. ١٣-١٤.

موقف اليهود من السيدة مريم:

السيدة مريم، أم السيد المسيح عليه السلام، عذراء، ولَدَتْ به بمعجزة، وقد جاءت أخبار هذه الولادة شديدة الإيجاز في المصادر المسيحية، أشار إليها باقتضاب إنجيل متى، وبقليل من التفصيل إنجيل لوقا بينما أفاض المصدر الإسلامي "القرآن" في قصة الولادة وفي تكريم السيدة مريم إفاضة واسعة ستأتي في موضعها.

جاءت رواية إنجيل لوقا في الإصحاح الأول على الصورة التالية:

أرسل الله الملاك جبرائيل إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها وقال: السلام عليك أيتها الممتلئة نعمة. الربُّ معك. فاضطربت لهذا الكلام وقالت في نفسها: ما معنى هذا السلام؟ فقال لها الملاك: يا مريم لا تخافي. قد نلت حظوةً عند الله، فستحبلين وتلدين ابناً تسمينه "يسوع" فيكون عظيماً، وابنَ العليّ يُدعى، ويُوليه ربُّنا عرش أبيه داود. فقالت مريم للملاك: أنّى يكون هذا ولا أعرف رجلاً. فأجابها الملاك: إن روح القدس يحل بك، وقدرة العليّ تظللك، لذلك سيكون المولود ذكراً، وابنَ الله يدعى.

السيدة مريم، فتاة عذراء حملت ووضعت طفلاً، ومألوف الناس في عالم الأسباب أن الطفلَ وَلَدُ سِفاح وأن أمه زانية. هذا ما وَقَرَ في أذهان المجتمع اليهودي حينذاك، بل أن خطيبها الذي ذكرته الأناجيل، والذي لم يكن قد دخل بها بعد، راودته الشكوك أيضاً لولا أن صحح له الأمرَ ملاكُ الرب في الْحُلم، فقد جاء في الإصحاح الأول من إنجيل متّى:

ولما كانت مريم أمهُ مخطوبة ليوسف، وُجدت قبل أن يتساكنا حاملاً من الروح القدس، وكان يوسف زوجها باراً، فلم يرد أن يَشْهَرَ أمرَها، فَعَزَم

على تركها سراً. وما فكر في ذلك حتى تراءى له ملاك الرب في الحلم وقال له: يا يوسفُ بنُ داود لا تخف أن تجيء امرأتك إلى بيتك، إن الذي تحمله هو من الروح القدس، وستلد ابناً قسمّه يسوع(١).

الزانية في التشريع اليهودي تُرْجَم حتى تموت، جاء هذا في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر تثنية الاشتراع في "العهد القديم". ومريم اتهمت بالزنا، وظاهر أمرها يقتضي التصديق بذلك، فلماذا لم يرجموها؟ أو على الأقل لماذا لم يعاقبوها؟ لابد أن هناك مانعاً حال دون ذلك، ولابد أن يكون هذا المانع دليلاً لا يقبل النقض، فما هو هذا الدليل الذي برأها ثم حماها؟

المراجع القديمة لم تذكره، والمصادر المسيحية سكتت، ولم تأت حوله بشيء يشفي الغُلَّة. ولكن القرآن، المصدر الإسلامي الأول هو الذي كشفه، وهو دليل رباني لا يقبل النقض، وسيجيء تفصيله في موضعه.

وعلى الرغم من وجود الدليل الذي جَبَّ أيديَ اليهود عن السيدة مريم، فإن ألسنة السوء لديهم، ما زالت، وحتى اليوم، تلهج بالتعريض بها، وبقذفها بأشنع التهم.

موقف اليهود من السيد المسيح عليه السلام:

السيد المسيح آية من آيات الله، وحياته كلها تشهد بذلك، صرّح بذلك رجل تقي صالح اسمه سِمْعان، وكان روح القدس قد نزل به وبشره بالسيد المسيح قبل أن يولد، ولما رآه بعد ولادته بين يدي أمه، وعمره أربعون يوماً حمله ثم خاطبها بقوله: «إنه جُعِل لسقوط كثير من الناس، وقيام كثير منهم من بني إسرائيل، وآية ينكرونها»(٢). ويقول شارح هذه النسخة من الإنجيل:

(١) العهد القديم، المصدر السابق، ص. ٢٨٧.
(٢) انظر "الإنجيل" الذي رواه القديس لوقا. الإصحاح الثاني، الفقرات ٢٥ إلى ٣٥؛ الكتاب ==

«يسوع آية الله الكبرى، بيد أن رؤساء اليهود أنكروها»(١).

اضطلع السيد المسيح يحمل رسالة الله وهو في الثلاثين من العمر، كما يروي إنجيل لوقا:

ولما اعتمد الشعبُ كله، اعتمد يسوعُ أيضاً، وبينما هو يُصلي، انفتحت السماء، ونزل الروح القدس عليه في صورة جسم كأنه حمامة، وأتى صوت من السماء يقول: أنت ابني الحبيب عنك رضيت(٢). وكان عمر يسوع هند بدء رسالته في نحو الثلاثين من عمره.

كان السيد المسيح عليه السلام، قبل تكليفه بالرسالة متحنثاً، يتعبد الله، ويخدم الناس ويعمل الخير ويدعو إلى المحبة والتسامح، وهي قيم تخالف ما ألفه اليهود في تعاملهم، من أنماط الظلم والاستغلال والتعالي حتى مع شعبهم اليهودي. وحين كُلِّف عليه السلام بالرسالة جهر بالدعوة وأعلن إنشاء الكنيسة: «على الصخر سأبني كنيستي، فلن تقوى عليها أبواب الجحيم»(٣)، وأمعن في أعمال البر، وعزز الله سبحانه نشاطه بالمعجزات من إحياء الموتى وشفاء المرضى، فالتفّ حوله الناس وكثر محبوه، واصطفي مجموعة من تلاميذه تَوَسَّم فيهم الخير، هم الحواريون الاثنا عشر؛ الأمر الذي أحدث خلخلة في البناء الديني والاجتماعي في المجتمع اليهودي والذي ثارت ثائرة المتنفذين فيه من الأحبار والكتبة والشيوخ. ومعظمهم من الفِرّيسيين والصدوقيين.

==المقدس وأعمال الرسل، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط. ٣/ ٤/ ١٩٧٣، ص. ١٧٦.

(١) المصدر نفسه، ص. ١٧٧.

(٢) المصدر نفسه، الفقرات ٢٠ و٢٢ و٢٣، ص. ١٨١.

(٣) إنجيل متّى: الإصحاح ١٦ الفقرة ١٨.

الأحبار هم رؤساء الكهنة، وكبيرهم حينذاك (قيافا)، والشيوخ هم وجهاء اليهود وأعيانهم والفِرّيسيون، وكانوا يتبعون مذهباً دينياً متشدداً وكأن أكثر الكتبة منهم.

والصديقيون هم حزب ديني سياسي، أكثر أعضائه من الأحبار والكهنة؛ أما الكتبة فهم علماء الكتاب المقدس وأكثرهم من الفِرّيسيين، وقد أخذ السيد المسيح على معظمهم رياءهم وكبرياءهم(١).

ولعلاقتهم العنيفة والعميقة بإيذاء السيد المسيح، نشير إلى بعض أقواله فيهم؛ فمما قاله لتلاميذه مُحَذِّراً من هؤلاء الكتبة:

إياكم والكتبة، يحبون المشي في الجُبَب، ويتوقون إلى تلقي التحيات في الساحات، وإلى صدور المجالس في المجامع، والمقاعدَ الأوَل في المآدب. يأكلون بيوت الأرامل، وهم يظهرون أنهم يطيلون الصلاة. هؤلاء سينالهم العقاب الأشد(٢).

ومما قاله أيضاً في الكتبة وفي الفِرّيسيين:

الويل لكم أيها الكتبة والفِرّيسيون المراءون. تؤدون عُشْرَ النعنع والشبث والكمون، بعدما أهملتم ألزم ما في الشريعة: العدل والرحمة والوفاء... يأيها الذين يُصَفُّون الماء من البعوضة ويبتلعون الجمل... أيها الحيات أولاد الأفاعي، أنّى لكم أن تهربوا من عقاب جهنم. هأنذا أرسل إليكم من أجل ذلك أنبياء وحكماء وكتبة، ففريقاً تقتلون وتصلبون، وفريقاً في مجامعكم تجلدون، ومن مدينة إلى مدينة تُطاردون، حتى يقع عليكم كل دم زكي سفك على الأرض، من دم هابيل الصدّيق، إلى دم زكريا بن بَرَكيا الذي قتلتموه بين

---

(١) انظر قسم (فوائد) من فهرس "الكتاب المقدس" الإنجيل وأعمال الرسل، ص. ٤٦٠ وما بعدها.
(٢) إنجيل لوقا: الإصحاح ٢٠، الفقرات ٤٥ إلى ٤٨.

الهيكل والمذبح. الحقَّ أقول لكم: هذا كله سيقع على هذا الجيل(١).

هذه الإفاضة في التعريف بحقيقة هؤلاء الناس من وجوه المجتمع ممن ناصبوا السيد المسيح أشد العداء، قد تكون ضرورية لتفسير مواقفهم العنيفة تجاهه، لأن هذه المواقف تمثل نموذجاً لا يغاير سلوكهم العام وحسب، بل هو جزء من لحمته ومن طبيعته نفسها.

الأناجيل كلها تحدثت عن ألوان الاضطهاد التي مارسها قادة اليهود ضد السيد المسيح كما تحدثت عن المؤامرة التي أدت إلى القبض عليه ومحاكمته، ومن ثم اتخاذ القرار بقتله، وانتهت به إلى الصلب والقتل كما يعتقدون.

بدأت المؤامرة باختراق الصف المحيط بالسيد المسيح، على عادة جميع المؤامرات بالبدء باختراق داخل صفوف الجبهة المعادية، وذلك بعد أن باعهم أحد الحواريين وهو يهودا الاسخريوطي ضميره مقابل مبلغ من المال على أن يسلمهم السيد المسيح. واهتبل يهودا إحدى الفرص وجاء بصحبة عصابة مدججين بالسلاح فقبضوا عليه وساقوه إلى دار (قيافا) عظيم الأحبار. وقد يتساءل سائل، كيف يقبضون عليه وكيف يسلمه الله، وهو رسوله، وهو ابنه في اعتقاد من يؤمنون به، وقد أعطى هو الجواب على ذلك في قوله لواحد ممن حاولوا الانتصار له: «أو تظن أني لا أستطيع أن أسأل أبي، فَيَمُدّني الساعة بأكثر من اثني عشر فيلقاً من الملائكة؟ ولكن كيف تتم آيات الكتب التي تقول: إن هذا ما يجب أن يحدث...»(٢).

وجرت المحاكمة برئاسة (قيافا)، وجيء بكثير من شهود الزور، ثم

(١) إنجيل متّى: الإصحاح ٢٣، الفقرات ٢٤ إلى ٣٥.
(٢) المصدر نفسه، الإصحاح ٢٦، الفقرات ٥٣ إلى ٥٥.

وجّه إليه (قيافا) سؤالاً قال فيه:

أستحلفك بالله الحي لتقولنّ لنا: أأنت المسيح ابن الله. فأجاب يسوع: أنت قلت. وأنا أقول لكم: سترون بعد اليوم ابنَ الإنسان جالساً عن يمين القدرة، وآتياً على غمام السماء. فشق عظيم الأحبار ثيابه وقال: لقد كفر، فأي حاجة بنا إلى الشهود، وقد سمعتم كفره، فما قولكم؟ فأجابوه: يستوجب الموت. فبصقوا في وجهه ولطموه، ومنهم من لكمه(١).

كان الرومان يحكمون البلاد سياسياً، وكان الحاكم حينذاك هو (بيلاطس)، وكانت هذه المحاكمة دينية، ولابد لتنفيذ حكم الموت من موافقة السلطة التنفيذية، وحُمِل يسوع ومعه قرار المحكمة إلى الحاكم الروماني بيلاطس ليصدق الحكم، وكان بيلاطس على شيء من الإنصاف، ولم يقتنع بالحكم وحاول دفع الأمر أكثر من مرة، ولكنهم كانوا يصرون على التنفيذ، وعبّؤوا الشعب حول دار الحكم وهم يبالغون في الصياح: «لِيُصْلَب». فلما رأى بيلاطس أنه لم يستفيد شيئاً، بل تفاقم الاضطراب، أخذ ماء وغسل يديه بمرأى من الجميع وقال: «أنا بريء من هذا الدم. أنتم وشأنكم فيه». فأجاب الشعب بأجمعه «دمه علينا وعلى أولادنا»، فجلد يسوع ثم أسلمه للصلب(٢).

وفي الطريق إلى الصلب تبعه جمع كبير من الشعب، ومن نساء كن يضربن الصدور ويَنُحْنَ عليه، فالتفت يسوع إليهن وقال:

يا بنات أورشليم، لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن، فسوف تأتي أيام يقال فيها: طوبى للعواقر، وللبطون التي لم تلد، والثَّدْيَ التي لم

(١) المصدر نفسه، الإصحاح ٢٦، الفقرات ٦٣ إلى ٦٨.
(٢) المصدر نفسه، الإصحاح ٢٧،الفقرات ٢٣ إلى ٢٦.

ترضَع، ويقال للجبال انهدّي علينا، وللتلال ادفئينا(١).

وكان الصلب والموت يوم الجمعة، واستأذن أحد الوجهاء الصالحين واسمه (يوسف الرامي) بيلاطس في حمله ودفنه فكفنه ودفنه في قبر حفر بالصخر، وأغلق القبر، وجاء بعض النسوة يوم الأحد يحملن الطيب للقبر فوجدنه مفتوحاً وخالياً(٢). وكانت قيامة السيد المسيح بعد الموت، كما في روايات الأناجيل.

هذه هي المأساة التي نفذها اليهود تجاه المسيحيين الذين يتجرعون غُصَصَها حتى اليوم فقد قتل اليهود رمزهم الذي هو نبيّ الله، والذي هو اعتقادهم ابن الرب. وهل هناك أقسى من هذه الفاجعة التي ارتكبها اليهود عليهم جميعاً عبر جميع طوائفهم، وخلال جميع فترات التاريخ حتى اليوم. وهل هناك من يجرؤ على الادعاء بأن اليهود قريبون من المسيحيين سواء على مستوى اللاهوت أو على مستوى مجريات الأحداث في التاريخ.

علاقات المسلمين بالمسيحيين:

الإسلام جاء بعد المسيحية بمدة طويلة، وكان المجتمع في الجزيرة العربية آنذاك، وفي جوارها، يضم أشتاتاً من الملل، منهم اليهود والنصارى والصابئة والمشركون وعَبَدَةُ النار.

وعبر موضوع دراستنا، نذكر أن اليهود، كعادتهم، وكما فعلوا مع المسيحيين من قبل، ناصبوا الدعوة الجديدة العداء، وتعاملوا معها بأفانين من المكر ومن الإيذاء، ولا حاجة بنا لتفصيل ذلك لأن الخوض فيه خروج على منهجية البحث.

---

(١) إنجيل لوقا: الإصحاح ٢٣ الفقرات ٢٧ إلى ٣١.
(٢) إنجيل مرقس: الإصحاح ١٦ الفقرات ١ إلى ٦.

أما المسيحيون، فقد كان تعاملهم مع المسلمين، ومنذ اللحظات الأولى، موسوماً بالتعاطف، جرياً على سنن المسيحية في الحب وفي التسامح، وسجل التاريخ لهم مواقف كريمة تجاه الإسلام والمسلمين، ويقف المسلمون منها دائماً موقف الإجلال والتقدير، ونذكر بإشارات عجلى بعضاً منها مما أفاضت بتفصيلاته كتب السيرة وكتب التاريخ، وفي بداياتها كان تنبيه الراهب بَحيرا لأبي طالب عم الرسول ﷺ في تجارته إلى الشام، والرسول صغير، تنبيهَهُ إلى المخاوف من غدر اليهود بابن أخيه. وبعدها، وبعد إعلان الرسالة، هناك مواقف البر والعدل من النجاشي للمسلمين في هجرتَي الحبشة، وهناك أيضاً المعاملة الكريمة من ملوك النصارى في الجوار للرسل الذين بعث بهم الرسول ﷺ إلى هؤلاء الملوك يحملونِ إليهم رسائله، وهم النجاشي في الحبشة والمقوقس في مصر، وهرقل في بلاد الروم.

وفي المقابل، فإن المسلمين، بدوافع من إيمانهم برسالات الله، ومن القيم التي أرساها دينهم الجديد، ومن الوفاء الذي فُطرت عليه جبّلة العرب حملة الرسالة آنذاك، كان لهم موقف مماثل تجاه المسيحيين. ففي مكة حين كان المسلمون في غاية الضعف، وفي أشد حالات الضنك، تعاطفوا في كثير من الحزن مع الروم النصارى، في خسارتهم في إحدى المعارك إزاء الفرس المشركين من عبدة النار، وكان مصدر حزنهم إيمانهم بأن هزيمة الروم هي هزيمة للإيمان أمام الشرك، في الوقت الذي انعكست فيه الآية مع مشركي مكة الذين أعلنوا فرحتهم بانتصار الشرك على الإيمان، ونزلت بهذه المناسبة آية في القرآن الكريم تسجل الْحَدَث وأصداءَه، ثم تبشر المسيحيين بنصر قريب على الفرس، يفرح به المؤمنون، وكانت هذه الآية مطلعاً لسورة كاملة سميت باسم سورة الروم، والآية هي: ﴿ الم [١] غُلِبَتِ الرُّومُ [٢] فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ [٣] فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن

بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ [٤] بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [٥] وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:١/ ٦).

وبالفعل تحقق وعد الله وتحقق هذا النصر بعد مدة قريبة، في سنة ٦٢٨ م، ونجح المسيحيون في استرداد الصليب الكبير الذي كان الفرس قد سلبوه منهم، وهذا ما جعل المسيحيين يفرحون بذكرى استرداده سنوياً في عيدهم المسمى "عيد الصليب"(١). ومن ذلك توجيه الرسول ﷺ بعض المسلمين إلى الهجرة إلى الحبشة، وكانت على المسيحية، دفعاً لأذى قريش عنهم قائلاً: «إن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده، وهي أرض صدق». ومن ذلك أيضاً استقباله لوفد نصارى نجران في مسجده وطلبه منهم أن يقيموا صلاتهم فيه واستقباله لعدي بن حاتم الطائي المسيحي في مسجده وفي بيته.

هذه بعض نماذج من التعامل الواقعي مع المسيحيين في مطلع الرسالة الإسلامية، والذي استمر على النهج نفسه على امتداد التاريخ الإسلامي كله.

وأما في أصول العقيدة التي يفرض على كل مسلم الالتزام بها وعدم اجتراحها في أي زمان ومكان، فإن برّ النصارى ومودتهم تمثل جزءاً منها، وآيات كثيرة من القرآن الكريم، ونصوص كثيرة من الحديث الشريف تؤكد هذه القيمة بكل قوة وبشكل لا يحتمل أيَّ لَبْسٍ ونكتفي منها بنموذج واحد يمثل أجلى صورها، وهو قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة:٢٨).

(١) انظر كتاب "من يحمي المسيحيين العرب"، لفيكتور سحاب، دار الوحدة، بيروت، ١٩٨٠، ص. ٢٩.

موقف المسلمين من السيدة مريم:

الحديث عن السيدة مريم لم تُفِضْ فيه المصادر المسيحية كما أفاضت فيه المصادر الإسلامية قرآناً وسنة. وقصة حملها وولادتها التي وردت في القرآن الكريم تضم تفصيلاً لجميع المراحل الزمنية والواقعية التي استغرقها هذا الحدث العظيم. ورواية المسلمين لها تثير في نفوسهم دائماً كل مشاعر الغبطة والابتهاج. كما أن اطلاع المسيحيين على هذه الرواية يثير في نفوسهم المشاعِرَ نفسَها المكونة لدى المسلمين، ولديّ شواهد من أقوال بعض كبار رجال الكنيسة وعلى مستوى العالم تشيد بموقف الإسلام والمسلمين من مريم ومن عيسى عليهما السلام.

لقد بدأت قصة مريم في القرآن من قبل أن تخلق مريم نفسها، وذلك عبر الحديث عن أمها حنة زوجة عمران، وكانت من العابدات الصالحات، وكانت قد أسنَّت، واشتهت الولد، ونذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً - أي حبيساً - في خدمة بيت المقدس(١)، وجاءت رواية هذا النذر في القرآن: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران:٣٥).

وتساوقت الآيات في عدد من المواضع في القرآن الكريم تتابع الحدث خطوة خطوة. لقد وضعت أم مريم، ولكن المولود جاء على غير ما نذرت. لم يكن المولود ذكراً كما كانت تتمنى، بل كان أنثى، وسلمت المرأة الصالحة أمرها إلى الله، وسمّتها مريم وحصّنتها بإعاذتها بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران:٣٦).

---

(١) انظر البداية والنهاية، ج ٢، ص. ٥٦.

وأحسن الرب الكريم قبولها وأحسن إنشاءها، وكفَلَها زكريا ليرعاها، وخصّها بكرامات لم تكن مألوفة عند الناس: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران٣٧).

وزادها الله سبحانه كرامة، وأغدق عليها صفات الطهر والتعبد، وفضّلها على نساء العالمين، وأبلغها بذلك عن طريق الملائكة تهيئة لنفسها للحدث العظيم المرتقب: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ [٤٢] يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (آل عمران:٤٢/ ٤٣).

واستجابت مريم لأمر ربها، وابتعدت عن الناس، وخَلَتْ بنفسها للعبادة: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً [١٦] فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً ...﴾ (مريم:١٦/ ١٧).

ولكن هذه الخلوة التي اختَلَتْها للتعبد اهتزت حين فوجئت بمن يقتحمها عليها، وكان هذا المقتحم هو الروح الأمين جبريل عليه السلام، الذي تمثّل أمامها بصورة البشر: ﴿... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ (مريم:١٧). ولنتصوّر نحن الآن حالة الروع النفسية التي اعترت مريم حين رأت - وهي منفردة عن الناس في مكان قصي - بشراً ينتصب أمامها، ولكنها تجلدت، وتجرأت، ودار بينهما الحوار الطريف التالي: ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً [١٨] قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً [١٩] قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً [٢٠] قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً

مَّقْضِيّاً ﴾ (مريم:١٨/ ٢١). وجاءتها الملائكة بعد جبريل لتحدثها بتفصيل عن هذا الولد وصفاته وعمّا سيكون له من شأن: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [٤٥] وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران:٤٥/ ٤٦)، وناجت مريم ربها ضارعة إليه، مكررة عذريتها، مستغربة ما تُبَشَّر به من الولد: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ... ﴾ (آل عمران:٤٧)، وجاءها الجواب الحاسم: ﴿ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:٤٧).

لقد نال مريم من الذعر ما ينال كل بكر طاهرة بتول حين ينسب إليها حمل ووضع، ولكنها صبرت لأمر الله ثم.... ثم أحست بالحمل وشعرت بالحرج وازدادت بعداً عن الناس: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ (مريم:٢٢). وبعد الحمل مخاض، لجأت معه إلى جذع نخلة تستند إليها، وتناجي نفسها متمنية الموت على الفضيحة المحتملة: ﴿ فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ (مريم:٢٣).

ولكن رحمة ربها لم تتركها في هذا القلق، وجاءها صوتٌ يطمئنها، صوت جبريل أو صوت الوليد - على اختلاف لدى المفسرين - يطلب منها أن تدع الحزن جانباً، وأن أمر معاشها مؤمّن من خلال جدول ماء بقربها ورطب جنيّ تساقطه عليها النخلة التي لجأت إليها: ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً [٢٤] وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً [٢٥] فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ (مريم:٢٤/ ٢٥/ ٢٦).

وجاءها التوجيه بالاستعداد للرد على هجوم الناس إذا رأوها وطفلها، وذلك بأن تمتنع عن الكلام معهم: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ

لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً ﴾ (مريم:٢٦).

وحدثت المواجهة، وابتدأ الهجوم، ورُوّعت بأقسى اتهام: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً [٢٧] يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ (مريم:٢٧/ ٢٨).

هنا، الاتهام صريح، ولابد معه من عقاب، ولكنهم لم يعاقبوها، ولا شك أن الحائل دون ذلك كان دليلاً قاطعاً لا يقبل النقض فما هو؟ لقد كفّ اليهود عن العقاب، ولكنهم لم يعلنوا البراءة، ولم يذكروا الدليل الذي منعهم من العقاب، كما أن المصادر المسيحية سكتت ولم تشر إليه ولكن القرآن وهو المصدر الإسلامي الأول كشف هذا الدليل وهو دليل رباني جاء على شكل معجزة حين تكلم الطفل الرضيع: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ (مريم:٢٩). ولكن الصبي، ابتدر الجواب عن أمه: معرفاً بنفسه: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً [٣٠] وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً [٣١] وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً [٣٢] وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ (مريم:٣٠/ ٣٣)، إنه عيسى: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (مريم:٣٤). وأخرس الله ألسنتهم بهذه المعجزة وهي كلام الطفل الرضيع، فكفوا عن العقاب كما أسلفنا، ولكنهم، بحكم طبيعتهم، لم يكفوا عن العدوان.

ففي بمريم فخراً لدى المسلمين ولدى النصارى - على السواء - وعدا أنها أم لنبي عظيم - ذلك الإجلال الذي كرمها الله ورسوله به، فحيثما ذكرت في القرآن ذكرت موصوفة بالطهر والعفاف: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (التحريم:١٢). وهي صدّيقة ﴿... وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (المائدة:٧٥). وقد كذب الله اليهود أبلغ تكذيب حين افتروا عليها وعلى عفتها بالبهت والكذب

﴿... وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ (النساء:١٥٦).

وسجل لها رسول الله ﷺ مكانة لا تُدانَى حين نعتها بأنها من خير نساء الدنيا: «خير نسائها مريم ابن عمران وخير نسائها خديجة»(١).

وحين قال عنها: «لم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون»(٢). وحين قال أيضاً: «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان غير مريم، وابنها»(٣)، ويتلو أبو هريرة راوي هذا الحديث الآية الكريمة على لسان أم مريم: ﴿وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران:٣٦)(٤).

ولعل من طريف العادات عند مسلمي مدينة حلب بالذات، أن يقدموا لكل نُفَساء صبيحة ولادتها هدية تتمثل في سفرة عامرة بالطعام - وبالحلوى منها بشكل خاص - ويسمونها «سفرة مريم». وتعليلها لديهم أن السيدة مريم حين وضعت طفلها كانت وحيدة، وحزينة ولم يفرح لها أحد بالمولود، فهم يعوّضونها، وبعد آلاف السنين، عما فقدته من البر، وكأنهم يشاركونها فرحتها بمولودها العظيم.

موقف المسلمين من السيد المسيح عليه السلام:

أما عيسى عليه السلام، فهو نبيّ الله ورسوله، وقد أشاد الإسلام بذكره وبسيرته، والآيات التي تحدثت عنه كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿... ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ

(١) صحيح البخاري، ج ٤، ص. ٣١٨ (كتاب الأنبياء).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) صحيح البخاري، المصدر السابق، ج ٤، ص. ٣١٨ (كتاب الأنبياء)؛ وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، ج ٧، ص. ٩٦.
(٤) المصدران نفسهما.

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ (الحديد:٢٧)، ومنها: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء:١٧١)، ومنها ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (البقرة:٨٧ و٢٥٣)، ومنها ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (مريم:٣٤)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الأنعام:٨٥).

أما محمد رسول الله فقد قال معظماً شأن عيسى عليه السلام:

من شهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدُ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل(١).

وكان يعطي عيسى عليه السلام من بين الأنبياء مكانة خاصة، فيقول في موضع: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاّت(٢)، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»(٣)، كما يقول في موضع آخر: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبيّ»(٤). بل لقد بشر بأن عيسى عليه السلام سيعود إلى الدنيا في آخر الزمان مهدياً وحكيماً مقسطاً(٥).

ولابد من التأكيد - صوناً للحقيقة والتاريخ - بأن المسلمين حين يحيطون عيسى وأمه عليهما السلام بهالات من التقدير، إنما يفعلون ذلك، لا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم"، ج ٤، ص. ٣١٩.
(٢) العلات، بنو أمهات شتى من رجل واحد. (القاموس المحيط، مادة «علل»).
(٣) صحيح البخاري، المصدر السابق، ج ٤، ص. ٣٢٣.
(٤) المصدر نفسه؛ وصحيح مسلم - كتاب الفضائل، ج ٧، ص. ١٤٣؛ وسنن أبي داود - الحديث رقم ٤٦٧٥.
(٥) انظر مسند أحمد بن حنبل، ج ٢، ص. ٤١١؛ وسنن الترمذي، الحديث رقم ٢٢٣٣؛ وسنن ابن ماجة، الحديث رقم ٤٠٧٧.

من باب المجاملة، وإنما يفعلونه بدافع من إيمانهم، واستجابة منهم لأمر الله، وإثباتاً لعلمهم اليقيني به.

إن أذى اليهود للمسيحيين لم يتوقف بعد أن فعلوا ما فعلوه بالسيد المسيح، وبقي اضطهادهم لهم وللكنيسة مستمراً لأزمات طويلة، فقد نقموا منهم استمرار دعوتهم وإقبال الناس عليهم وناصبوهم العداء دائماً، والأحداث كثيرة، ويشهد بها التاريخ ونشير منها إلى حدثين قريبي عهد من أيام السيد المسيح عليه السلام، أحدهما نقمتهم على القدسيّيْن بطرس ويوحنا لالتفاف الناس حولهما، ثم زجهما بالسجن، ولكن الله سبحانه يسّر لهم الخروج منه(١)، وثاني الحدثين محاكمة مَجْمَع اليهود للقديس اسطيفانوس محاكمة جائرة، ثم قتله رجماً بالحجارة، واشتد بعدها اضطهادهم للكنيسة(٢).

ونسمع في العصر الحديث المفكر المسيحي ميشيل حايك يقول:

فما أبعدنا ها هنا عن الأقاصيص المجحفة التي ما زال اليهود منذ ألفي سنة يتداولونها في كتاب "توليدات يشوع" فيهينون فيها ذكر الابن، ويتهمون أمه بالشيء الفريّ، قائلين إنها بغيّ، فاحتج محمد أولاً، والمسلمون من بعده، وأكثروا من الاحتجاجات ضد هذا البهتان العظيم(٣).

المسيحيون والمسلمون، ومنذ بدء رسالة الله لدى كل منهم، كانوا

(١) أعمال الرسل - الإصحاح ٤، الفقرات ١-٤، ص. ٦٧٤ (الكتاب المقدس - الإنجيل وأعمال الرسل)؛ وانظر: سمير نوف، تاريخ الكنيسة المسيحية، تعريب المطران ألكسندروس جحا، حمص، ١٩٦٤، ص. ٢٢.

(٢) انظر: البطريك أفرام الأول برصوم، الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة، حمص، ١٩٤٠، ص. ٨٦.

(٣) ميشيل حايك، «المسيح في الإسلام»، نقلاً عن بحث "الأسس المشتركة بين الديانتين في المعتقدات ومواطن الالتقاء بينهما" ألقي في ندوة الحوار الإسلامي المسيحي، طرابلس، ١٩٧٦، ونشر في كتاب "بحوث ووثائق" ندوة الحوار الإسلامي المسيحي، ليبيا، ١٩٧٧، ص، ٢٨٤.

مؤمنين بطهر مريم وبصدق عيسى عليهما السلام، واستمروا، وسيبقون مستمرين على معتقدهم هذا، حتى يرث الله الأرض وما عليها.

أما اليهود فهل بقوا مستمرين على معتقدهم في ما نسبوه إليهما؟ أم عدلوا عنه؟ كل المعطيات التي عرفها العالم عن اليهود تؤكد أنه لم يصدر عنهم ما يغير هذا المعتقد، وبالتالي فإن رأيهم في ما نسبوه إليهما من افتراء هو هو لم يتغير. وعليه، فأيّة علاقة، على المستوى الديني واللاهوتي يمكن أن تقوم بين المسيحيين واليهود؟

إن ما حدا بي إلى هذا التساؤل ما نشهده في هذه الأيام، وفي الولايات المتحدة بالذات من أناس يَدْعُون إلى "الصهيونية المسيحية" ويسمون أنفسهم "المسيحيين الصهاينة" وهم شريحة من المسيحيين هناك، ارتهنت نفوسها لخدمة الصهيونية التي هي تكريس لمطامع اليهود في ديارنا وفي فلسطين منها بشكل خاص، فهل تغيرت الأمور وتبدلت المواقف بالنسبة لهذه الشريحة حتى غدا عدوُّ المسيحيين التاريخي واللاّهوتي صديقاً حميماً؟ ثم هل سمع عن اليهود أو عن أي واحد منهم، وحتى يومنا هذا أي تصريح يغاير ما يعتقدونه في السيد المسيح وفي أمه؟ وهل اعتقدوا، تصريحاً على الأقل، بطهرهما حتى يقبل الناس، ولو على الرغم منهم، مثل هذه الصداقة المسيحية الصهيونية الجديدة؟

إن الأمور لو سارت طبيعية في فَهْم الناس لبعضهم وإعطاء كل ذي حق حقه، لكان المسلمون هم الأصدقاء الحقيقيين للمسيحيين ولكان النصارى في العالم أشد اتصالاً بالمسلمين وصداقة لهم. إن الإسلام هو الدين الوحيد في العالم الذي يُدَعّم النصارى ويؤكد معهم باعتقاد جازم، ويقول لهم: الحق معكم، وإن سيدنا المسيح لم يكن له أب.

إنّ وصف القرآن لعيسى عليه السلام بأنـه "كلمـة الله" تأكيـد عـلى أنـه خلق بتقدير من الله بكلمة "كن"، وذلك على غير سنن التوالد الناجم عن لقـاء زوجين، وإذا كان ذلك عجيباً في عالم الأسباب، فإنه ليس بعجيـب أمـام قـدرة الله سبحانه. فإن خلقاً سابقاً له، هو أشد عجباً منه، ذلك هـو خلـق آدم بكلمـة "كن" أيضاً، ولكن بدون أب أو أم.

****

كيف عامل النبي ﷺ أهل الكتاب

لقد سمى الله تعالى في القرآن الكريم اليهود والمسيحيين بأهل الكتاب، وبين كيف ينبغي أن تكون العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب. ومنذ ظهور الإسلام كان التفاهم والتسامح هما السمة السائدة في العلاقة بين الطرفين. وبالرغم من التحريف الذي طرأ بعد ذلك على كتب أهل الكتاب وعقائدهم، إلا أن أنهم ما يزالون يستندون في كثير من أخلاقهم إلى أساس الإيمان بالله الواحد، وإلى مفهوم الحلال والحرام. وقد حض القرآن الكريم على أن تكون العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب علاقة حضارية قائمة على الاحترام والتفاهم. فطعام أهل الكتاب حل للمسلمين؛ وللرجال المسلمين أن يتزوجوا من نسائهم. ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (المائدة:٥)، وهذه الأحكام تفيد بأنه يمكن بناء علاقات جوار حميمة وإنشاء علاقات قرابة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والمسيحيين، كما يمكن لكل طرف منهما أن يجيب دعوة الآخر إذا دعاه لمأدبة طعام. ومثلما هو الشأن في جميع الأمور، فالنبي عليه الصلاة والسلام هو القدوة والنموذج في هذا الموضوع كذلك. فقد عامل رسول الله ﷺ اليهود والمسيحيين معاملة في غاية العدل والرحمة، وقد أراد بذلك أن يؤسس لعلاقة بين أتباع الأديان الأخرى والمسلمين تقوم على التفاهم والمحبة. ففي عهد النبي عليه الصلاة والسلام وكذلك في الفترات التي جاءت من بعهده كُتبت معاهدات ووضعت ضمانات تسمح للمسيحيين واليهود بممارسة شعائرهم

الدينية على النحو الذي يريدونه، وتعطي الفرصة كذلك للجماعات الدينية الأخرى لكي تواصل حياتها ووجودها بصورة طبيعية. وخلال الأعوام الأولى من ظهور الإسلام تعرض المسلمون لظلم وأذى كبيرين من المشركين، وبإشارة من النبي عليه الصلاة والسلام هاجروا إلى الحبشة ودخلوا في حماية النجاشي الملك المسيحي هناك في تلك الفترة. وعندما هاجر النبي ﷺ ومن معه إلى المدينة كانت علاقة التعايش التي ربطتهم باليهود الذين كانوا يسكنون هناك مثالا يحتذى لجميع الأجيال التي جاءت من بعدهم. كما أن التسامح الذي عومل به اليهود والمسيحيون الموجودون في الجزيرة العربية في عهود انتشاره وتوسعه يعد أنموذجا حيا للطريقة التي يتعين على المسلمين التعامل بها مع أهل الكتاب. وكمثال على ذلك فقد جاء في المعاهدة التي أمر النبي عليه الصلاة والسلام بكتابتها للمسيحي ابن حريش بن كعب ومن هم على دينه: "

وبعد أن كتب هذه البنود قرأ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦).(١).

وهناك روايات تقول بأن رسول الله ﷺ حضر مآدب أعراس أهل الكتاب وزار مرضاهم وأكرمهم وطيب خاطرهم. حتى إنه عندما زاره وفد من مسيحيي نجران فرش عليه الصلاة والسلام لهم عباءته وطلب إليهم أن يجلسوا. وما زواج النبي ﷺ من المرأة المصرية المسيحية ماريا (أو مريم) إلا تأكيد لهذا الوعي الرفيع والخلق السامي. وبعد انتقال النبي عليه الصلاة

---

(١) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك توفي في عام ٢١٨هـ/ ٨٣٤ م)، السيرة النبوية، دار التراث العربي، بيروت ١٣٩٦ / ١٩٧١، الجزء الرابع، ص. ٢٤١-٢٤٢؛ حميد الله، الوثائق، ص. ١٥٤-١٥٥، رقم٩٦-٩٧؛ الحياة مع المصادر الشرقية والغربية، ص. ٩٥.

والسّلام إلى الرفيق الأعلى كانت المعاملة الطيبة والحسنة التي تعامل بها المسلمون مع أهل الكتاب تقوم على أساس ما رأوه من رسول الله عليه الصلاة والسلام طوال حياته من تسامح مع الجماعات غير المسلمة ومن واحترام لها.

***

قالوا عنه

د.محمد عمارة:

إن الشيخ الشعراوي عليه رحمة الله كان واحدًا من أعظم الدعاة إلى الإسلام في العصر الذي نعيش فيه. والملكة غير العادية التي جعلته يطلع جمهوره على أسرار جديدة وكثيرة في القرآن الكريم.

وكان ثمرة لثقافته البلاغية التي جعلته يدرك من أسرار الإعجاز البياني للقرآن الكريم ما لم يدركه الكثيرون وكان له حضور في أسلوب الدعوة يشرك معه جمهوره ويوقظ فيه ملكات التلقي. ولقد وصف هو هذا العطاء عندما قال: "إنه فضل جود لا بذل جهد". رحمه الله وعوض أمتنا فيه خيرًا

د. محمد سيد طنطاوي

إن الشيخ الشعراوي قد قدم لدينه ولأمته الإسلامية وللإنسانية كلها أعمالا طيبة تجعله قدوة لغيره في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

د. محمود حمدي زقزوق

فقدت الأمة الإسلامية علما من أعلامها كان له أثر كبير في نشر الوعي الإسلامي الصحيح، وبصمات واضحة في تفسير القرآن الكريم بأسلوب فريد جذب إليه الناس من مختلف المستويات الثقافية.

د. أحمد عمر هاشم

إن الشعراوي أحد أبرز علماء الأمة الذين جدد الله تعالى دينه على يديهم كما قال الرسول ﷺ: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها).

الشيخ أحمد كفتارو مفتي سوريا

إن الفقيد واحد من أفذاذ العلماء في الإسلام قد بذل كل جهد من أجل خدمة الأمة في دينها وأخلاقها.

د.فؤاد مخيمر رئيس عام الجمعية الشرعية

إن الجمعية الشرعية تنعى إلى الأمة الإسلامية فقيد الدعوة والدعاة إمام الدعاة إلى الله تعالى، حيث انتقل إلى رحاب ربه آمنا مطمئنا بعد أن أدى رسالته كاملة وبعد أن وجه المسلمين جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها إلى ما يصلح شئون حياتهم ويسعدهم في آخرتهم. فرحم الله شيخنا الشعراوي رحمة واسعة وجعله في مصاف النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وجزاه الله عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

د. أحمد هيكل وزير الثقافة السابق

لا شك أن وفاة الإمام الراحل طيب الذكر فضيلة الشيخ الشعراوي تمثل خسارة فادحة للفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي بأسره، فقد كان رحمه الله رمزًا عظيمًا من رموز ذلك كله وخاصة في معرفته الشاملة للإسلام وعلمه المتعمق وصفاء روحه وشفافية نفسه واعتباره قدوة تحتذى في مجال العلم والفكر والدعوة الإسلامية وإن حزننا لا يعادله إلا الابتهال إلى الله بأن يطيب ثراه وأن يجعل الجنة مثواه.

د. عبد الحليم عويس أستاذ التاريخ الإسلامي

لا ينبغي أن نيأس من رحمة الله والإسلام الذي أفرز الشيخ الشعراوي قادر على أن يمنح هذه الأمة نماذج طيبة وعظيمة ورائعة تقرب على الأقل من الشيخ الشعراوي ومع ذلك نعتبر موته خسارة كبيرة، خسارة تضاف إلى

خسائر الأعوام الماضية أمثال أساتذتنا الغزالي وجاد الحق وخالد محمد خالد. وأخشى أن يكون هذا نذير اقتراب يوم القيامة الذي أخبرنا الرسول (ﷺ) أن من علاماته أن يقبض العلماء الأكفاء الصالحون وأن يبقى الجهال وأنصاف العلماء وأشباههم وأرباعهم فيفتوا بغير علم ويطوعوا دين الله وفقا لضغوط أولياء الأمور ويصبح الدين منقادًا لا قائدًا. ونسأل الله أن يجنب الأمة شر هذا وأن يخلفها في الشيخ الشعراوي خيرًا.

الدكتور يوسف القرضاوى

الشيخ الشعراوى كان أحد كبار مفسرى القرآن الكريم،الذين سيبقى أثرهم طويلاً في خدمة الدين الإسلامي.

الدكتور أحمد عمر هاشم

إن الشعراوى أحد أبرز علماء الأمة الذين جدد الله تعالى على أيديهم،كما قال رسول الله ﷺ:"إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها" (أبو داود:٤٢٩)

الدكتور عبد الصبور شاهين

كان فريد زمانه، والكلمات بالنسبة له لا توفيه بعض قدره، فقدره كبير في قلوب المسلمين في مصر والعالم كله.

***

مشاوير العمر

د. محمود جامع: «الشعراوى» منح صدقة لسفير ليبيا أثناء الحج فاستوقفه وقال له: «أخذتها في المرة الأولى من باب البركة»:

«الشعراوى هو الشعراوى.. وزيراً أو داعية، معلماً وأباً وصديقاً، لأنه كان قبل أي شيء إنسان متفتح وغير منغلق، ولا يسعى إلى المناصب».. بهذه الكلمات وصف الدكتور محمود جامع، فضيلة الإمام الراحل الشيخ محمد متولي الشعراوى، خلال برنامج «ضوء أحمر»، الذي يقدمه الإعلامي «سليمان جودة»، وأضاف أن علاقة الشعراوى بالرئيس السادات كانت طيبة للغاية، وكان دائماً ما يترحم على السادات، ويطلب له المغفرة.

وتابع: الرئيس السادات هو الذي أمر بمنع أحاديث الشعراوى في التليفزيون استجابة لإسرائيل، كما أمر بإعادة إذاعتها، وكان متابعاً لها، مشيراً إلى أن اللقاء الأول الذي جمع الشعراوى والسادات تم في منزله بطلب من الشيخ الشعراوى شخصياً، وعندما التقيا طلب من الرئيس السادات أن يقيم شريعة الله وأن يعمل على تطبيقها، وفي ختام لقائه بالسادات شد على يده واحتضنه ودعا الله أن يتولى «السادات» مقاليد الأمور، وكان آنذاك نائباً لرئيس الجمهورية، وقال له: «اسأل الله أن يمكنك من نشر تعاليم الشريعة الإسلامية».

ولفت جامع إلى أن الرئيس عبدالناصر طلب لقاء الشعراوى وتم تحديد الموعد لكن وفاة عبدالناصر حالت دون اللقاء.

وأكد جامع أن صلاة الشكر التي أداها الشعراوى بعد نكسة ٦٧، لم تكن فرحاً في هزيمة مصر، وأشار إلى أن الشعراوى كان يعتقد أننا لو انتصرنا في

٦٧ بالسلاح السوفيتي، كان الثمن سيكون باهظاً، لأننا كنا سنتحول إلى شيوعيين وماركسيين.

وأضاف أن السادات هو الذي رشحه لوزارة الأوقاف، إلا أن محيى الدين لم يعرض الأمر على «الشيخ» ورشح الشيخ عبدالرحمن بيصار، مما أغضب السادات، وبرر محيى الدين ذلك بأن الشعراوى لا يحب المناصب.

وأضاف جامع: الشعراوى كان يطهو طعامه بنفسه حتى وهو في منصبه كوزير لـ«الأوقاف»، وكان يأكل أقل القليل، وينام في غرفة طباخ قصره في الهرم، وكان يكثر من الصدقات وأعمال الخير ولا ينظر في وجه من يتصدق عليهم، منعاً للحرج، وخلال موسم الحج استوقفه سفير ليبيا في المملكة العربية وطلب منه استرداد صدقته وقال له: «يا فضيلة الإمام في المرة الأولى أخذت الصدقة من باب التبرك بها ولكن المرة دى مش هاخد».

وأكد أنه لم يسع إلى الفنانين وإنما البداية كانت إسلام الفنانة ليلى مراد على يديه، ثم التقى بالمصادفة الفنانة شادية، في موسم الحج، ثم توالت عليه الفنانات للاستماع إلى النصح والتوجيه والإرشاد وكل الفنانات اللاتى عدن إلى الفن من جديد بعد التوبة على يديه لم يعاودن الفن الردىء. وتابع: «أتذكر أن السيدة تحية كاريوكا التقت به في الحج وطلبت تقبيله فقال لها: الإسلام يمنع ذلك لأننا مطالبون إذا حيينا بتحية أن نحيى بأحسن منها أو نردها».

وعن علاقته بالبابا شنودة، أكد جامع أنها كانت طيبة للغاية، بخلاف علاقته بالسيدة جيهان السادات، التي كانت متوترة بعض الشيء بسبب قانون الأحوال الشخصية الذي كانت تريده، ورفضه الشيخ الشعراوى.

حوار الذكريات مع الدكتور جامع من موقع الجماعة الإسلامية:

حاوره وقدم له د/ ناجح إبراهيم

د/ محمود جامع تخرج من طب القصر العيني سنة ١٩٥٤م.. أي قبل أن أولد بعام كامل.. وهو شخصية ثرية ثراء كبير جداً.. وله من التجارب العديدة الكثير والكثير.

فتجربته الإنسانية ثرية جداً.. فقد مات إخوته الثلاثة في يوم واحد وبقي هو.. ثم مات والده وهو صغير وتحمل في سن السابعة عشر من عمره مسؤوليات جسيمة قام به على خير وجه.

وتجربته مع الإخوان أكثر ثراءً..فقد كان نشيطاً جداً معهم.. وقد شهد بنفسه لحظة وفاة حكمدار القاهرة في الجامعة اللواء/ سليم زكي أثناء المظاهرات قبل الثورة.. وتجربة فصله من الإخوان لمجرد شكوك باطلة ثم هروبه واعتقاله.. وهذا أغرب وأعجب.

ثم توسط صديقه السادات لإخراجه.. ثم ضمه للإتحاد الاشتراكي.. ثم حزب مصر معه.. أشد غرابة.

ثم العلاقة الحميمة التي كانت بينه وبين السادات حينما كان نائباً للرئيس.. واصطحابه معه في رحلات كثيرة ومكثه مع السادات شهراً كاملاً في بيت السادات في ميت "أبو الكوم منوفية" حينما أصيب الأخير بجلطة في القلب.. وسبره لأغوار شخصيته في هذا الشهر الكامل الذي لم يفارقه فيه أبداً.

وقبل ذلك علاقته وصداقة والده بأحمد باشا عبد الغفار الوزير الشهير قبل الثورة.. وماذا قال له هذا الباشا بعد أن حددت الثورة إقامته؟

ثم انفتاح الدنيا والسياسة على مصراعيها أمامه بعد أن أصبح السادات

رئيساً للجمهورية.. وكان هو من أخص أصدقائه حتى أنه كان يجالس في اليوم الواحد عدة وزراء في السبعينات.. ثم تعرضه للسجن مرة أخرى في بانوراما عجيبة لا تحدث في الحياة إلا قليلاً.. ثم شهادته وتقييمه لفترة ما قبل الثورة وكذلك الحكم الناصري وعهد السادات.

إنه الدكتور/ محمود جامع الذي سعدت جداً بسماع قصة حياته وأعجبتني فيه رجولته وأريحيته وطلاقته في الحديث وصفاء عقله وذهنه ووفور همته.. فرغم أنه كان مريضاً وهو الآن في الثمانين من عمره إلا أنه بدا معنا طوال أربع ساعات كاملة في منتهي النشاط والهمة والتدفق والفهم لكل ما حوله فهماً عظيماً راقياً.

فإذا تكلم في السياسة أشبع وأفاد.. وإذا تكلم عن الحركات الإسلامية زادك خبرة وعلماً.. وإذا تحدث عن العصر الملكي كأنه لا يعرف غيره.. وإذا أفاض في عصر عبد الناصر والسادات وجدت أنك أمام موسوعة متحركة للتاريخ المعاصر.

وهكذا مضت الساعات الأربع سريعاً دون أن نشعر.. وخلاصتها وبعض ما فيها هو الذي ستقرأونه في هذه السلسلة الهامة من هذه الحوارات.

وقبل ذلك أخص بالشكر الإخوة الذين صاحبوني في هذه المتعة الفكرية والتاريخية وساعدوني في تسجيل وتصوير هذا الحوار وهم الشيوخ الأفاضل.. رفعت حسن.. وعبد العزيز محمود.. وعصمت الصاوي.. فلهم مني جزيل الشكر.

يقول الدكتور جامع:

ولدت في مدينة بورسعيد سنة ١٩٣٢.. ولكن أسرتي أصلاً من

المنوفية.. ووالدي رحمه الله كان قاضياً شرعيا.. ووقت ولادتي كـان يعمـل في بورسعيد.

وقد حصلت على الابتدائية سنة ١٩٤٢م ووقتهـا أقـيم احتفـال كبيـر في قريتي لأن جدي كان العمـدة.. وأطلقـوا الرصـاص في الهـواء ابتهاجـاً بهـذه المناسبة.

قضيت تعليمي الثانوي في طنطـا.. ثـم دخلـت طـب القـصر العينـي في القـاهرة وتخرجـت سـنة ١٩٥٤م.. وافتتحـت عيـادتي للأمـراض الجلديـة والتناسلية في طنطا سنة ١٩٥٧م.

آخر منصب وصلت إليه هو وكيل أول وزارة الصحة للتأمين الصحي.. والآن أنا على المعاش.

وماذا عن أشقائك؟

قصتي مع أشقائي غريبة وعجيبة ولا تخطر على بال أحد.

فقد كان لي ثلاثة أشـقاء إحـسان وجـلال ونبيـل.. وكنـت أنـا الثـاني في ترتيبهم.. وذهبنا ونحن صغار لنحضر حفل زواج خالي في قرية كفر الـسادات مركز تلا منوفية.. فأصبت مع أشقائي الثلاثة بالحصبة التـي تحولـت سـريعاً إلى التهاب رئوي حاد.. أدى إلى موت شقيقي جلال وفي نفس اليوم مات نبيـل وفي الصباح التالي ماتت إحسان.

وبهذه المأسـاة المروعـة مـات أشـقائي الثلاثـة في خـلال ٢٤ سـاعة.. وكانت هذه صدمة عنيفة وفظيعة علينا جميعاً.. وخاصة على والدتي التي ظلـت طوال حياتها متأثرة بهذه المأساة.. ولا تريد أن تنساها أبداً.

وماذا فعلت أنت؟

عندما ذهبوا لدفن إخوتي الثلاثة.. ويومها كنت وحدي في المنزل وممنوع تقريباً من معظم أنواع الطعام.. فأصابني جوع شديد فوجدت ديكاً رومياً في المنزل فظللت آكل منه كثيراً.. وشعرت بعدها أنني أتحسن تدريجياً حتى عوفيت تماماً من الحصبة والالتهاب الرئوي.. وعشت وقتها بآية من عند الله

هل أنت وحيد إذاً؟

كلا.. لقد أنجب والدي بعد ذلك ثمانية من الأشقاء والشقيقات.. ولكن حدثت مأساة كبرى أخرى في حياتنا بعدها.

وما هي؟

لقد توفي والدي فجأة.. وترك لي ثمانية من الأشقاء والشقيقات أصغرهم كان عمره وقتها ٤٠ يوماً.

ولم يترك لنا سوى معاشاً بسيطاً لا يكفي حاجتنا.. لقد كان مرتب والدي كبيراً وقتها حيث كان يبلغ ٦٥ جنيهاً.. ولكن معاشه وقتها كان قليلاً.. إذ أنه كان أقل من نصف المرتب.. وبهذا أصبحت مسئولاً مسؤولية كاملة عن أسرتي بالكامل وعن تدبير كل شيء في حياتها.. وأنا عمري ١٧ سنة تقريبا.

وكيف تصرفت في هذه المسؤولية الكبرى؟

لقد كانت عندي عزيمة من حديد.. وإرادة لا تلين وقد تحملت بشجاعة ورجولة هذه المسؤولية دون تردد.. وقمت على أمر هذه الأسرة الكبيرة.. وربيت إخوتي أفضل تربية وعلمتهم على أعلى مستوى.. حتى أن

أصغرهم الذي تركه لي والدي وعمره ٤٠ يوماً أصبح الآن أستاذاً ورئيساً لقسم جراحة الأنف والأذن والحنجرة بكلية الطب بجامعة طنطا.. وهو أ.د/ أحمد جامع.

أما شقيقاتي البنات فتخرجن جميعاً من الجامعة.. وزوجتهن من أزواج صالحين.. فواحدة كان زوجها وكيل وزارة الصحة لشئون الصيدلية.. والأخرى كان زوجها وكيلاً لوزارة الزراعة.

د/ محمود جامع يسلم على السادات في ميت أبو الكوم حيث كان السادات المكث فيها كثيراً.. ويظهر في الصورة الشيخ / محمد متولي الشعراوي كيف قمت بهذه المسؤولية الكبرى.. وهل ساعدك أحد فيها؟

لا.. لم يساعدني فيها أحد.. فأنا عندي عزيمة من حديد.. ولا يهمني أي شيء.. حتى أنني كنت لا أنتوي الزواج مطلقاً ولا أفكر فيه حتى أقوم بمسئوليتي تجاه أسرتي كاملة.. وقد تزوجت هكذا صدفة دون ترتيب مسبق مني.

وماذا عن والدتك؟

والدتي صدمت صدمتين قاسيتين أثرتا عليها جداً.. وهما موت أشقائي الثلاثة في يوم واحد.. ثم موت والدي وهو صغير.. كل ذلك أثر على نفسيتها وجعلها أضعف من أن تقوم بهذه المسؤولية الضخمة أو تساعدني فيها مساعدة فعالة.. فقد كان يكفيها القيام على شئون إخوتي داخل البيت.

أما كل شيء فكنت أقوم به وحدي.. فأنا أعشق المسؤولية ولا أهرب منها أبداً.. وأحب التحدي.. وبعض أشقائي وصل إلى السبعين من عمره ويقبل يدي حتى اليوم.. وهم يفعلون ذلك عن حب وصدق وعرفان

بالجميل.. ونحن أسرة متماسكة جداً.

وماذا عن زواجك؟

كنت لا أرغب في الزواج حتى أتم رسالتي مع أشقائي.. وفي أول يوم لافتتاح عيادتي في طنطا جاء إليَّ صديق لوالدي رحمه الله وكان طبيباً للعيون ومعه صهره وأولاده.. وكان عند أحدهم سنطة فقمت بإزالتها ورفضت أن أتقاضى أي أجر على ذلك.. فعزمتني الأسرة على الغداء.. وفعلاً تم ذلك وانصرفت.

وبعدها بأسبوع كنت على موعد مع أحد الإخوان الشباب في جروبي في القاهرة.. وأنا جالس وحدي أنتظره وجدتهم جميعاً جالسين في جروبي إلى جواري فعزموني على الغداء في بيتهم في مصر الجديدة فذهبت وتعرفت عليهم أكثر.

ثم قال لي صديق والدي:

أريدك أن تتزوج الآنسة/ منى من هذه الأسرة الكريمة.. وهي طالبة في مدرسة القلب المقدس للراهبات في مصر الجديدة.. فوافقت على ذلك حيث وجدت فيها كل صفات الخير التي أريدها في زوجتي.. فضلاً عن الثقافة والأدب والأخلاق والرقي الإنساني والاجتماعي.

وماذا تم بعد ذلك؟

وجدت حماي وحماتي يريدان مني أن أذهب معهما إلى الراهبة الكبيرة في المدرسة لتعمل لي مقابلة "interview" لتطمئن على كفاءتي للزواج من ابنتهم "منى".. لأنهم يعتبرونها ابنتهم.. فوافقت.. وكان هذا نهجاً متبعاً في هذه المدرسة العريقة.

وهـل قبلـت الـذهاب إلـيهم وأنـت تنتمـي في هـذا الوقـت للإخـوان المسلمين؟

نعم.. قبلت وذهبت.. وعندما دخلت وجدت احتفـالاً واحتفـاءً كبيـراً بي.. ووجدت موكباً كبيراً من الراهبات والمدرسين في انتظـاري والأجـراس تدق كثيراً.. ووجدت بينهم أ/ محمود الفوال وهو من الإخـوان بيـنهم وهـو مدرس اللغة العربية هناك وقتها.. والذي أصـبح بعـد ذلـك أسـتاذاً شـهيراً في كلية دار العلوم.

ثم قابلت الراهبة الكبرى "مار ويري لو" وهي فرنسية الأصل وسـألتني عدة أسئلة.. ثم اجتمعوا مع بعض ثم وافقوا على زواجي من "منى".

ألم يكن لهذه المدارس تأثير سلبي دينياً ووطنياً على طلابها؟

كلا.. فزوجتي هي أول امـرأة تحجبـت في الـستينات.. فحينمـا ذهبـت معها للحج أول مرة وقفت أمام الكعبة وقالت:

"أعاهد الله سبحانه ألا أخلع هذا الزى أبداً".

وكانت مثالاً لكل خلق كريم.. وحينما كنت أزور السادات في الستينات قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية ومعي زوجتي كان يقول لجيهان:

"يا ريت يا جيهان تلبسي مثل مني".

وكانت جيهان السادات تجن من هذه الكلمات.

فالحقيقة أن هذه المدارس كان التعليم فيها جيداً للغاية.. وكانـت هـذه المدارس مثالاً للانضباط والجدية.

وماذا عن أولادك؟

أنجبت ابنين وبنت.. وأولهم ابني أ. د/ محمد جامع.. وهو أستاذ في الأمراض الجلدية بكلية الطب جامعة طنطا.

وخالد حاصل على ليسانس آداب.

وإيمان بكالوريوس تجارة وهي تحفظ القرآن كله ومتزوجة من أستاذ أنف وأذن وحنجرة بطب طنطا.

ونحن نعيش في هذا المنزل سوياً.. وكل واحد منهم له شقة.. ونصلي سوياً.. ونأكل سوياً معظم الأوقات.

أ.د/ محمد جامع له أبحاث مشهورة جداً وخاصة في مرض البهاق؟ هل تعطينا فكرة عن ذلك.. وعن سر تفوقه في هذا المرض بالذات؟

ولكنني قلت له: أبحاث سرطان الجلد لا تفيد الكثرة الكاثرة من المرضى المصريين.. حاول أن تجري أبحاثاً على مرض منتشر هنا بحيث يستفيد منه أكبر عدد من الناس.

وقلت له: شوف مرض البهاق.

وفعلاً ذهب إلى هولندا وتعرف على أ.د/ ويسترهوف وهو مدير أكبر معهد لتلوين الجلد في أمستردام وتعرف عليه وأعجب به وقال لمحمد ابني:

اجلس معي.. فلازمه ابني سنتين وتعلم منه كثيراً.. وسافر معه إلى معظم الدول العربية.

وابني محمد هو أول من أدخل في مصر أشعة "nanowband" لعلاج البهاق.. وعلمها لمئات الأساتذة والأطباء.. كما كان أول من أدخل عملية

بسيطة لعلاج البهاق في مصر.. وهي التي تتم الآن على نطاق واسع في مصر وهي التي أعطت أملاً لمرضى البهاق.. وخاصة المساحات الصغيرة منها.

هل ما زلت تذهب للعيادة؟

أنا وابني محمد في عيادة واحدة.. أنا أعمل فيها من ١ إلى ٣ وهو يعمل بها في المساء.

الزبائن تفضل من فيكما؟

تفضلنا نحن الاثنين والحمد لله.. وعلى فكرة ابني محمد متدين جداً ويحفظ القرآن كاملاً ومجوداً.. وكذلك زوجتي وابنتي إيمان.

ولكن ابني محمد علمه أوسع مني في الأمراض الجلدية.. وله أبحاث حديثة والناس كلها تعرفه الآن.. وتطلبه بالاسم.

ومن الطريف أن حفيدة د/ فتحي سرور ذهبت للعلاج من مرض جلدي في أمريكا فقالوا لها هناك عندكم د/ جامع ممتاز جداً في هذا التخصص.. فكلمني وكنت أعرفه من السبعينات.. وقال لي:

لم أكن أظنك بهذه الكفاءة الطبية في الجلدية فقد حدث كذا وكذا.

قلت له: إنهم يقصدون ابني محمد.. ولا يقصدونني أنا.

وقد عالج ابني محمد شخصيات كبرى في الإمارات والسعودية ودول الخليج الأخرى وعدة دول أخرى.

الدكتور جامع يتحدث عن
الشيخ الشعراوي والشيخ عبد الحليم محمود:

عرفت الشعراوي بالسادات.. وناصرت د/ عبد الحليم، ج٢ من حوارنا مع الموسوعة د/ محمود جامع

عرف د/ محمود جامع الشيخ الشعراوي في الأربعينات من القرن الماضي وهو طالب في المدرسة الثانوية بطنطا.. وكان الشعراوي رحمه الله وقتها مدرساً في معهد طنطا.. وظلت هذه الصداقة بينهما تتعمق رويداً رويداً.. حتى أصبحت الإخوة بينهما لا تنفصم عراها لا بموت ولا فراق.

فمازال د/ محمود جامع يتذكر هذا الرجل بمزيد من الثناء والإطراء عليه لزهده ورجولته وشهامته.. وكيف أن الكبر لم يتسلل إلي قلبه لا قبل المنصب الوزاري ولا بعده.

ونحن اليوم نرصد بعض ذكرياته مع الشيخ/ الشعراوي تاركين للقراء كيفية الاستفادة منها.. أو الحكم عليها.

المهم أن د/ محمود جامع حكاها كما حدثت دون تزوير أو تزييف.. فقد شاهدها بنفسه.. ورفض أن يحكي شيئاً لم يعشه ببصره أو بسمعه أو لم يسنده إلي أحد العدول.

كما قص علينا قصة الاستقالة التي تقدم بها شيخ الأزهر الأسبق المرحوم د/ عبد الحليم محمود إلي السادات.. وشرح لنا أسبابها.. وكيف كان رد فعل السادات عليها في البداية؟

وكيف عاد عبد الحليم بعد ذلك إلي منصبه؟

وما موقف بعض علماء الأزهر الكبار من هذه الاستقالة؟

كل ذلك وغيره.. جعلت له باباً مستقلاً في حديث الموسوعة التاريخية المتحركة د/ محمود جامع.

فقد قصدت عمداً أن أجعل علاقته بمشاهير العلماء والدعاة في حلقة مستقلة.

فقد كان د/ جامع على صلة وثيقة بمعظم هؤلاء في سنوات شبابه قبل أن يدخل الإخوان.. وبعد دخولها.. وبعد أن فصل منها.. وهو دوماً على علاقة جيدة بعلماء ودعاة كثيرين ممن يحملون هم الدعوة إلي الله.

والآن مع هذا الجزء الثاني من حوارنا مع الموسوعة التاريخية في تاريخ مصر المعاصر عامة وتاريخ الحركة الإسلامية كذلك د/ محمود جامع

فإلي هناك...

* مرحباً بكم مجدداً ضيفاً عزيزاً على موقعنا موقع الجماعة الإسلامية؟

أهلا بكم وسهلاً.. وقد سعدنا بزيارتكم وأنتم أولادي.. وأرحب بكم في أي وقت.

الإخوة جميعاً يسلمون عليك.. وخاصة الذي يعملون معنا في الموقع.. وقد أعجبوا إعجاباً شديداً بهمتكم العالية وكفاحكم الإنساني.. وقيامكم بمسؤوليتكم الأسرية والتي عرفوها من الجزء الأول من الحوار....

بارك الله فيهم.. وأشكر لهم مشاعرهم النبيلة وأنا لم أفعل شيئاً سوى أنني قمت بواجبي نحو أسرتي وأشقائي وأولادي وأحفادي.. وأنا أرى ثمرة هذا الجهد في أسرتي.. وأعتز بذلك

* كانت لك علاقة وثيقة جداً بالشيخ الشعراوي..فمتى وكيف بدأت هذه العلاقة الحميمة؟

أنا أعرف الشيخ الشعراوي من الأربعينات حينما كان مدرساً في معهد طنطا الأزهري وكنت وقتها طالباً في طنطا الثانوية.. وكان يشجعنا بخطبه الحماسية على الخروج للمظاهرات ضد الإنجليز.. وكان خطيباً حماسياً من الطراز الأول.. وكنا نقوم بمظاهرات في طنطا باستمرار..

وفي إحدى المرات قبض علي مع مجموعه من الطلبة ولم يقبض على الشيخ الشعراوي.. ووضعونا في قسم طنطا بتهمة التظاهر والإخلال بالأمن.

وكان الشيخ الشعراوي يعرف رموز الوفد في القاهرة فأحضر المحامي الكبير أ/ مكرم عبيد باشا الذي ترافع عنا مرافعة رائعة باللغة العربية الفصحى.. واستشهد فيها بآيات كثيرة من القرآن الكريم وكان رجلاً وطنياً بحق.

فلما تم الإفراج عنا من سراي المحكمة قمنا بمظاهره صاخبة وحملنا الأستاذ / مكرم عبيد على أعناقنا ونحن نهتف "يحيا الشيخ مكرم".

ومع مرور الأيام وتكرر المظاهرات والاحتجاجات توثقت صلتي بالشيخ الشعراوي.

* هل كان الشيخ الشعراوي وفدي الهوى والانتماء في شبابه؟

نعم.. كان الوفد هو القوة السياسية الأبرز في المجتمع.. ورائد التحرر السياسي من سلطة الانجليز وأكبر دعاة الديمقراطية في مصر.

وكان الشيخ الشعراوي قبل تخرجه يحب النحاس باشا ويحترمه ويقبل يده.. فلما تخرج من الأزهر وجد من العيب أن يقبل يد النحاس وهو

عالم أزهري إسلامي فسلم عليه باليد فقط.

ولكن النحاس" شخط فيه".

وقال: "بوس أيدي يا ولد".. فاستحى الشيخ الشعراوي وقبل يده.

* لك قصص طريفة مع الشيخ الشعراوي حيث أنك عشت معه كثيراً.. هل تذكر لنا بعضها؟

نعم أطرف موقف رأيته بنفسي مع الشيخ الشعراوي هو حينما كنا في الحرم المكي.. وكان الشيخ الشعراوي يحمل صرراً صغيرة من الأموال يعطيها للفقراء في كل مرة يطوف فيها حول الكعبة.. وكان يعطي كل من يسأله.. وقد يعطي الرجل الواحد عدة مرات.

وفي مره من مرات الطواف جاءه رجل ممن أخذوا هذه الصرر.. وقال:

" يا مولانا أنا أخذت منك الصرة والصدقة في الطواف السابق بركة فقط.. وأنا في هذا الطواف أردها إليك.. فأنا سفير ليبيا في السعودية".

فضحك الشيخ الشعراوي لهذا الموقف كثيرا.

* ومن الذي عرف الشعراوي على السادات؟

أنا الذي عرفت الشيخ الشعراوي على السادات وكان ذلك في منزلي في طنطا.. وقد أيد الشيخ الشعراوي نفسه كلامي في الكتاب الذي أصدرته أخبار اليوم عن حياته وحاوره فيه الصحفي / محمد أبو العينين.

* ولكن لماذا كانت العلاقة متوترة بين جيهان السادات والشيخ الشعراوي؟

لم تكن العلاقة متوترة في البداية.. ولكنها توترت جداً بعد موقف

عصيب حدث بين الشيخ وجيهان السادات حينما كانت سيدة مصر الأولى.

❊ ماذا حدث وقتها؟

لقد قالت جيهان للشيخ الشعراوي: أريدك أن تعطي محاضرة في شهر رمضان لنساء نوادي الليونز والروتاري.

فقال لها: موافق على ذلك بشرط أن يحتشمن في لبسهن وأن يكون مظهرهن لائقاً بمحاضرة دينية.

فقالت له: ماشي.

وفعلاً ذهب الشيخ الشعراوي إلى المحاضرة ولما جلس على المنصة في نهار رمضان وجد الحاضرات في منتهي التبرج.. وبعضهن تدخن السجائر في نهار رمضان.. فغضب غضباً شديداً وأصر على مغادرة القاعة دون إعطاء المحاضرة بعد أن قال لجيهان:

" الاتفاق لم يكن هكذا"

❊ وهل سألته لم فعل ذلك؟

نعم سألته.. فأجابني قائلاً:

"يا واد يا محمود حسيت إنني اتقرطست " (أي إتخدعت) "ودمي غلي وفار" (أي غضبت غضباً شديداً لم أتمالك فيه نفسي).

❊ وماذا فعلت جيهان بعد ذلك؟

كانت دائماً تقول لابد أن يخلع هذا الشيخ من الوزارة.. وفعلاً لم يبق فيها طويلاً.. ولم يكن يلقى لذلك بالاً.. فهو لم يكن يهتم بالمناصب.

❊ هل تذكر لنا موقفاً للشيخ الشعراوي عايشت فيه أريحيته وكرمه؟

نعم.. فقد كان الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر الأسبق يعيش في شقة في الدور الخامس في منيل الروضة ولم يكن فيها أسانسير.. وكانت هذه شقته من صغره ولم يغيرها حتى بعد أن أصبح شيخاً للأزهر.. فقد كان زاهداً ورعاً.

فلما كبر به السن وكان مريضاً في آخر حياته وهو شيخ للأزهر.. قال للدكتور علي السمان:

الشيخ الشعراوي كانت عنده شقه واسعة في الدور الثاني من الأوقاف.. وهو الآن بني فيلا لنفسه ولا يعيش فيها.. فمن يقنعه بتركها لي.

فقال له السمان: عندي من يقنعه بذلك.. إنه الدكتور/ محمود جامع

فلما جاءني وعرض علي الأمر قلت له: الشعراوي لن يتأخر عن الشيخ جاد الحق أبداً.

ولما ذهبت للشيخ الشعراوي وافق على الفور وكتب تنازلاً عن الشقة بخطة إلى رئيس الوزراء..وأعطيت هذا التنازل للدكتور علي السمان الذي ذهب به فوراً لرئيس الوزراء الذي حوله إلى وزير الإسكان في اليوم التالي.

وإذا بنا نفاجأ في اليوم التالي بموت الشيخ جاد الحق علي.. فلا هو أخذ الشقة ولا بقيت للشيخ الشعراوي. ولكن ضمتها الأوقاف إليها.. وهذا من عجائب الأقدار والزمان.

* بمناسبة د/ علي السمان ما رأيك في موضوع الحوار بين الأديان الذي يدعو إليه د/ السمان منذ سنوات طويلة؟

كلام فارغ لا قيمة له.. ولا جدوى منه.. وهو لمجرد الاستهلاك.. فليس هناك حوار حقيقي ولا يحزنون.. ولا الغرب غير فكرته السيئة عن الإسلام من هذه الحوارات التي هي أشبه بالروتين الفارغ.

* ما هو أفضل موقف عشته ورأيته من الشيخ الشعراوي؟

الشيخ الشعراوي كان رجلاً وشهماً.. وله مواقف طيبه كثيرة.. ولكن هناك موقف لا يعرفه الكثيرون.. فعندما قال الرئيس السادات في إحدى خطبة عن الشيخ المحلاوي "إنه مرمي مثل الكلب في الزنزانة" غضب الشيخ غضباً شديداً ورفع سماعة التليفون وطلب موظف التلغراف..

وقال له: اكتب يا بني هذا التلغراف " رئيس الجمهورية محمد أنور السادات "الأزهر لا يخرج كلاباً أو حيوانات ولكنه يخرج علماء ودعاة " إمضاء / محمد متولي الشعراوي.

وأرسل التلغراف فور سماعه لهذا الخطاب فلم ينتظر حتى اليوم التالي ليرسله.

* الشيخ الشعراوي كان رجلاً ظريفاً يعشق النكتة أو "الأفية" على حد قول العوام في مصر.. وذلك رغم وقارة وعلمه.. فهل شهدت موقفاً طريفاً معه؟

نعم.. كنا سوياً في المسجد الحرام.. ورأته تحيه كاريوكا الراقصة الشهيرة والتي اعتزلت وقتها الرقص ولبست الحجاب.. وكانت تلبس حجاباً أبيض سابغ.. وكانت هيأتها في منتهي التدين وقد ظلت بهذا الحجاب حتى نهاية عمرها.. فلما رأت الشيخ الشعراوي هناك ظلت تنادي عليه وهو لا يسمع.. فدخلت في الزحام حتى جاءته..وهي تقول:

يا شيخ شعراوي بح صوتي وأنا أنادي عليك.

فقال لها: معذرةً والله لم أسمع.. وكان يكلمها وهو ينظر إلى الأرض.

فقالت له في جرأة: أنظر إلي حتى تعرفني.

فلما نظر إليها قال: معذرةً أنا لا أعرفك.

فقالت له في عتاب: أنا تحيه كاريوكا.. كيف لا تعرفني.

فقال: معذرةً.. لو عرفتك لأتيتك ولو رقصاً.

فضحكت وضحكنا.. ثم سألته عن بعض المسائل وانصرفت.

* اعتقد أن الشيخ الشعراوي رغم ورعة كانت لديه سرعة بديهة وقدرة على التخلص من أحرج المواقف بكلمات بسيطة جميله؟

نعم.. رحمه الله.. فقد كان يلخص كل القضايا في كلمات بسيطة..

لقد سئل عن النقاب قديماً فقال: "لا يفرض ولا يرفض".. ملخصاً رأيه فيه في هذه الكلمات البليغة.

أما خلفاؤه اليوم فلاهم لهم سوى محاربة النقاب بدلاً من محاربة الفساد في الأزهر والأوقاف.

* هل هناك عجائب عشتها في حياة الشيخ الشعراوي؟

عندما رجع الشيخ الشعراوي من السعودية في الستينات عاد إلى طنطا وكان رغم مكانته ما يزال في الدرجة الثالثة الوظيفية.. حيث كان هناك رسوب وظيفي خطير في مصر..وكانت المرتبات هزيلة جداً جداً.

فقال لي الشعراوي: أنت صديق دكتور / عبد العزيز كامل وزير الأوقاف.. لأنة كان قديماً من الإخوان.. وأرجو أن تكلمه عن مظلمتي.. فإنني رغم هذا السن ما زلت في الدرجة الثالثة الوظيفية.. ولا بد للترقية للثانية من موافقة من الوزير.

فذهبت إلى الدكتور/ عبد العزيز كامل

وقلت له: هل يليق بعالم مثل الشيخ الشعراوي أن يظل في هذه الدرجة

الوظيفية كل هذه السنوات.. وهو لن يصعد للدرجة الثانية إلا بموفقتك الاستثنائية.. وكان هذا هو النظام المعمول به وقتها.

فقال د/ عبد العزيز كامل: ولماذا استثنيه !!!.. هل له مؤلفات؟

فقلت له:لا.. وهل لابد للإنسان من مؤلفات حتى ينال حقه.

فقال: هل قام بشيء استثنائي.

فقلت: لا.. ولكنه يستحق.

فرفض د/ عبد العزيز كامل.

فقلت له: إذاً إنه يريد الذهاب للجزائر للدعوة هناك..فوافق.. وفعلاً ذهب الشيخ الشعراوي للجزائر.

ثم مرت الأيام وتولى الشيخ الشعراوي وزارة الأوقاف.. وجاءني د/ عبد العزيز كامل يوماً يريد خدمة من الشيخ الشعراوي ويوسطني في ذلك باعتباره صديقي.

فقلت له: نعم على العين والرأس.. وذهبت إلى الشيخ الشعراوي فقضى له حاجاته على الفور.

* وما هي قصة د/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر مع السادات؟

الشيخ عبد الحليم محمود د/ عبد الحليم محمود كان رجلاً بحق.. وكان زاهداً في الدنيا وفي المناصب.. وكان محباً للشريعة.. وعهدة كله خير.

فقد عاصر نصر أكتوبر وحرية الدعوة وبناء آلاف المساجد الجديدة والمعاهد الأزهرية وعودة الدين مرة أخرى إلى الحياة في مصر بعد أن ماتت في عهد عبد الناصر.

أما قصته مع السادات بشأن تطبيق الشريعة الإسلامية.. فتتلخص في الأتي:

لقد جاءني شيخ الأزهر الأسبق د/ عبد الحليم محمود إلى منزلي في طنطا وأعطاني مذكرة أسلمها للرئيس السادات.. وكانت هذه المذكرة تطلب بتطبيق الشريعة الإسلامية في مصر.

وقمت بتسليمها للسادات.. ولكنه لم يظهر تحمساً لها.

حيث قال السادات وقتها:

إن هذه المذكرة لو عملنا بها ستؤدي إلى مشاكل كثيرة وتدخلنا في دوشه كبيرة "..على حد قوله.

فلما شعر د/ عبد الحليم بإهمال السادات للأمر كتب استقالة مسببة ولزم بيته وصرف السيارة والسائق والحرس.. وجاءه الكثيرون لإثنائه عن ذلك.. ولكن دون جدوى.

وطالت المدة واستمر ذلك الأمر أكثر من شهر.. فاشتكى السادات منه لي وهو يحدثني عن المشكلة.

فقلت للسادات: إنه مصر على موقفه ومتمسك به حتى النهاية.

فقام السادات بدعوته إلى قريته ميت أبو الكوم لمصالحته.. وخطب د/ عبد الحليم بنا الجمعة وقتها هناك.. وطلب د/ صوفي أبو طالب رئيس مجلس الشعب وأمره بسن قوانين الشريعة الإسلامية في مواد.. وأصدر قانوناً بأن يكون شيخ الأزهر نائباً لرئيس الوزراء حتى لا يضطر لعرض قراراته على وزير شئون الأزهر الذي يقل عنه مكانة وعلماً.. وتم الصلح بينهما على هذا الأساس.. وبعدها بيوم فعلاً استلم د/ عبد الحليم عملة مرةً أخرى.

* وهل اهتم د/ صوفي أبو طالب بهذا الأمر فعلاً؟

نعم.. اهتم به اهتماما شديداً.. وهو رجل متدين وكان يعتز بالشريعة الإسلامية وأعد كل القوانين وهي موجودة إلى الآن في مضابط مجلس الشعب.. وكان يتمنى أن يتم هذا الأمر على يديه.. وهذه من أكبر حسنات د/ صوفي أبو طالب رحمه الله رحمة واسعة.

* وماذا حدث بعد ذلك؟

نسيت أن أحكي لك قصة طريفة تبين الفرق بين د/ عبد الحليم محمود وغيره من الشيوخ..

فقد جاءني في البيت في نفس يوم الصلح بين السادات و د/ عبد الحليم محمود وكيل الأزهر وقتها.. ولا داعي لذكر اسمه.

وقال لي: أريد منك خدمة؟

فقلت: أطلب يا مولانا.

فقال: أنا عملت في الإتحاد الاشتراكي سنوات طويلة وكذلك في الحزب الوطني.. وخدمت الدعوة الإسلامية كثيراً.. والآن مشيخة الأزهر خالية ود/ عبد الحليم محمود مصر على الاستقالة.. وأنا أحق بمشيخة الأزهر الآن؟.. فأرجو أن تكلم السادات في ذلك.

فقلت له لماذا قدم د/ عبد الحليم استقالته؟

فقال: له طلبات.

فقلت له: أليست هذه الطلبات لمصلحة الإسلام والوطن.. أليست من أجل الصالح العام.. وهل طلب شيئاً لنفسه؟

فقال: أنا لا أدري.. المهم أنه مصر على استقالته.. وأنا أولى بهذا الأمر.

فقلت له مغتاظاً: عموماً لك عندي خبر سعيد بمليون جنية.. لقد قابل الرئيس السادات د/ عبد الحليم محمود واستجاب لكل طلباته.. فلا تتعب نفسك.. فقام حزيناً.

* ولكن د/ عبد الحليم محمود مات قبل أن يرى ثمرة بذلة وكفاحه؟

نعم.. ومن الطريف أنه حينما مات كان السادات يرأس اجتماعاً لمجلس الوزراء فجاءت له السكرتارية بورقه..تقول:

"توفي الآن الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر"

وكان يجلس بجواره وقتها المهندس / حسب الله الكفراوي وزير الإسكان والتعمير وقتها وكانت بيننا صلة ومودة جيدة فقال لي: تصور ماذا قال السادات وقتها.

قلت له: ماذا؟

قال: حينما قرأ الورقة قال:

"الحمد لله الذي أراحنا منه.. فقد كان عامل لنا مشاكل كثيرة"

أشهر مقولاته:

"في العادة لا يقلق من له أب، فكيف يقلق من له رب!"

"أتمني أن يصل الدين إلي أهل السياسة.. ولا يصل أهل الدين إلي السياسة"

"علينا أن نعلم أنه لا شيء يتم في كون الله مصادفة، بل كل شيء بقدر"

"والظالم حين يظلم لا يأخذ حق غيره فقط، بل يُغري غيره من الأقوياء

على أخذ حقوق الضعفاء وظلمهم، وإذا انتشر الظلم في مجتمع تأتي معه البطالة وتتعطّل حركة الحياة كلها"

"هل هذه عبودية تُذلنا أو تُعزنا؟ إنها عبودية تُعزنا، فالذي نعبده يقول: ناموا أنتم ؛ لأنني حي قيوم لا تأخذني سنة ولا نوم"

"الثائر الحق هو من يثور لهدم الفساد، ثم يهدأ لبناء الأمجاد"

"لا يقلق من كان له أب، فكيف بمن كان له رب."

"الطفل يجب أن يرى قضايا الدين مفعولة قبل أن يسمعها مقولة لأن التربية ليست درسا نظريا وإنما هي أسوة سلوكية وحين يرى أن الدين محقق أسلوبا تطبيقيا... لا كلاما نظريا في سلوك من يعلمونه ويربونه سيصبح سلوكه الإيمانى طابعا خلقيا فيه"

"يا رب..يا رب نسألك بأنك الملك وأنت على كل شيء قدير و ما تشاء من أمر يكون وما أحسنها من راحة حين نعلم أن لنا رباً نفزع إليه...مجرد النطق بها يريحنا..يا رب فكيف بالعطاء بعدها يا شؤم من لم يتخذك رباً فيستنجد بك يا بؤس من لست له الهاً فيلجأ إليك كيف يعيش دنياه و كيف يستقبل مصائب حياته"

"إنك إذا ما رأيت عورةً يشكو منها المجتمع، فاعلم أن حدًا من حدود الله قد عُطل، وإن وجدت أُمة متخلفة، فاعلم أنها عطلت شرع الله، وأن وجدت أمة تعاني من أمراض اجتماعية وجسمية، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله"

"القرآن هادي البشرية ومرشدها ونور الحياة ودستورها، ما من شيء احتاجه البشر إلا بيَّنه اللَّه فيه نصًا أو إشارة أو إيماءً، عَلِمه مَنْ عَلِمه، وجهله من جهله"

"ويكفيك عِزًّا وكرامة أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك أن يكون الأمر بيدك، فما عليك إلا أن تتوضأ وتنوي المقابلة قائلًا: اللَّه أكبر، فتكون في معية اللَّه عز وجل في لقاء تحدد أنت مكانه وموعده ومدته، وتختار أنت موضوع المقابلة، وتظل في حضرة ربك إلى أن تنهي المقابلة متى أردتَ. فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا؟ وكم أنت ملاقٍ من المشقة والعنت؟ وكم دونه من الحُجّاب و الحراس؟ ثم بعد ذلك ليس لك أن تختار لا الزمان و المكان و لا الموضوع ولاغيره!"

"إن الإنسان المستقيم لا يعيش الخوف. لأن الخوف أمران. أما ذنب أنا سبب فيه. والسائر على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه. وأما أمر لا دخل لي فيه. يجريه على خالقي. وهذا لابد أن يكون لحكمة. قد أدركها. وقد لا أدركها ولكني أتقبلها. فالذي يتبع هدى الله. لا يخاف ولا يحزن. لأنه لم يذنب. ولم يخرق قانونا. ولم يغش بشرا. أو يخفي جريمة. فلا يخاف شيئا، ولو قابله حدث مفاجئ، فقلبه مطمئن. والذين يتبعون الله. لا يخافون. ولا يخاف عليهم.. وقوله تعالى: "ولا هم يحزنون" لأن الذي يعيش طائعا لمنهج الله.. ليس هناك شيء يجعله يحزن. ذلك أن إرادته في هذه الحالة تخضع لإرادة خالقه. فكل ما يحدث له من الله هو خير. حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك. ملكاته منسجمة وهو في سلام مع الكون ومع نفسه. والكون لا يسمع منه إلا التسبيح والطاعة الصلاة وكلها رحمة. فهو في سلام مع نفسه. وفي سلام مع ربه. وفي سلام مع المجتمع."

"رسول الله ﷺ أرسل رحمة للعالمين وكلنا ندعو له بالرفعة والمقام المحمود.. فنحن بذلك ندعو لأنفسنا.. لأنه بالمقام المحمود الذي سيكون فيه يوم القيامة.. سيشفع لنا جميعا.. فيصيبنا الخير والرحمة علي يديه"

"إذا تساندت حركة الوجود و لم تتعاند.. رضي كل موجود عن جمال الوجود."

"وكلمة (الحمد لله) هذه هي الصيغة التي علمنا الله أن نحمده بها، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يحدد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخلق في الحمد حسب قدراتهم و تمكنهم من الأداء، وحسب الله قدرتهم على استيعاب النعم، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيي والأمي. فتحمل عنا جميعًا هذه الصيغة، وجعلها متساوية للجميع، الكل يقول (الحمد لله) البليغ يقولها، و العيي يقولها، و الأمي يقولها."

"فالصراع دائماً يكون بين قوتين، وحين يكون الصراع بين قوتين، إنما يكون بين حق وباطل، وإذا كان الصراع بين حق وباطل، فلا يطول ذلك الصراع أبداً؛ لأن الباطل زهوق، وإما أن يكون صراعاً بين حقين، فذلك لا يوجد؛ لأنه لا يوجد في قضية واحدة حقان يتصارعان، وإما أن يكون بين باطلين، وذلك هو الصراع المشهود الذي يطول ولا ينتهي أبداً؛ لأن أحد الباطلين ليس أولى بأن ينصره الله (عز وجل) على غيره، فيظل الصراع طويلاً، فإذا رأيت معركة بين طرفين ولم تنتهي، فاعلم أن الصراع فيها بين باطلين."

"القرآن الكريم ليس إعجازًا في البلاغة فقط، ولكنه يحوي إعجازًا في كل ما يمكن للعقل البشري أن يحوم حوله، فكل مفكر متدبر في كلام اللّه يجد إعجازًا في القرآن الكريم. فالذي درس البلاغة رأى الإعجاز البلاغي، والذي تعلم الطب وجد إعجازًا طبيًا في القرآن الكريم. وعالم النباتات رأى إعجازًا في آيات القرآن الكريم، وكذلك عالم الفلك."

"أنا أنصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد.. ألا يشغلَ نفسه بالتفكير في المعنى أما الذي يقرأ القرآن ليستنبط منه فليقف على اللفظ و المعنى.. فإذا

قرأتَ القرآن لتتعبد فاقرأه بِسرّ اللَّه فيه.. ولـو جلـست تبحـث عـن المعنـى.. تكون قد حددتَ معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت.. وتكـون قـد أخـذت المعنى ناقصًا نقصَ فكر البشر... ولكن اقرأ القرآن بسر اللَّه فيه."

"كلمة: الآيات لا تطلق على مطلق موجود، إنما تطلـق عـلى الموجـود العجيب، كما نقول: هذا آية في الحسن، آية في الـشجاعة، فالآيـة عـلي الـشيء العجيب."

"لماذا تكرر الجهد مرتين؟ وتعيد العمل مرتين، ابدأ بداية صحيحة."

"ما فائدة أن يكون معك سيف بتار.. دون أن توجـد اليـد القويـة التـي ستضرب به، ونحن غالبا نكون مضيعين للحـق لأننـا لا نـوفر لـه القـوة التـي ينتصر بها"

***

قضايا فسرها وأوضح حلولها

في حوار للأستاذة الكاتبة / سناء السعيد مع الشيخ الشعراوي وقد ضمنته في كتابها " الشعراوي بين الدين والسياسة " وفي هذا الجزء من الحوار يتكلم الشيخ الشعراوي عن الإسلام كنظام.. ويتكلم عن الحكم كمسئولية وتكليف لا تشريف.. ويعارض مبدأ " تسييس " الشباب مشيرا إلى أن تربية الشباب سياسيا وإقامة التكتلات الطلابية لا يتفق مع واقع الحياة ومتطلباتها. مؤكدا أن سياسة الدولة يجب ألا يضطلع بها إلا من نضج وصقلته التجربة.

فلنقرأ هذا الجزء من الحوار الرائع والتي أجرته المؤلفة مع الشيخ:

**** الإسلام كنظام سياسي.. إلى أي حد أمكن تبني الإسلام كمنهج سياسي للمجتمع؟**

يجيب الشيخ: ما المقصود بالسياسة؟ إن السياسة إدارة حركة الحياة. فأنا كإنسان وفرد أدير حركة الحياة في نفسي. ورب الأسرة يديرها في أسرته.. وحاكم الأقليم يديرها في إقليمه..والحاكم العام يديرها في دولته.. وإدارة هذه الحركة تتطلب أن تكون هناك سياسة وأن توضع أصلا لكي تدار. وهنا نتساءل من الذي يضعها؟ المفروض في الحاكم ألا يعمل بنفسه.. وإنما يختار من يعمل ويراقبه. ولهذا فيوم أن تأتي الحكومة لتضطلع هي بالعمل تقول لها اءت فاشلة. الحكومة التي تتكفل بالمباني أو بشي السمك وقليه تكون حكومة فاشلة لأن الحكومة يجب أن تختار من يعمل لها وتراقبه.. لأنها عندما تعمل ستعمل بجهاز وهذا الجهاز سيعمل للآخرين.. فلا يمكن أن يقال أن إنسانا يعمل لنفسه يساوي في إخلاصه إنسانا يعمل لغيره. يجب على الحكومة أن تدع كل فرد يعمل لمصلحته بحيث يكون مدفوعا للعمل بحب

نفسه ولو حدث هذا ما ظهرت الرشوة وانتشرت وما انهارت العمارات.. إن العمارات تتصدع وتنهار لأنني أنا لست الباني.. كما أنني لا أجلب الحديد أو الأسمنت ولا أشرف على الرمل أو الكم أو النوعية- لأن غيري هو الذي يشرف وهو المنتفع ولهذا شتان بين فرد يبني بنفسه وآخر يشرف مقاول على بنائه، وثالث يشرف على البناء مقاول من الحكومة. فالأول سيجيد ولن يؤخذ منه شيء أما الثالث فستتعدد المصافي وسيكثر الاستغلال وعدد المنتفعين.

**** هذا يحمل ضمنا وصراحة تشجيعا وإعلاء للقطاع الخاص بل وتغليبه على القطاع العام ويستشف منه تنحية القطاع العام على أساس أنه مليء بالثغرات ولا مثالب؟**

إنه فيه حثا على القطاع الذاتي بحيث يتكفل كل بعمليته، ولهذا عندما أقحمت الحكومة نفسها وتدخلت في أرزاق الناس وتصنيفهم وفق أن هذا لديه وهذا ليس لديه ترك الله لهم العملية بأكملها ليتحملوها كلها.. من أخذ ما ليس له حمله الله ما ليس عليه.

وأتساءل من قال بأن دولة متخلفة في العالم الثالث ما زالت في بدء المحاولات لكي تنهض تشرع بمهمة توظيف كل أفرادها وتأخذ على عاتقها تعليم الأغلبية بالجامعة. إننا ننسي أن من يتعلم بالجامعة في الولايات المتحدة يدفع الكثير حتى يمكن له ذلك.

**** هذه دعوة ضمنية إلى قصر التعليم الجامعي على فئة قادرة على تمويل تعليمها – بل إن ما أردتموه ألآن دعوة تحريضية ضد مجانية التعليم؟**

هذه ليست مجانية – فلو أننا حسبنا ما تدفعه الأسرة على الدروس الخصوصية لأولادها لوجدناه يساوي عشرة أمثال ما كانت تتكلفه الدراسة

يوم أن كانت بمصاريف – فدعونا من نفاق الجماهير ولنشرع في علاج مثل هذه القضايا بروح جديدة – ذلك أننا إذا لم نعالج المسائل بوقفة صريحة وواضحة فإن الأمور ستزداد تفاقما ومشاكلنا ستتراكم. لقد حسبنا العطلة في الدولة فكانت ١١٤ يوما – من سخرية القدر أن اليوم الذي نحب أن نمجد فيه عملا نأخذه كعطلة أي أننا نمجد العمل بتركه.

** ورغم هذا فكل يدع الأمور تسير كيفما أتفق؟

نعم والآثار تتراكم.. وكل يسوس عمره إلى أن ينفد ويترك المسائل معلقة فيما بعد لمن يظل على قيد الحياة كي يعاني الأمرّين.

** معنى هذا أنكم غير راضين عما يسود واقعنا اليوم من أوضاع مغلوطة ومعايير مقلوبة ومفارقات مضادة؟

غير راض عن الكثير

** نقطة الصراع بين الإسلام والعصرية في التفكير السياسي – والتي ينظر إليها البعض على أنها أحد الأسباب لعدم الاستقرار؟

التفكير السياسي صراع فكري بشرى لفكر بشري – فليس هناك فكر بشري أولي من فكر طالما نحكم بأنفسنا – ولكن حينما أخضع أنا وأنت لمن هو أعلى مني ومنك فهنا لن تكون لديك غضاضة ولن تكون على غضاضة خاصة وأن من نتلقى منه – باتفاقنا كمؤمنين- أعلى مني ومنك – ومن ثم يوم تخضع له لن يقال أنني خاضع لك أو أنك خاضعة لي.. فكلانا خاضع لأله أعلى.

** هذا لا يمنع من وجود جزئيات يخضع فيها المتلقي إلى فكر بشر مثله؟

الفكر البشري يكون في الأمور التي ترك الله لنا أمر التفكير فيها بشريا. بمعني أننا لا نقترب من أمور حسمها الله بإحكام.. أما الأمور التي لم يحسمها الله بإحكام فقد أباح لنا أن نفكر فيها بشريا.

** حتى في الأمور التي أباح لنا الله فيها أن نتبع فكرنا البشري فإن الحكم تحول إلى معضلة؟

ما يرهق ويتعب الآخرين أن طائفة تريد أن تحكم طائفة.. دولة تتطلع إلى حكم دولة.. ولكن عندما يثبت أنه لا أنا ولا أنت نريد أن نحكم ينتهي الأمر وتصفي القلوب وتطمئن. فالله هو الذي يحكم. وعليه يكون الحكم تكليف لا أبهة وتشريف وترفيه ومنهجية فالحكم متاعب ومسئوليات ومهام جسام.

** في محاولة تهيئة الإنسان للحكم وإعداده تمهيدا للاضطلاع به قد ينظر وجوب خلق الكوادر الجديدة وتربيتها سياسيا أو ما اصطلح بتسميته تسيس الطلبة؟

تربية الشباب سياسيا وإقامة التكتلات الطلابية لا يتفق مع واقع الحياة ومتطلباتها. فنحن نتعرض لإرهاق وكد في محاولة منحهم منهجا لاستذكاره والنجاح فيه – فكيف بمن لا يستطيع أن يسوس أمور نجاحه في بعض المواد أن نأتي كلي نسيسه ونطالبه بأن يتحدث في سياسة الدولة؟ إن هذا محض هراء. ذلك أن سياسة لا دولة يجب أن تكون قاصرة على قوم نجحوا بالفعل في حياتهم الخاصة ونضجوا وصقلتهم التجربة فحق لهم بالتالي أن يضطلعوا بمسئولية الأمة. فلأن الفرد منهم قد جرب في مسائله الخاصة ونجح – فإننا نطالبه بأن يحمل مهمة أمته ويقدم لها بعض الخير. فهو يضطلع بالمهمة بعد أن وصل إلى حد الإشباع في الشهوة والأهواء والنزعات.. وبعد أن وصل إل

الشعور بأنه قريب إلى الله فكل هذا يصبح عاصما له مـن أن يـزل أو ينحـرف. ومن ثم لا يمكن أن أتوجه للأطفال المعجزة لأطالبهم بـأن يـأتوا ليجربـوا في الأمة. إننا نقول لهؤلاء جربوا في حياتكم الشخصية أولا ، فإذا نجحوا وجرب الإنسان منهم بأمانة في مسائله الخاصة – حينئذ وفقـط يمكـن أن أئتمنـه عـلى المسائل العامة وأطالبه بعد النضج أن يتوج حياته بخدمة أمتـه. فثمـار نـضجه وتجاربه لابد أن يمنحها لأمته.

** هذه دعوى صريحة لرفع الأيدي عن تسييس الطلبـة وإقحـامهم في مجالات العمل السياسية وما يطلق عليه تربية الكوادر السياسية الجديدة؟

لا يمكن أن آتي للشباب منذ البداية لأقول له إنني سأتعهد بتعليمـك وفي الوقت نفسه أقوم بتسييك.. كيف هذا وهو لا ينجح إلا بصعوبة؟ كيـف يتـأتي له التفرغ والنجاح في مسائل أخرى أكبر وأكثـر أهميـة بالنـسبة للمرحلـة التـي يعيشها حينئذ؟ إن اللجوء إلى تسييس الطلبة هو ض٢رب مـن تملـق الـشباب ومنافقته ويجب أن نبعد عن هذا لأنني إن فعلت سأوقع الشباب في المحظـور وسيعاني منه الشباب كثيـرا عـلى المـدى البعيـد. مـن الـسخرية أن نتطلـع إلى تسييس الشباب في الوقت الذي قدر أرى فيه شابا في الخامـسة ولا عـشرين أو الثلاثين وما زال يتعلم. أي أنه ما زال طفلاً يمد يده لوالـه لكـي يحـصل عـلى مصروفه. بمعنى أن طاقته مضيعة مهددة من سن الثالثة عـشر حتـى الخامـسة والعشرين.. فكيف أشغله بتيارات أخرى؟

** ولكن قد ينظـر إلى التـسييس بوصـفة أحـد المجـالات التـي تلبـي طموح الشاب وتصقل ذاتيته؟

الطفل كأي ثمرة من الثمار حين يبلغ نـضجه تـصبح لـه ذاتنيـة – وهـي التي يجب أن تستغل أولاً – بمعنى أنـه إذا تطلـع إلى طموحـات مـا فلابـد أن

يشقى من أجلها ويتعب ويستوفي شروط الحصول عليها ليستحقها بجدارة – فلا يمكن أن أعهد إليه بمهمة أمة وهو خواء وفراغ.

** ما دمنا بصدد الحديث عن الحكم أتساءل ماذا عما يردده البعض من دعوى مفادها أن علماء الدين يجب أن يقودوا بدلا من أن يحكموا؟

إن مبدئي دائماً يتركز في أنني أريد أن أحكم بالإسلام – ولا أريد أن أحكم. فعندما يأتي عالم الدين ويقول هذا يتبين لنا إخلاصه في دعوته. فكأن الإسلام لديه أمين في أن يدير الكون ويدير ما فيه. أما إذا حدث العكس وتطلع عالم الدين إلى أن يحكم فهنا تكون مشهورة.. وهنا نقول له لا.

وعليه ألا ينسى أن الشهوة – شهوة الحكم – قد تكبت وتحصر وتحاصر. لأنه من البديهي أن من يملك الحكم لا يريد ولا يسمح لأحد بأن يستولي عليه. ولهذا ستثار العقبات في طريقه وهو في حل عن هذا كله. وعليه فمن أراد الصالح العام من هؤلاء – أعني علماء الدين – نحن نفسه عن شهوة الحكم وتطلع فقط إلى أن يحكم من غيره الإسلام.

** هذه دعوة إلى أن يربأ علام الدين بنفسه عن الحكم؟

نعم.. بل إن السبب في فشل أكثر من حركة إسلامية أن القائمين عليها يريدون في الحقيقة أن يحكموا لا أن يحكموا بالإسلام. وهؤلاء حري بكل منهم أن ينأي بنفسه عن الحكم وعن أن يمسك بمقاليده فلم يعد هناك من يملك المحاباة بالنسبة لأي حاكم كان – ولذا علينا أن نطلب من الحاكم أن يحكمنا ونحاول أن نحتويه.

** معنى هذا أنه لا خوف على لاحاكم من أن يرتدي ثوب الحكم الإسلامي؟

بالطبع لا.. لأنه أن أراد حقا أن يطبق الحكم الإسلامي فعليه أن يطبقه أولاً على نفسه. حين يفعل ذلك فلن يجد له أحد من رعاياه تميزاً له في شيء. وبالتالي لن يتطلع أبداً إلى أن يكون حاكماً، طالما أن الحاكم غير متميز. فإذا غاب التميز ولا تفرد للحاكم بالنسبة لرعيته غاب المحرك للأطماع بالنسبة للحكم. فعندما يتطلع المرء العادي فيرى الحاكم ومن حوله من حاشية يرتعون في ترف وبذخ يتطلع بدوره إلى أن يكون حاكماً. ولكن عندما يتطلع فيجد الحاكم شقياً بالحكم سيبعد عنه ويطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعينه ويأخذ بيده على ما هو فيه.ولهذا عندما يقال أن عمر بن الخطاب قد حكم الدنيا – نقول لا لم يحكم الدنيا وإنما حكم نفسه أولا فحكمت له الدنيا. كان عمر أجل من أن يجامل قريباً له – إنما كان يجامل الناس لإتصالهم به أما أهله وعشيرته فكان يقول لهم: نويت أن أفعل كذا وكذا فمن خالفني فيه فساجعلنه نكالاً للمسلمين.

لقد وقف عمر ليخطب قائلاً: اسمعوا وتطيعوا.

فإذا بواحد من الحاضرين يقاطعه قائلاً: لا سمع ولا طاعة. فقال: له عمر: ولم؟ قال الرجل: ثيابك أطول من ثيابنا.. وهنا نظر عمر لأبنه عبد الله وقال له قم لتتحدث. فقال عبد الله: أبي رجل طوال فأعطيته ثوبي فوصله بثوبه. وهنا قال الرجل: ألآن نسمع ونطيع.

وهذا يعني أن السمع والطاعة واجبة حينما يجد المرء أن الحاكم ليس متميزاً عنه في شيء. بل على العكس متعب ومرهق وشقي بالحكم الذي يضطلع به.

وهناك قصة أخرى أسوقها... فلقد جاء رجل ورفض ألا أن يأكل مع أمير المؤمنين ظناً منه أن موائد أمير المؤمنين تختلف عن موائد العامة وأنها

عامرة بأشهي الأصناف – فترك الرجل الناس تأكل الثريد والبعير.. وانتظر هو ليأكل مع أمير المؤمنين. كم كانت دهشته أن وجد على مائدة أمير المؤمنين القديد وبعض الخل.

فشخص مثل هذا رأي ما عليه الحاكم لا يمكن أن يفكر في يوم من الأيام أن يصبح حاكماً. وبالطبع سيتغير الأمر لو أنه رأي الحكم ترفاً ورفاهية. وعليه أقول حين يأتي الحاكم ويكون إسلامياً حقيقاً فهو لا يخشى شيئاً البته.

** مهمة الحكم تظل تكليفا بمسئولية شاقة وتبعة جسيمة بل أن الحاكم مهما أنصف وعدل قد لا يسلم في النهاية من اللوم أو الإيذاء؟

على الحاكم أن ينجز ما أنيط به.. أما إذا جاءه بعد هذا من لا يرضى عنه أو من يغتاله أو ينال منه فسيكون له جزاؤه. تماما مثلما حدث لعمر بن الخطاب. فكأن الإله يقول له.. أنت قدمت عملا كبيراً. وعملك في الدنيا لا يكفي للجزاء الذي أريده لك وعليه أميتك شهيداً لكي أجزيك خير الجزاء.

** خرج علينا أحد علماء المسلمين.ويدعي عبد الرحمن وحيد – زعيم منظمة نهضة الأمة في أندونيسيا ليؤكد أن ما ذكره القرآن من تشكيل دولة إسلامية أمر غير واقعي – وأن هذا حلم يراود البعض؟

كل هذه أبواق مدفوعة من خصوم الإسلام – تماما كما دفع – مبرزا غلام أحمد – في باكستان فانشأ القديانية لكي يبطل الجهاد الذي يؤرق أعداء الإسلام. والذي أ{ق الصليبين والإلحاديين دائماً. فهؤلاء مدفوعون من قبل خصوم الإسلام. ولهذا ترين أن كل دعوة من هذه الدعوات تجنح إلى التخفيف وهذا يصدق أيضاً على ما قام في إيران من بابية وبهائية – إذ لجأ أتباعها إلى التخفيف.

فكل دعوة من هذه الدعوات تلجأ إلى تخفيف الإسلام بغية تخليصة من قوة تفرض سيطرتها في حركة الحياة بما لا يتدخل في عقيدة ولذلك هم يقولون ويشيعون خطأ بأن الإسلام كان بالسيف. وهو ليس كذلك – إذ لو كان بالسيف حقاً لما بقي هناك من يدفع الجزية في الدول التي فتحها. فإبقاء الإسلام على من يدفع الجزية معناه أنه ترك لأصحاب العقيدة حريتهم طالما أن نظام الإسلام يسير. وطالما كان له فكر يسوس به الدنيا بل إن من نضج في حضن الإسلام صلح لكي يقود ويسوس الدنيا أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد.

** الإسلام كنظام يسوقنا إلى الحديث عن أسلوبه في الحروب خاصة وأن هناك وجهة نظر تؤكد وتسوق الشواهد على أن الإسلام لم يشن حرباً هجومية قط وأن كل غزوات الرسول ﷺ كانت دفاعية بدءاً " ببدر " وانتهاء بتبوك؟

من قال أن حروب الإسلام كانت للدفاع؟ هذا أيضاً ما يريد خصوم الإسلام أن يوقعوا الإسلام من خلاله.

إنني حر في أن أعلن عن ديني وأحمي اختيار الفرد كما يجب.

فأنا إن حاربت أحارب لكي أحمي إختيار الفرد بعدما أعلنها صريحة بأن من يعارضني في أن أقول كلمة الحق سأحاربه وأهاجمه.

** هل يمكن أن أهادن؟

بالطبع لمن لا يعارضني ولكن من يعارضني أهاجمه. أن أقول كلمة الحق ثم بعد ذلك له مطلق الحرية في أن يسمعها أو لا يسمعها أو لا يسمعها. فالإسلام جاء بقوته ليحمي حرية اختيار الفرد.

**ولكن كل غزوات الرسول ﷺ بدءاً من بدر حتى تبوك كانت كلها دفاعية؟

ليست دفاعية أبداً فعندما أعلم أن هناك من يريد أن ينقض علّي أو أن هناك من يعين غيره للإنقضاض عليّ فماذا أفعل؟ يجب أن أحاربه.

** هل يعني هذا أن الإسلام د حض على أن تكون الحرب هجومية؟

هجومية لمن أظن فيه أنه سيقف أمام دعوتي..

** ألا يتعارض هذا مع قوله تعالى: لا إكراه في الدين؟

أنا لا أكرهه – ولكن أحمي الاختيار. بدليل أن الجزية قد فرضت – ففرض الجزية يعني أن هناك أناسا تركوا على دينهم. فأنا لم أرغم أحدا – من استمر على دينه استمر – فحربي كله من أجل أن أفسح لكلمة الحق أن تقال ولكي أحمي اختيار الفرد.

** كان لدي انطباع بأن الحروب في الصدر الأول من الإسلام كانت دفاعية ولم تتحول إلى هجومية إلا في الداخل فقط بالنسبة للمرتدين؟

المرتد موضوع آخر. وهناك من عاب الارتداد على الإسلام. وهؤلاء أغبياء. لأنني حينما أقول للمرء إنك إن دخلت الإسلام ثم خرجت منه تدفع حياتك ثمناً له. حينئذ لن يدخل الإسلام إلا إذا جعل الغاية من الإسلام مقابل حياته بمعنى ألا يدخل هكذا جزافا وبدون تفكير وإلا كان الموت ثمناً لجزافيته.

**** ألا يمكن أن يكون رد فعل هذا التحذير هو الحد من عدد الداخلين إلى الإسلام؟**

إنني أحذر من مغبة الأمر.. ومن الجزافية حتى لا يدخل عندي ثم يعود

قائلاً لقد جربت الإسلام فلم يصلح لي. ولهذا أنصح قبل أن يدخل إلى الإسلام بأن يدرس العملية أولاً حتى يكون دخوله الإسلام بعد تدبر وتمعن.

*** قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ [١٧] وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ [١٨] وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ [١٩] وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:١٧/ ٢٠). مع ما تدعو إليه الآية من تمعن تدبر ونظر هل أحساب المرء إذا لم يهتد؟

عليه أن يتمعن بداية قبل أن يعلن إسلامه. لن الرجوع عنه ثمنه حياته أنني هنا أحول بينه وبين النظر إلى عملية إسلامه على أنها مجرد نظرية سطحية. بحيث يعلن إسلامه ثم يرتد عنه بعد ذلك. فانا أحذره.. لا تجعل منها نظرية سطحية لأنك إن فعلت ستدفع حياتك ثمناً لها.. إنني أنبهه " إياك أن تدخل إليها إلا وأنت واثق بأن ما خلت إليه أثمن من حياتك ".

*** ولكن ألا تؤخذ عملية النضج في الحسبان. فالمتغيرات التي تعن للمرء على مدى سنوات العمر كفيلة بتغيير مسارات فكره ومبادئه ودرجة النضج لديه؟

ما دام الإنسان أصبح قادراً على إنجاب مثله – يكون قد نضج هذا هو حد النضج فإذا أصبح الشاب بالغاً قادراً على إنجاب مثله يكون النضج قد استوفي واستوي ولهذا لم يكلف الله المرء إلا بعد الوصول إلى القدرة على إنجاب مثله.

***

الشعراوي والمعاهدة

الزيارة التاريخية للرئيس السادات للقدس ،والتي كانت مفاجئة للعالم كله ، وكان ذلك في مساء ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، كانت لها تداعيات ستبقى من أهم الأحداث وأخطرها ، في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي.. ولكن وقبل أن نتعرف على رأي شيخنا حول هذا الحدث وتداعياته وروايته لهذه الأحداث وتأثيرها عليه.سنتعرف على ماهية معاهدة السلام وكيف اختلفت حولها الآراء ما بين مؤيد ومعارض وحتى متهماً بالخيانة وبيع الوطن.

معاهدة كامب ديفيد:

اتفاقية كامب ديفيد عبارة عن اتفاقية تم التوقيع عليها في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ بين الرئيس المصري محمد أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن بعد ١٢ يوما من المفاوضات في المنتجع الرئاسي كامب ديفيد في ولاية ميريلاند القريب من عاصمة الولايات المتحدة واشنطن. حيث كانت المفاوضات والتوقيع على الاتفاقية تحت إشراف الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر. ونتج عن هذه الاتفاقية حدوث تغييرات على سياسة العديد من الدول العربية تجاه مصر، وتم تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٨٩ نتيجة التوقيع على هذه الاتفاقية ومن جهة أخرى حصل الزعيمان مناصفة على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٨ بعد الاتفاقية حسب ما جاء في مبرر المنح للجهود الحثيثة في تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط. وتوجد مطالب بالإفصاح عن تفاصيلها التي تبقى سرية حتى اليوم، كما أنّها لم تُعرض على البرلمان المصري.

الوضع قبل الاتفاقية

أدت حرب أكتوبر وعدم التطبيق الكامل لبنود القرار رقم ٣٣٨ والنتائج الغير مثمرة لسياسة المحادثات المكوكية التي انتهجتها الخارجية الأمريكية والتي كانت عبارة عن استعمال جهة ثالثة وهي الولايات المتحدة كوسيط بين جهتين غير راغبتين بالحديث المباشر والتي كانت متمثلة بالعرب وإسرائيل، أدت هذه العوامل إلى تعثر وتوقف شبه كامل في محادثات السلام ومهدت الطريق إلى نشوء قناعة لدى الإدارة الأمريكية المتمثلة في الرئيس الأمريكي آنذاك جيمي كارتر بأن الحوار الثنائي عن طريق وسيط لن يغير من الواقع السياسي لمنطقة الشرق الأوسط.

في إسرائيل طرأت تغييرات سياسية داخلية متمثلة بفوز حزب الليكود في الانتخابات الإسرائيلية عام ١٩٧٧ وحزب الليكود كان يمثل تيارا أقرب إلى الوسط من منافسه الرئيسي حزب العمل الإسرائيلي الذي هيمن على السياسة الإسرائيلية منذ المراحل الأولى لنشوء "دولة إسرائيل"، وكان الليكود لا يعارض فكرة انسحاب إسرائيل من سيناء ولكنه كان رافضا لفكرة الانسحاب من الضفة الغربية .

تزامنت هذه الأحداث مع صدور تقرير معهد بروكنغس التي تعتبر من أقدم مراكز الأبحاث السياسية والاقتصادية في الولايات المتحدة ونص التقرير على ضرورة اتباع "منهج حوار متعدد الأطراف" للخروج من مستنقع التوقف الكامل في حوار السلام في الشرق الأوسط.

من الجانب الآخر بدأ الرئيس المصري محمد أنور السادات تدريجيا يقتنع بعدم جدوى القرار رقم ٣٣٨ بسبب عدم وجود اتفاق كامل لوجهات النظر بينه وبين الموقف الذي تبناه حافظ الأسد والذي كان أكثر تشددا من

ناحية القبول بالجلوس على طاولة المفاوضات مع إسرائيل بصورة مباشرة. هذه العوامل بالإضافة إلى تدهور الاقتصاد المصري وعدم ثقة السادات بنوايا الولايات المتحدة بممارسة أي ضغط ملموس على إسرائيل، وكان السادات يأمل إلى أن أي اتفاق بين مصر وإسرائيل سوف يؤدي إلى اتفاقات مشابهة للدول العربية الأخرى مع إسرائيل وبالتالي سوف يؤدي إلى حل للقضية الفلسطينية.

استنادا إلى الرئيس المصري السابق محمد حسني مبارك في حواره مع الإعلامي عماد أديب في عام ٢٠٠٥ إن الراحل محمد أنور السادات أتخذ قرار زيارة إسرائيل بعد تفكير طويل حيث قام السادات بزيارة رومانيا وإيران والسعودية قبل الزيارة وصرح في خطاب له أمام مجلس الشعب المصري انه "مستعد أن يذهب إليهم في إسرائيل" وقام أيضا بزيارة سوريا قبيل زيارة إسرائيل وعاد في نهاية اليوم بعد أن حدثت مشادة كبيرة بينه والسوريين لأنهم كانوا معترضين علي الزيارة واستنادا إلى إبراهيم نافع فإن الرئيس الروماني نيكولاي شاوشيسكو قد قال "بأن مناحيم بيغن بلا شك صهيوني وصهيوني جدا، ولكنه رجل سلام، لأنه يعرف ما هي الحرب. ولكنه أيضا يريد أن يترك اسمه علامة في تاريخ الشعب اليهودي.

سبقت زيارة السادات للقدس مجموعة من الاتصالات السرية، حيث تم إعداد لقاء سري بين مصر وإسرائيل في المغرب تحت رعاية الملك الحسن الثاني، التقى فيه موشى ديان وزير الخارجية الإسرائيلي، وحسن التهامي نائب رئيس الوزراء برئاسة الجمهورية. وفي أعقاب تلك الخطوة التمهيدية قام السادات بزيارة لعدد من الدول ومن بينها رومانيا، وتحدث مع رئيسها تشاوشيسكو بشأن مدى جدية بيجن ورغبته في السلام، فأكد له

تشاوشيسكو أن بيجن رجل قوي وراغب في تحقيق السلام.

في افتتاح دورة مجلس الشعب في ١٩٧٧، وفي هذه الجلسة الشهيرة أعلن السادات استعداده للذهاب للقدس بل والكنيست الإسرائيلي، وقال: "ستُدهش إسرائيل عندما تسمعني أقول الآن أمامكم إنني مستعد أن أذهب إلى بيتهم، إلى الكنيست ذاته ومناقشتهم". وانهالت عاصفة من التصفيق من أعضاء المجلس، ولم يكن هذا الهتاف والتصفيف يعني أنهم يعتقدون أنه يريد الذهاب فعلا إلى القدس.

ألقى السادات خطابا أمام الكنيست الإسرائيلي في ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧. وشدد في هذا الخطاب على أن فكرة السلام بينه وبين إسرائيل ليست جديدة، وأنه يستهدف السلام الشامل، دعا السادات بيجن لزيارة مصر، وعقد مؤتمر قمة في الإسماعيلية وبدأ بيجين يتكلم عن حق إسرائيل في الاحتفاظ بالأراضي المحتلة، وعدوان مصر على إسرائيل.

بعد اجتماع الإسماعيلية بشهر واحد اجتمعت اللجنة السياسية من وزراء خارجية مصر وإسرائيل والولايات المتحدة في القدس. وفي أثناء انعقاد تلك اللجنة شرعت إسرائيل في بناء مستوطنات جديدة في سيناء، لاستخدامها كورقة مساومة على مصر. لم يكن بيجن مستعدًا لقبول تنازلات، وقال وزير الخارجية الإسرائيلي "موشى ديان": "إنه من الأفضل لإسرائيل أن تفشل مبادرة السلام على أن تفقد إسرائيل مقومات أمنها".

وعرض الإسرائيليون على مصر ترك قطاع غزة للإدارة المصرية مقابل تعهد بعدم اتخاذها منطلقًا للأعمال الفدائية، وكان هدفهم من ذلك عدم إثارة موضوع الضفة الغربية، شعر السادات أن الإسرائيليين يماطلونه؛ فألقى خطابًا في يوليو ١٩٧٨ قال فيه: إن بيجن يرفض إعادة الأراضي التي سرقها

إلا إذا استولى على جزء منها كما يفعل لصوص الماشية في مصر.

أنشأ السادات الحزب الوطني الديمقراطي وتولى رئاسته، وزادت قبضته العنيفة على القوى المعارضة لتوجهاته، ثم لجأ إلى الاستفتاء الشعبي على شخصه، ترددت مصر بين المضي في المبادرة أو رفضها، ولكن تدخل كارتر بثقله، ودعا السادات وبيجن إلى اجتماعات في كامب ديفيد.

محادثات ما قبل الاتفاقية

وصل الوفدان المصري والإسرائيلي إلى كامب ديفيد يوم ٥ سبتمبر ١٩٧٨. ذهب السادات إلى كامب ديفيد وهو لا يريد أن يساوم، وإنما ردد مشروع قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ كأساس للحل. أما كارتر والإسرائيليون فكانوا مقتنعين أن السادات لن يوافق قط على أي وجود إسرائيلي في سيناء.

في اليوم الأول من المحادثات قدم السادات أفكاره عن حل القضية الفلسطينية بجميع مشاكلها متضمنة الانسحاب الإسرائيلي من الضفة وغزة وحلول لقضية المستوطنات الإسرائيلية واستنادا إلى مبارك فإن السادات لم يركز في محادثاته كما يعتقد البعض على حل الجانب المصري فقط من القضية حاولت الإدارة الأمريكية إقناع الجانبين أن يتجنبوا التركيز على القضايا الشائكة مثل الانسحاب الكامل من الضفة الغربية وغزة ويبدؤا المناقشات على قضايا أقل حساسية مثل الانسحاب الإسرائيلي من سيناء كان الهيكل العام للمحادثات التي استمرت ١٢ يوما تتمحور على ثلاثة مواضيع رئيسية الضفة الغربية وقطاع غزة: استند هذا المحور على أهمية مشاركة مصر وإسرائيل والأردن وممثلين عن الشعب الفلسطيني في المفاوضات حول حل هذه القضية التي اقترحت الولايات المتحدة إجراءات انتقالية لمدة ٥ سنوات لغرض منح الحكم الذاتي الكامل لهاتين المنطقتين وانسحاب إسرائيل

الكامل بعد إجراء انتخابات شعبية في المنطقتين ونص الاقتراح أيضا على تحديد آلية الانتخابات من قبل مصر وإسرائيل والأردن على أن يتواجد فلسطينيون في وفدي مصر والأردن.

حسب الاقتراحات في هذا المحور كان على إسرائيل بعد الانتخابات المقترحة ان تحدد في فترة ٥ سنوات مصير قطاع غزة والضفة الغربية من ناحية علاقة هذين الكيانين مع إسرائيل والدول المجاورة الأخرى

علاقات مصر وإسرائيل: استند هذا المحور على أهمية الوصول إلى قنوات اتصال دائمة من ناحية الحوار بين مصر وإسرائيل وعدم اللجوء إلى العنف لحسم النزاعات واقترحت الولايات المتحدة فترة ٣ أشهر لوصول الجانبين إلى اتفاقية سلام.

علاقة إسرائيل مع الدول العربية: حسب المقترح الأمريكي كان على إسرائيل العمل على إبرام اتفاقيات سلام مشابهة مع لبنان وسوريا والأردن بحيث تؤدي في النهاية إلى اعترافات متبادلة وتعاون اقتصادي في المستقبل

كان الموقف الإسرائيلي متصلبًا متشددًا يرفض التنازل، وهو ما جعل السادات يعلن لمرافقيه أنه قرر الانسحاب من كامب ديفيد، فنصحه وزير الخارجية الأمريكي "سايروس فانس" أن يلتقي بكارتر على انفراد، واجتمع الرئيسان نصف ساعة.

المعاهدة:

في ٢٦ مارس ١٩٧٩ وعقب محادثات كامب ديفيد وقع الجانبان على معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية وكانت المحاور الرئيسية للمعاهدة هي إنهاء حالة الحرب وإقامة علاقات ودية بين مصر وإسرائيل، وانسحاب

إسرائيل من سيناء التي احتلتها عام ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة وتضمنت الاتفاقية أيضا ضمان عبور السفن الإسرائيلية قناة السويس واعتبار مضيق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية تضمنت الاتفاقية أيضا البدء بمفاوضات لإنشاء منطقة حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة وقطاع غزة والتطبيق الكامل لقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢.

الخطوط الرئيسة والعامة

الاتفاقية الأولى: تبدأ بمقدمة عن السلام وضروراته وشروطه، ثم تعرض الاتفاقية التصور الذي تمّ التوصل إليه "للسلام الدائم في الشرق الأوسط" وتنصّ على ضرورة حصول مفاوضات بين إسرائيل من جهة ومصر والأردن والفلسطينيين من جهة أخرى.

الاتفاقية الثانية: نصت على التفاوض المباشر بين مصر وإسرائيل من أجل تحقيق الانسحاب من سيناء التي احتلتها إسرائيل في عدوان العام ١٩٦٧م.

وتنص الاتفاقية على إقامة علاقات طبيعية بين مصر وإسرائيل بعد المرحلة الأولى من الانسحاب من سيناء.

يرى بعض المحللين السياسيين إن معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية لم تؤدي على الإطلاق إلى تطبيع كامل في العلاقات بين مصر وإسرائيل حتى على المدى البعيد فكانت الاتفاقية تعبيرا غير مباشر عن استحالة فرض الإرادة علي الطرف الآخر وكانت علاقات البلدين وحتي الآن تتسم بالبرودة والفتور كانت الاتفاقية عبارة عن ٩ مواد رئيسية منها اتفاقات حول جيوش الدولتين والوضع العسكري وعلاقات البلدين وجدولة الانسحاب الإسرائيلي وتبادل السفراء.

يرى البعض إنه وحتى هذا اليوم لم ينجح السفراء الإسرائيليين في القاهرة ومنذ عام ١٩٧٩ في اختراق الحاجز النفسي والاجتماعي والسياسي والثقافي الهائل بين مصر وإسرائيل ولا تزال العديد مَن القضايا عالقة بين الدولتين ومنها:

مسألة محاكمة مجرمي الحرب من الجيش الإسرائيلي المتهمين بقضية قتل أسرى من الجيش المصري في حرب أكتوبر والتي جددت مصر مطالبتها بالنظر في القضية عام ٢٠٠٣.

امتناع إسرائيل التوقيع على معاهدة منع الانتشار النووي.

مسألة مدينة أم الرشراش والواقعة تحت سيطرة إسرائيل ويطلق على المدينة اسم "إيلات" من قبل الإسرائيليين. حيث إن البعض مقتنع إن قرية أم الرشراش أو إيلات قد تم احتلالها من قبل إسرائيل في ١٠ مارس ١٩٤٩ وتشير بعض الدراسات المصرية أن قرية أم الرشراش أو إيلات كانت تدعى في الماضي (قرية الحجاج) حيث كان الحجاج المصريون المتجهون إلى الجزيرة العربية يستريحون فيها.

قضية الأموال التي تعتبرها مصر "أموال منهوبة" نتيجة استخراج إسرائيل للنفط في سيناء لمدة ٦ سنوات.

استغل بيجن الأيام التي تلت كامب ديفيد مباشرة للإعلان عن عزمه على إقامة مستوطنات في الأراضي المحتلة، ثم بلغت ذروة تصريحاته عام ١٩٨١م عندما أقسم أنه لن يترك أي جزء من الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان والقدس.

تأثير الاتفاقية استراتيجيا وسياسيا:

أنهت حالة الحرب بين مصر وإسرائيل.

تمتعت كلا البلدين بتحسين العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة.

فتح الاتفاق وإنهاء حالة الحرب الباب أمام مشاريع لتطوير السياحة، خاصة في سيناء.

وتم تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٨٩ نتيجة التوقيع على هذه الاتفاقية.

ردود الفعل

أثارت اتفاقيات "كامب ديفيد" ردود فعل معارضة في مصر ومعظم الدول العربية، ففي مصر. استقال وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل لمعارضته الاتفاقية وسماها مذبحة التنازلات، وكتب مقال كامل في كتابه "السلام الضائع في اتفاقات كامب ديفيد" المنشور في بداية الثمانينيات أن: "ما قبل به السادات بعيد جداً عن السلام العادل"، وانتقد كل اتفاقات كامب ديفد لكونها لم تشر بصراحة إلى انسحاب إسرائيلي من قطاع غزة والضفة الغربية ولعدم تضمينها حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

وعقدت هذه الدول العربية مؤتمر قمة رفضت فيه كل ما صدر. ولاحقاً اتخذت جامعة الدول العربية قراراً بنقل مقرها من القاهرة إلى تونس احتجاجاً على الخطوة المصرية.

على الصعيد العربي كان هناك جو من الإحباط والغضب لأن الشارع العربي كان آنذاك لا يزال تحت تأثير أفكار الوحدة العربية وأفكار جمال عبد

الناصر وخاصة في مصر والعراق وسوريا وليبيا والجزائر واليمن.

يرى البعض أن الاتفاقية أدت إلى نشوء نوازع الزعامة الإقليمية والشخصية في العالم العربي لسد الفراغ الذي خلفته مصر وكانت هذه البوادر واضحة لدى القيادات في العراق وسوريا فحاولت الدولتان تشكيل وحدة في عام ١٩٧٩ ولكنها انهارت بعد أسابيع قليلة وقام العراق على وجه السرعة بعقد قمة لجامعة الدول العربية في بغداد في ٢ نوفمبر ١٩٧٨ ورفضت اتفاقية كامب ديفيد وقررت نقل مقر الجامعة العربية من مصر وتعليق عضوية مصر ومقاطعتها وشاركت بهذه القمة ١٠ دول عربية ومنظمة التحرير الفلسطينية وعرفت هذه القمة باسم " جبهة الرفض ". وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ عقدت قمة تونس العادية وأكدت على تطبيق المقاطعة على مصر. وازداد التشتت في الموقف بعد حرب الخليج الأولى إذ انضمت سوريا وليبيا إلى صف إيران وحدث أثناء هذا التشتت غزو إسرائيل للبنان في عام ١٩٨٢ بحجة إزالة منظمة التحرير الفلسطينية من جنوب لبنان وتمت محاصرة للعاصمة اللبنانية لعدة شهور ونشأت فكرة "الإتحاد ألمغاربي" الذي كان مستنداً على أساس الانتماء لأفريقيا وليس الانتماء للقومية العربية.

***

كامب ديفيد.. ثلاثون عاما من التطبيع المرتبك

جاء إغفال القاهرة عن الاحتفال الرسمي بمرور ثلاثين عامًا على توقيع اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل، في ٢٦ من مارس ١٩٧٩ والتي أنهت ثلاثين عامًا من حالة الحرب بين البلدين؛ لتكشف حالة التوتر التي تسود العلاقات الثنائية (المصرية - الإسرائيلية) في ضوء الحرب الأخيرة على قطاع غزة.

هذا التوتر ازداد بعد نتائج الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة وصعود اليمين المتطرف وعلى رأسه أفيجدور ليبرمان، زعيم حزب إسرائيل بيتنا القومي المتطرف؛ فليبرمان هو المرشح القوي لتولي منصب وزير الخارجية، وهو منصب سيلزمه بالتوجه كثيرا إلى القاهرة. وكانت العاصمة المصرية صرحت -بشكل غير مباشر- عبر الصحف القومية بأن "ليبرمان شخص غير مرحَّب به" بعد الإهانات التي وجهها الأخير إلى الرئيس المصري حسني مبارك، ومطالبته بضرب السد العالي بقنبلة نووية.

هذا التوتر قد لا يعكس شكل العلاقة الرسمية القائمة حاليًا بين البلدين على طول الخط، والتي لم تكن يومًا علاقة نمطية. فتارة كانت تحدث توترات تصل إلى حد سحب السفراء. وتارة أخرى كانت تصل إلى أفضل حالاتها، فيوقع البلدان اتفاقيات تجارية مشتركة (تصدير الغاز المصري، والكويز التي تلزم بإدخال منتجات إسرائيلية في صناعة النسيج المصرية المصدرة إلى الولايات المتحدة بنسبة تصل إلى ١١٪، إلخ). لكن جميع حالات التوتر كانت نتيجة للسياسات الإسرائيلية تجاه الدول العربية الأخرى، ولم تكن نتيجة تأزم في أي قضية مشتركة.

لكن على المستوى الشعبي، فإن العلاقة كانت أبعد ما تكون عن أي

حالة تقارب بين الشعبين خلال الثلاثين عاما. بل إنها اتسمت في أغلب الأحيان بالرفض المطلق لأي قادم من تل أبيب؛ رغم المحاولات المضنية التي بذلت من الحكومتين باتجاه إحداث قبول لفكرة "التطبيع" التي تحولت بمرور الوقت إلى "تهمة" يحاول الكثيرون أن ينأوا بأنفسهم عنها.

لكن ما الأسباب التي دفعت إلى أن يتحول التطبيع إلى تهمة؟ وهل هذا يعني أن حالة السلام بين البلدين فشلت، وأن كلاهما لم يخرج رابحًا من تلك الصفقة التي غيّرت شكل المنطقة حتى الآن ولسنوات طويلة مقبلة؟

الأسباب أكثر من أن تُحصى في هذه المساحة الصغيرة، لكن أبرزها يتمثل في أن قرار مصر "السلام مع إسرائيل" كان سياسيًّا ومفاجئًا، ولم تكن هناك مقدمات ما قد يدفع إليه بالشكل الذي تم به، ولم يكن ناتجًا عن تغييرات سياسية أو اجتماعية تبرر قبوله لدى الشارع المصري. بل إن قطاعات كثيرة من الشارع والمثقفين رفض هذه الخطوة من الرئيس الراحل أنور السادات وأدت حالة الرفض العربي أيضًا إلى تعزيز النفور الشعبي من الاتفاقية، رغم ما أنجزته من تحرير الأراضي المصرية.

اتفاقية ورقيّة:

هذا الخلاف أو الانشقاق بين النظام والجماهير كان اللبنة الأولى في أن يتحول السلام مع إسرائيل إلى "اتفاقية ورقيّة" لا تسمح بتطوير العلاقة بين القاهرة وتل أبيب إلى صداقة، وأن يتحول التطبيع إلى "حالة ارتباك" تصيب الداعين إليه بخشية التعرض لاتهامات بالخيانة والتبعية. إضافةً إلى أن استمرار سياسات إسرائيل العدوانية ضد الفلسطينيين والعرب ساعدت على ترسيخ هذا النهج، وأدخلت التطبيع في ثلاجة فشل الكثير من المحاولات في إذابة ثلوجها. توازى مع ذلك زيادة مد الحركات الإسلامية التي رفضت

التطبيع واتخذت من الموقف الرسمي الداعم له ذريعة أساسية للهجوم على النظام، وشحن الشارع المصري المهموم بمشاكله الاقتصادية ضده؛ ومن هنا بدأ ارتباط خفي بين موقف النظام من إسرائيل وبين سياساته الداخلية، التي واجهت وتواجه صعوبات ةاقتصادية، حيث أصبح كثير من الأدبيات السياسية في مصر يتحدث عن قبول النظام لضغوط دولية خاصة من الولايات المتحدة، لإبداء مرونة مع إسرائيل تؤثر على سياساته الخارجية مقابل المزيد من المعونات والاستثمارات لإنقاذ الاقتصاد من عثراته المتكررة ومِن ثَم ضمان بقاء النظام.

المأزق الاقتصادي:

لكن المشكلة أن أزمات الاقتصاد المصري استمرت ولم تفلح محاولات إنقاذه من عثراته إلا في مرات قليلة، وعبر اتفاقيات دولية جاءت نتيجة التطورات التي حدثت في المنطقة، وعبر حروب الخليج الثلاثة، في الوقت الذي استمرت فيه إسرائيل بسياساتها العدوانية، والاستخفاف بمصر ما أجج من مشاعر الكراهية ضدها، وأفشل كل محاولات الترويج للسلام معها. واستغلت المعارضة هذه السياسة للمزيد من الشحن ضد النظام خاصة بعد انتشار ظاهرة ما سمي بالمبيدات المسرطنة، وتزايد نسبة الإصابة بالأمراض السرطانية والوبائية بين المصريين وسرعان ما توجهت أصابع الاتهام إلى التطبيع وأنصاره الذين سمحوا بدخول هذه المواد الإسرائيلية لتدمير المجتمع المصري، وهو الأمر الذي رسخ في الوجدان الشعبي الترابط بين تردي الوضع الصحي والنفسي والاقتصادي وبين إسرائيل بوصفها العدو الأول لمصر الهادفة إلى القضاء على المصريين وجدانيًّا بعد أن عجزت عن ذلك عسكريًّا.

اللافت أن هذه الكراهية انتقلت من الجيل الذي حارب إلى الجيل التالي الذي لم يشاهد أي حرب مع إسرائيل بل إن من ناهز على الأربعين لم يعِ آخر الحروب في عام ١٩٧٣. ورغم ذلك فإن كراهية الشارع المصري لإسرائيل متأصلة، وتكاد تمثل أحد عناصر التربية التي يتم تلقينها للأطفال حتى الآن من آبائهم. وحاول البعض الترويج بأن كثيرًا من الشباب المصري لم يعُدْ يهتم بفكرة العداء مع إسرائيل، وأن أعدادًا كبيرة منهم يتوافدون على الكيان الصهيوني للبحث عن فرصة عمل بعد أن فشل في إيجادها في مصر.

الخاسر والرابح:

هذه النظرة ترى أن مصر خسرت من الاتفاقية أكثر مما كسبت فهي وإن استردت أرضها، فإنها خسرت كثيرًا من نفوذها الإقليمي؛ ما أدى إلى انفراط عقد الإقليم، ودخل في صراعات لم يخرج منها حتى الآن، وأن المردود الاقتصادي من السلام لم يَفِدِ الاقتصاد المنهك بالكثير، بل إن المعونة الأمريكية وبعض المعونات الأوربية، التي وإن ساعدت على إحداث إصلاح ملحوظ في البنية الأساسية، فإنها تحولت إلى أداة ضغط من واشنطن وأوربا وفشلت في إحداث تحول في الاقتصاد المصري الذي ما زال حتى الآن في مرتبة متأخرة على المستويين الدولي والإقليمي. في المقابل فإن إسرائيل ربحت كثيرًا من الاتفاقية؛ فهي نجحت في احتواء أكبر وأكثر خطر يهدد وجودها، فقوة مصر لا تقتصر على القوة العسكرية فقط، وإنما على قوة بشرية هائلة قادرة، إذا أتيح لها فرصة حقيقية، على إحداث تحولات جذرية قد تغير وجه المنطقة بما يهدد الوجود الإسرائيلي نفسه، إضافةً إلى أن العرب اتخذوا النهج المصري دليلاً، وقدموا يد السلام في الوقت الذي تأبى فيه تل أبيب في تقديم أي مؤشر على قبولها للسلام، بل وتتفنن في آليات الهروب منه بعد أن

حولت عملية السلام إلى "إدارة صراع" بدلاً من حله.

عدو إسرائيل الأول:

لقد تحولت إسرائيل إلى أهم مراكز استقطاب الاستثمار الغربي في مقابل الفتات إلى مصر، ما ساعدها في تحسين مستواها الاقتصادي من جهة ودعم مخططاتها العسكرية الاستعمارية من جهة أخرى. كما سعت إلى ترويج نفسها بأنها واحة الديمقراطية والفرص الحرة في المنطقة.

واستغلت تل أبيب الفرصة للتهرب من التزامات السلام بل ومن التطبيع نفسه الذي إذا طُبِّق بشكل حقيقي قد يمثّل خطرًا داهمًا عليها؛ فالسلام يعني أن يكون هناك قبولاً إسرائيليًّا بدخول مئات، بل وآلاف العرب، إلى أراضيها، سواء للسياحة أو العمل، وهذا ما ترفضه تل أبيب؛ فحتى لو ظلت تروّج لنفسها بأنها ضحية وتناشد العرب التطبيع معها، فهي تريد سلامًا مفصّلاً على مقاسها، ويخدم أهدافها. أما السلام والتطبيع الحقيقيان ففيهما هلاكها.

المصدر: موقع قصة الإسلام للدكتور / راغب السرجاني

******

قالوا عن معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية

مناحيم بيغن: لم يكن مواطن في إسرائيل يمكن أن يصدق قبل عامين أنه في الثاني من أبريل ١٩٧٩ سيذهب رجل بمنصب رئيس وزراء إسرائيل إلى القاهرة وتستقبله هناك وحدة من الجيش بسلاحها وتعزف نشيدنا القومي.

أنور السادات: عشرات المليارات نازلة علينا وبحمد الله من غير الأمة العربية، مضت السنين العجاف لأننا عرفنا طريق السلام، مضت كل المعاناة.

ايهود اولمرت في مقابلة مع صحيفة جيروزاليم بوست: عندما أفكر فيما يمكن أن تكون الأمور لو أننا نتعامل مع أشخاص غير مبارك أصلي يوميا من أجل سعادته وصحته.

السفير السوري لدي واشنطون عماد مصطفي في مقابلة مع CNN: من الأفضل التعامل مع شخص مثل وزير الخارجية الإسرائيلي أفيغدور ليبرمان، بدلاً من الوزيرة السابقة تسيبي ليفني، ليبرمان شخص يتحدث علانية عما يجول في خاطره، فيما ليفني وأعضاء الحكومة التي تنتمي إليها، كانوا يتحدثون دائما عن رغبتهم في إحلال السلام، في الوقت الذي يقومون فيه بارتكاب أعمال وحشية في غزة.

***

فماذا قال شيخنا الجليل نسأل الله أن يتغمده بوافر رحمته عن معاهدة السلام وكيف كان يراها من وجهة نظره وغير ذلك من الأمور.. مما رواها هو بنفسه في حواره مع الأستاذ / سعيد أبو العنينين في كتابه.. الشعراوي الذي لا نعرفه ".

قال الشيخ: " كنت على جبل عرفات في تلك الليلة. لقد علمت بزيارة

الرئيس للقدس وأنا على جبل عرفات ليلة العيد. وكان الأمر مفاجأة لي، مثلما كان مفاجأة لغيري. علمت ليلتها من الدكتور محمد عبده يماني وكان وقتها وزيرا للإعلام في السعودية. كان معي الدكتور الزبير والسيد أمين غطاس والسيد اسحق رحمه الله.

وقد سألني السيد اسحق ليلتها: ألم يتحدث معك الرئيس السادات؟.. ألم يبلغك بما كان يعتزمه؟ ألم تقابله قبل سفرك للحج؟.

قلت: لم يتحدث معي الرئيس السادات في هذا الأمر..ولم يشاورني.. ولا أعتقد أنه شاور أحدا.. وقد قابلته قبل سفري للحج وقلت له: " أنت موش حتيجي تحج السنة دي يا ريس؟ " فقال: " موش باين ".. وأضاف: "أبقوا ادعوا لي.. اقرءوا لي الفاتحة هناك " !

وقال الشيخ: هذا ما جرى من كلام بيني وبين الرئيس السادات عندما قابلته قبل سفري للحج بأيام قليلة.

لم يكن أحد يعلم بما كان ينتويه.. كانت مفاجأة للعالم كله..

وهنا وجه المحاور سؤالاً للشيخ قائلاً: " ولكن الرئيس السادات ألمح في خطابه في مجلس الشعب يوم ٩ نوفمبر ١٩٧٧ – أي قبل عشرة أيام من قيامه بالمبادرة – إلى أنه على استعداد للذهاب إلى أي مكان في العالم سعيا للسلام وحقنا للدماء ، ولو كان هذا المكان هو " الكنيست الإسرائيلي ".. فهل استرعى انتباه الشيخ ما ألمح إليه السادات في هذا الخطاب للمرة الأولى.

فأجاب الشيخ: " هذا الكلام لم يستوقف أحدا ، لأن مثل هذا الكلام كان يقال كثيرا.. وهو كلام إجمالي. ولم يكن واضحا فيه أن السادات قرر القيام بتلك المبادرة التي فاجأ بها العالم.

ورداً على سؤال يقول " كان كلام السادات في مجلس الشعب عن استعداده الذهاب إلى الكنيست الإسرائيلي سعيا للسلام وحقنا للدماء يوم ٩ نوفمبر.

وفي يوم ١٥ نوفمبر بعث مناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلي بدعوة رسمية للرئيس السادات لزيارة القدس عن طريق السفارتين الأمريكيتين في تل أبيب وفي القاهرة. وقبل السادات الدعوة. وتحدد لبدء الزيارة مساء يوم السبت ١٩ نوفمبر.. وكان يوافق يوم وقفة عيد الأضحى المبارك.

فهل كان الشيخ يعلم بشيء من هذه الوقائع والتطورات التي حدثت متلاحقة وفي سرعة بعد خطاب السادات في مجلس الشعب؟

قال الشيخ: لم أكن أعلم بشيء من هذا.

،أضاف الشيخ: السادات كان رجل دولة.. وكان يريد أن يسقط الورقه التي كانت إسرائيل تلعب بها.. وتقول للعالم أنها دولة مسالمة وتريد أن تعيش وأن العرب وحوش ودعاة حرب وهم الذين يريدون تدميرها وإلقاءها في البحر!

السادات أراد أن ينزع هذه الورقة من يد إسرائيل والتي خدعت بها العالم.. والرأي العام العالمي سنوات طويلة.

وقال الشيخ: قبل قيام السادات هذه المبادرة ، حدث أن كنت في زيارة لإحدى الدول الأوروبية. التي يغيب عن ذهني ذكرها الآن ، وكنا قد ذهبنا على هناك على مركز إسلامي ، وقد فوجئنا بالكثيرين يقولون لنا أنهم يقيمون في عمارات ، وأنهم يجدون تحت " عقب الباب " جوابات ورسائل موجهة إليهم من اليهود يقولون فيها: "أيتها الأسرة المحترمة..نرجو أن تخطرونا كم

عدد الأفراد الذين يستطيعون أن يلجئوا إليكم لأن مصر والدول العربية يريدون أن يرمونا في البحر!

هذه كان من الدعايات الإسرائيلية المضللة.

والسادات أراد أن ينزع من إسرائيل هذه الورقة التي كانت تلعب بها.. وهو لم يقم بالمبادرة إلا وهو منتصر..

وعن الحجيج وموقفهم من هذا الحدث وكانوا حينها على جبل عرفات وكان ذلك ليلة زيارة السادات للقدس فقال الشيخ: أنهم انقسموا إلى قسمين:

قسم زعلان وغضبان لأن السادات ذهب لزيارة القدس.

وقسم آخر كان مؤيدا للسادات ، وكان يدعو له بالتوفيق في مهمته ، ويعتبرها شجاعة تحسب له في تاريخه.

وأضاف الشيخ: " صحيح أن المبادرة التي أقدم عليها السادات كانت مفاجأة للعالم كله / . ولم يكن أحد يتوقعها.. لكنها عندما حصلت.. تبين أنها تتمشى مع واقع الحال والظروف في ذلك الوقت. وقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن السادات كان بعيد النظر.. فقد أخذ الأرض بدون إراقة الدماء. وخصومه في المبادرة هم أنفسهم الذين قالوا بعد ذلك: " يا ريتنا قبلنا " !

وأضاف الشيخ: زمان.. لما حصل التقسيم. تقسيم سنة ١٩٤٧ كان من رأيي يومها أننا لا يجب أن تأخذنا الحمية. بل يجب أن نقبل هذا التقسيم. لأنه يضع إسرائيل في بقعة محدودة ويعمل على " تحجيمها " وحصارها، لكن عدم القبول أدى إلى التوسع في ظروف لم نكن قادرين على التحكم فيها أو السيطرة عليها.

فالذي يرفض شيئا يجب أن يكون لديه حيثيات لهذا الرفض، بحيث

يرتقي في رفضه ولا ينزل عنه. وهذه هي السياسة.. السياسة أن تقول كلاما يستشهد به أي واقع.

سؤال: ماذا قال فضيلة الشيخ للرئيس السادات في أول مقابلة معه بعد زيارة القدس؟ قال الشيخ: قلت له " قبل الله مسعاك. وجزاك على نيتك. وإن لم تأت بشيء ".

وقال الشيخ: بعد المبادرة كانت هناك ردود فعل غاضبة في بعض الدول العربية وحدث في مصر هنا أن بعض الفلسطينيين عملوا " هيصة" في مصر الجديدة. ويومها اجتمع الوزراء لمناقشة هذه المسألة.

وتكلم الوزراء كل وزير قال الكلام الذي تمليه عليه روحه الوطنية.

وكان الرأي الغالب هو أن يأخذ معهم إجراء:. وأن يقبض عليهم، ويتم ترحيلهم من مصر. واستمع السادات إلى كل الآراء. ثم قال رأيه هو في النهاية:

قال السادات: مع احترامي لمشاعركم. وآرائكم.. ووطنية اقتراحاتكم، وغضبكم لما حدث. لكن لي رأي.. وهذا الرأي هو ألا نقبض عليهم، ولا نعمل على ترحيلهم.. بل نبقيهم... لأنهم إذا خرجوا فمن الجائز أن يعملوا أي حاجة للإساءة إلى أبنائنا في الخارج. فهم هنا أمام أعيننا. ووافق المجلس على رأي السادات.

***

سؤال: هناك تصريح منسوب لفضيلة الشيخ الشعراوي ورد في سياق حديث له بغد المبادرة التي فاجأ بها الرئيس السادات العالم بالذهاب إلى القدس.... وهذا التصريح يقول: أن الشيخ الشعراوي قال بأعلى صوته

موجها كلامه إلى السادات: " إن من يصنع مبادرة مع اليهود ، عليه أن يصنع مبادرة مع الله "..

فما الذي كان يعنيه الشيخ بهذه العبارة؟

قال الشيخ: كنت أعني تحديدا أننا إذا كنا نرى أنه في سلام الأرض أن نهادن أعداءنا ، ونصنع معهم مبادرة لنطفئ نار الغل والحقد.. ولنجنب أمتنا الدماء.. فهلا نصنع هذه المبادرة مع الله حتى يأتوا إلينا صاغرين؟.

ويأتي الحديث عن مناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق الذي كان طرفا مع الرئيس السادات منذ بعث إليه بدعوة رمية لزيارة القدس وحتى توقيع كامب ديفيد أو اتفاق السلام. وهنا سؤال موجّه للشيخ الشعراوي: ألم يلتق الشيخ بمناحم بيجين في القاهرة ولو بالصدفة ، خلال تلك الأيام التي كان يتردد فيها مناحم بيجين على القاهرة للقاء الرئيس السادات؟

قال الشيخ: أبدا.. لم يحدث.

وسؤال آخر: وماذا عن الشكوى التي كان يرددها مناحم بيجين من الشيخ الشعراوي والتي طلب من سعد مرتضى سفير مصر في إسرائيل أن يبلغها للرئيس السادات، لماذا كان بيجين يشكو من الشيخ الشعراوي؟

قال الشيخ: الحكاية رواها أنيس منصور.

والذي رواه أنيس منصور عن شكوى بيجين من الشيخ الشعراوي يقول: حدث مرة أن جاءني سفيرنا في إسرائيل سعد مرتضى في حالة من الفزع والاضطراب.. قال: مصيبة.. لابد أن نبلغها للرئيس السادات.. مصيبة كبرى.. معى رسالة من السيد مناحم بيجين يشكو من أحاديث الشيخ الشعراوي في التليفزيون.. لأنه دائم الهجوم على اليهود وليس على إسرائيل أو

على الصهيونية العالمية. وأن هذا الذي يفعله الشيخ الشعراوي يعطل مسيرة السلام.

قلت لسعد مرتضى: أرجو أن تعيد الذي قلت.

فأعاد.. قلت: لا أعرف كيف أنقل هذه الشكوى إلى الرئيس: سوف يغضب غضبا شديدا. فليس من حق بيجن أن يتدخل في شؤوننا ولا أن يتعرض لرجال الدين.. فرجال الدين أكثر دراية وعلما. والرئيس السادات يحاول أن يضيق مجالات الخلافات بين مصر وإسرائيل.. وهذا الذي يقوله بيجن سوف يوسع الخلافات.. والموضوعات الدينية حقول ألغام مروعة. فأعطني بعض الوقت لكي أفكر في طريقة نقلها للرئيس.. ولابد أن أنقلها إليه.

ويمضي أنيس منصور في روايته فيقول: وفي لقاء الرئيس السادات لمحت له بما يقال في إسرائيل عن الأحاديث الدينية في التليفزيون وفي المساجد.

وكان رد الرئيس السادات: إن هؤلاء المتطرفين في إسرائيل هم الذين أقاموا الدولة وهم الذين سوف يهدمونها أيضا. بضيق الأفق والخرافات التي يجهدون أنفسهم في تفسيرها على أنها حقائق !

ثم تلقيت من د. بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية صورة من الخطاب الذي ألقاه السيد هامير وزير التعليم الإسرائيلي، وهو من المتدينين المتطرفين.. أما الخطاب فشنيع ولا يمكن نشره أو الإشارة إليه وتكهربت الدنيا هناك وهنا.

ولكن وجدت أن هذا الخطاب بالذات هو الذي يمكن أن نرد به على شكوى بيجن. فقلت للرئيس السادات: إن بيجن له شكوى غريبة فهو يزعم

أن الشيخ متولي الشعراوي يهاجم اليهود كيهود. وأن هذا من شأنه أن يعطل عملية السلام.

وقبل أن يرد الرئيس قلت: سيادة الرئيس أنه ليس على يقين مما يقول.ولكننا على يقين من الذي قاله السيد " هامير " وزير التعليم الإسرائيلي فهو يقول: إنه لا أمل في أن يتحقق السلام بين مصر وإسرائيل إلا إذا حذف المصريون الآيات القرآنية التي تهاجم اليهود.. إنه رجل مجنون..فهو لا يعرف معنى القرآن.. ولا معنى الكلمات البشعة التي تفهو بها وهو بالذات الذي يستطيع أن يشعل حروبا بين مصر وإسرائيل. وهو كواحد من أقطاب المتطرفين لا يريد السلام مع مصر.

وتضايق الرئيس السادات.. وطلب مني أن أسافر إلى إسرائيل وأن أرد وأن أوضح خطورة هذا الذي قاله بيجن وقاله وزيره هامير..

وتلاشت هذه الزوبعة التي كان من الممكن أن تصبح إعصارا مدمرا.

انتهت رواية أنيس منصور عن شكوى بيجن من الشيخ الشعراوي للرئيس السادات.

****

الفهرس